

مكتبة ٣٠٧
سمر يزبك
تسع
عشرة
امرأة
سوريّات يروين
المتوسط
مكتبة

تسع عشرة امرأة

مكتبة | 307

المؤلف: سمر يزبك / عنوان الكتاب: تسع عشرة امرأة، سوريّات يروين.
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-24-6



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org



سمر يزبك
تسع عشرة امرأة
سوريّات يروين
مكتبة 307
متوسط
مكتبة

تعود أرباح هذا الكتاب لمنظمة "النساء الآن من أجل التنمية"

www.women-now.org

إلى حفيداتنا وأحفادنا:

كنّا نتطلع إلى قامة مستحيلة، اسمها العدالة. لم نُغلق البابَ وراءنا،

ولم نتركهُ للرّيح!

مقدّمة

يضمُّ هذا الكتابُ جهدَ مجموعة حواراتٍ، أجريتُها مع خمس وخمسين امرأة في البلدان التي لجأنَ إليها: تركيا، وفرنسا، وألمانيا، وكندا، ولبنان، وبريطانيا، وهولندا، وكذلك في الدّاخل السّوريّ. اخترتُ منها تسع عشرة شهادة فقط، بسبب الشّبه المُتكرّر في تجارب النّساء، والذي يُظهِر لنا جزءًا من الجحيم الذي قاومنَهُ بشجاعة في سورية، وهو جزء من جحيم تعيشه النّساء في العالم العربيّ، وفي مناطق أخرى من العالم، فكانت الأولويّة في الاختيار لمسألة التّنوّع الجغرافيّ السّوريّ، لتشكيل مشهديّة أوسع عن الذّاكرة.

بدأتْ فكرة الكتاب في منتصف عام ٢٠١٥، عندما كنتُ أسافر بين المُدُن، وأُدوِّن حكايات السّوريّيْن الذين أصادفهم في المنافي. حصل هذا مصادفة، عندما التقيتُ بأفراد عائلة سوريّة في أحد القطارات، وسمعتُ قصّتهم، ووجدتُ نفسي أكتبُ ما يروونه، ثمّ اكتشفتُ أنّني أستطيع لَمْسَ سورية البعيدة، من خلال هذه الحكايات. كان دافعي الأوّل هو اكتشاف سورية التي لم نعد نعرفها تمامًا، ولم أفكّر في حراسة الذّاكرة كما خُيّل إليّ لاحقًا. فالذّاكرة التي ظننتُ أنّني أكتب أحد وجوهها كانت متحوّلة ومتبدّلة إلى درجة المرارة والتّحمّل الشّاقّ.

قرّرتُ حمل دفاتر صغيرة في أسفاري، لتدوين حكايات السّوريّيْن. أينما

كنتُ أتوجّه في البلدان التي أعبرها، كنتُ أصادف سوريّيْن يعبرون المُدُن والقُرى للوصول إلى وجهتهم في بلاد اللّجوء. كنتُ أرى الخوف في عيون شبابهم ونسائهم، وذلك الفراغ الأبيض في تحديق أطفالهم.

في أحيان أخرى، كنتُ أتعمّد السَّفَر إلى أماكن محدّدة للقاء ناجين من البحر، ومن المجازر. بعد أن تجمّعتْ حكايات كثيرة في جعبتي، وجدتني، بعد لقاءات عدّة، أفكّر في رواية التّاريخ كما عاشتْه النّساء، لملامسة جزء من حقيقة التّراجيديا السّورية.

خلال سنة كاملة، أحجمتُ عن لقاء العائلات، واحتفظتُ بالدّفاتر الصّغيرة المخبّأة كجزء من تصوُّري عن خزّان الذّاكرة الجَمْعيّة، واكتفيتُ بتسديد وجهتي نحو النّساء وهنّ يروينَ حكاية الثّورة والحرب. لقد فعلتُ ذلك بشَغَف عارم، مدفوعة بسَبَبَيْن أساسيَّيْن لرواية الحكاية السّورية: السّبب الأوّل بدأ من حال شخصيّة. فذات يوم وأنا أمشي في الشّارع، وجدتُ نفسي فجأة في مكان مجهول، على الرّغم من أنّني لا أبعد سوى شارع واحد عن بيتي في باريس، نسيتُ مَنْ أنا، وإلى أين أتّجه، وفي أيّ مكان أعيش. أخذتُ أتلفّتُ حولي بلا ذاكرة ولا حاضر ولا مستقبل، كان شيء ما في رأسي يتبخّر! وصرتُ بعد ذلك أفقد الاتّجاهات في طُرُقات باريس، فبات هاجسي هو مرض النّسيان عندي كفرد: هل هو منفصل عن فعل النّسيان الجَمْعيّ في المنفى؟ ثمّ صار الهاجس يتحوّل تمزّقًا وأنا أتابع صورتنا كسوريّيْن أمام أنفسنا وأمام العالم أجمع، فالمرآة التي أبصرْنا فيها أنفسَنا ونحن نحارب النّظام الدّيكتاتوريّ، أُسوة بحلفائه الطّبيعيّيْن من القوى الظّلاميّة الدِّينيّة، كانت تعكس تمثيلاتنا كسوريّيْن، كما تمّ تداوُلها أمام الرّأي العام العالميّ، وكذلك أمام أنفسنا؛ إنّ صور علاقاتنا الإنسانيّة

التي شوهّتْها الحرب كانت تأبى إخراجنا من ثنائيّة حادّة الوجهَيْن، فإمّا أن تكون امتدادًا لجلّادنا وامتداداته في داعش والمجموعات الجهاديّة، أو أن ننحصر في هيئة أشلاء مقطّعة، ومجموعات بشريّة محطّمة ناجية من المجزرة، لكنّها عالقة في مرارة العيش والنّجاة، وكان يُراد لهذه الصّورة أن تتحوّل وشمًا ملتصقًا بنا، مرافقنا كهويّة، تتحوّل في المنفى واللّجوء صيغةَ إذلال، إضافة إلى السّؤال الذي فجّرتْهُ الثّورة والحرب عن ذاكراتنا الجَمْعيّة، وعن هويّتنا المشتركة، حول ما إذا كنّا قابلين، وقادرين كمجموعات، على العيش في بلد اسمه "سورية"، عرفناه وأدركنا أنّنا لم نعرفه! ولكي أكون أكثر دقّة، ذهب هاجس السّؤال عندي إلى مسؤوليّتنا كأفراد في تكوُّن ذاكرة حقيقيّة وفعليّة، مضادّة لتلك التي تسعى إلى تبرير الجريمة، ذاكرة قادرة على تثبيت سَرديّة موازية، تُنصِف قضيّتنا العادلة، وتُظهِر جزءًا من الحقائق ساطعًا وبليغًا. لقد رأيتُ أنّ أساس البدايات هو التّحديق والبحث في صورتنا المُفترَضة كهويّة جَمْعيّة، وتفكيكها، ومكاشفتها. ببساطة كانت هذه الذّوات التي شكّلتْها النّساء جزءًا من ذلك البحث المحموم الذي قادني إلى التّحديق المهول في تلك الهوية.

السّبب الثّاني كان أن هذا الكتاب هو أحد طرائقي في المقاومة، وجزء من إيماني بدورنا كمثقّفين وكتّاب في تحمُّل مسؤوليّتنا الأخلاقيّة والوطنيّة تجاه العدالة وإنصاف الضّحايا، والتي يتجلّى أهمّ وجوهها في حربنا ضدّ النّسيان.

***

اعتمدتْ آليّة تنفيذ الكتاب على طرائق عدّة، أهمّها جمع المعلومات عن النّساء اللواتي خضنَ تجارب نضاليّة في الثّورة، وتمّ التّركيز على

مجموعة معيّنة من الأسئلة الآتية: ماذا كنتِ تفعلين عندما بدأت الثّورة؟ وما هو السّبب الذي دفعكِ إلى الانخراط في الثّورة؟ ثمّ رواية التّجربة الشّخصيّة من منظور المقاومة والجندرة، من دون الدّخول في تفاصيل، تحيد عن هذا الخطّ، إذ إنّ الفكرة الأساسيّة التي عملتُ بموجبها مع النّساء كانت تتلخّص في كشف تفاصيل ما حصل خلال الحراك الشّعبيّ منذ بداية التّظاهرات الأولى. كان هذا هو الخطّ النّاظم، لكنّني تركتُ الحُرّيّة لكلّ امرأة في أن تروي روايتها الخاصّة بها.

سافرتُ إلى بلدان عدّة، من أجل اللّقاءات الشّخصيّة، وكنتُ أجريتُ تمهيدات كثيرة عبر السّكايب، ومن خلال اتّصالات هاتفيّة متكرّرة، ما عدا أمرًا، وجدتُهُ مهمًّا، وهو البحث والاستقصاء عن كلّ امرأة أُجري معها حوارًا. كانت مرجعيّتي الأهمّ هي البحث الميدانيّ. الأسماء المذكورة بالكامل مع الكنية هي أسماء حقيقيّة، أمّا الأسماء المفردة، فهي حركيّة، أُخفيَتْ بناء على رغبات صاحباتها.

هناك نساء سجّلتُ معهنّ عبر السّكايب، وهنّ خمس عشرة امرأة، منهنّ أربع في هذا الكتاب. عندما أنهيتُ المقابلات في منتصف ٢٠١٧، كانت فكرتي المبدئيّة إعادة كتابتها بطريقتي وبلغتي كروائيّة وكاتبة، كما فعلتُ في كتابي "تقاطع نيران" و"بوّابات أرض العَدَم"، لكنّني بعد تفريغ التّسجيلات ومراجعتها، وجدتُها أصلح ما تكون إذا تُركَتْ بلغة كلّ امرأة. كان هذا الخيار أكثر أمانة ودقّة، إذْ إنّه يعطي الصّلاحيّة الأوسع، ليكون هذا الكتاب صوتهنّ ولغتهنّ، لذلك حاولتُ قدر الإمكان الوفاء لمنطق اللّغة فيما قلنَهُ وعدم حَشْو تجاربهنّ بآراء شخصيّة لي، أو إعطاء مفرداتهنّ مصطلحات نخبويّة وأكاديميّة أو أدبية، بعيدة عن اللّغة التي عبّرنَ بها، والتي وجدتُها "لغة السّهل الممتنع"، المَرويّة بضمير المتكلّم.

بعد الانتهاء من تدوين الشّهادات، أرسلتُ كلّ شهادة إلى صاحبتها، لمراجعتها وتأكيدها. منهنّ مَن عدَّلتْ في شهادتها، ومنهنّ مَن اعترضتْ. كانت الصّعوبة تتمثّل في إجراء التّوافق بين صورتهنّ عن أنفسهنّ وتجربة كلّ منهنّ، وبين تشكُّل الصّورة الأخرى التي اكتشفنَها بعد قراءة شهاداتهنّ. كان عليّ اختيار نَسَقِ الحكاية المفصليّ فيها، بعد أن وجدتُ أن كلّ امرأة منهنّ تحتاج إلى كتاب كامل، لما تحمله التّجارب من تفاصيل مهمّة ونادرة على المستوى الإنسانيّ! لذلك، بقيتْ تفاصيل كثيرة كانت جديرة بالذِّكْر خارج إطار هذا الكتاب. وأرجو أن يُتاح لكلّ واحدة منهنّ في حال قرّرت كتابة سيرة حياتها، أن تخرج إلى العَلَن.

النّساء هنا يروينَ الحكاية، كلّ واحدة من مكان مختلف، والكتاب لا يدّعي الإحاطة بالجغرافيا السّوريّة بأكملها، لذلك وقع اختياري على تسع عشرة شهادة فقط، من أصل خمس وخمسين، من أماكن ومواقع ومُدُن مختلفة: غوطة دمشق، حرستا، زملكا، سقبا، دوما، داريّا، المعضّميّة، إدلب وريفها، حلب، السّاحل السّوريّ، حمص، القنيطرة، الرّقّة، دير الزّور، دمشق، وحماه.

أيضًا، النّساء في هذا الكتاب لا يدَّعينَ امتلاك الحقيقة. كلّ واحدة منهنّ عالم قائم بذاته، وغالبًا ما يقف هذا العالم عند قَصِّ الحدث، من دون شرح عميق عن الذّات النّاجية. تروي كلّ واحدة منهنّ، حكايتها وتجربتها الشّخصيّة، تمامًا كما عاشتْها. لا تصف نفسها بالضّحيّة أو بالمناضلة. وهذا ما يجمع بين الشّهادات، ويجعلها صفحات متفرّقة من كتاب واحد. كذلك، تختلف أعمار النّساء، وتتراوح بين العشرين والسّابعة والسّبعين. وهنّ ينتمينَ إلى الطّبقة الوسطى، وقد تعمّدتُ التّركيز على هذه الطّبقة،

لأنّ المنتميات إليها قادرات، أكثر، على فعل القَصّ والمكاشفة. وهنّ النّاجيات، أيضًا. غير أنّ الغائب عن هذا الكتاب هو صوت النّازحات واللّاجئات في الخيام، واللواتي غالبًا لا يملكنَ حتّى ما يساعدهنّ على عبور الحدود، أو حتّى تأمين طعام لأطفالهنّ، وهو صوت يحتاج إلى سرديّة مختلفة، وكتاب آخر، أرجو أن يُتاح لي الوقت والعيش لإنجازه.

تُواجِه الرّاويات في هذا الكتاب الوضعَ الاجتماعيّ ككلّ، ومن ضمنه طبقتهنّ الاجتماعيّة. يراجعنَ تجاربهنّ الخاصّة ورؤيتهنّ إلى أنفسهنّ، ولا يعملنَ على تعزيز فكرة الضّحيّة، وعلى تصوير أنفسهنّ ضحايا، كأنّ المقاومة بالنّسبة إليهنّ تتناقض مع مفهوم الضّحيّة، وما تنطوي عليه من تقوقع واعتناق للجروح، وكذلك مع فكرة البطولة والتّبجُّح بها. وهذا المنطق يتعارض مع منطق المجتمع الذي يتراوح بين حَدَّي الضّحيّة والبطولة. فالمجتمعان العربيّ والغربيّ، عبر أدوات الإعلام وغيرها، بصورة عامّة، يَسهُل عليهما أكثر وضع المرأة ضمن إحدى هاتَيْن الخانَتَيْن، خصوصًا الخانة الأولى، كما لو أنّ المرأة هي ضحيّة بالضّرورة.

يأتي الكلام هنا، من جهة مغايرة للسّائد. تتحدّث النّسوة عن المعاناة والألم، وعن انخراطهنّ في فعل مُبتَكِر وشجاع، ضمن البحث عن عالم مُوازٍ، وعن حياة تتفجّر في قلب الموت. تقول فاتن: "كان الضّغط الاجتماعيّ أسوأ من القصف، بخاصّة أنّ البنية الاجتماعيّة كانت تتغيّر وتتراجع إلى مزيد من الانحدار، وهذا التّغيّر كان يتمّ بقوّة السّلاح". إنّ أسوأ ما أنتجتْهُ الحرب، حسب تعبيرها، هو ظهور التّخلّف الاجتماعيّ إلى العَلَن. فاتن لا تزال تعيش حتّى اللّحظة في غوطة دمشق، وهي تكشف التّناقضات المرعبة التي أفرزتْها الحرب، والمسؤول عنها. لكنّها تروي حكاية الثّورة وعَظَمَتها،

ومقاومة السّوريّيْن المتعدّدة الشّكل. هكذا، وللمفارقة الكبيرة، على الرّغم من استثنائيّة المقاومة، تُجبرها الظّروف على التّحوّل دفعةً واحدة من محاربة الاستبداد والطّغيان الواقع على مجتمع بأكمله، إلى المطالبة بأبسط الحقوق الإنسانيّة، وحقوق المرأة خصوصًا. إنّها تعي، من خلال سَردها، أن آليّة العنف الوحشيّ التي انتهجها النّظام، ووقوف المجتمع الدّوليّ إلى جانبه، والتّدخّل الإقليمي، كانت جزءًا من صناعة انحدار حقوق المرأة. وهذه كانت واجهة الأداة لها هي المجموعات الإسلاميّة المتطرّفة. وهذا ما تؤكّده آمنة خولاني في شهادتها عن تجربة "الأكرميّيْن" أصحاب المشروع الإسلاميّ التّنويريّ الإسلاميّ. وهي رواية تفكّك، عبر التّفاصيل الإنسانيّة، المنهجيّة العنيفة التي تلاعبت بالنّسيج المجتمعيّ السّوريّ، وخرّبَتْهُ، والتي اتّبعها نظام حافظ الأسد، ومن بعده ابنه بشّار على مدى عقود.

سارة، من المعضّميّة، الشّابّة التي درست اللّغة الإنكليزيّة، هي نموذج رائد في صناعة الحياة. لقد نَجَتْ من المجزرة الكيماويّة، ومن مجزرة السّكاكين، ومن القصف والحصار، وأسّستْ مشاريع تنمويّة عدّة، وعملت مراسلة إعلاميّة سرّيّة. وهي تروي كيف مارس النّاشطون الشّباب، حتّى العلمانيّون منهم، أسلوب تشويه السّمعة والقَتْل المعنويّ لِوَأد فاعليّة النّساء، والحَدّ من سلطتهنّ المَعنيّة بالتّأثير والتّغيير. كذلك، تُوضِّح كيف أنّ السّلطة الذُّكُوريّة القَمْعيّة لا تتجسّد عند الرّجال فقط، بل تتبنّاها أيضًا فئة من النّساء اللواتي يتحوّلنَ جزءًا من تلك السّلطة. بمعنى أنّ الانحياز هنا ليس جندريًّا، ولكنْ، يتبع السّلطة والقوّة، وتصبح النّساء جزءًا لقَمْع أُخريات. هنا أيضًا، تتكشّف خصوصيّة علاقة المرأة، حتّى مع رفاق الخندق والتّوجّهات السّياسيّة الواحدة. وهذا ما يُبيِّن أيضًا التّناقضات التي يعيشها قسم مُهمّ من المثقّفين السّوريّيْن والعرب عمومًا. بمعنى أنّ بعض الذين

يناهضون الدّيكتاتوريات، وهم كُثُرٌ، لم يتخلّصوا بعد من ثقافة تقليديّة، أبرز وجوهها إقصاءُ المرأة، والحطُّ من قيمتها، والتّعاطي معها بصورة دونيّة، وككائن قائم بغيره لا بذاته.

ينطبق ذلك أيضًا على العلاقة بقضايا جوهريّة أخرى، بينها معادلة العلمانيّة والدِّين. وهذا يدفع إلى طَرْح جملة من الأسئلة. منها، على سبيل المثل: هل يمكن الفصل بين البُعدَيْن الاجتماعيّ والسّياسيّ في مواجهة الطّغيان؟ هل ثمّة استجابة فعليّة للتّحدّي المفروض على العالم العربيّ، ومن ضمنه سورية، على المستويات السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافية، أي على مستوى الوجود ككلّ، والذي بدأ منذ القرن التّاسع عشر؟ هل يستقيم التّمرّد والتّجديد والانخراط في مشروع سياسيّ جديد، إذا لم يطرأ تغيير جذريّ على طريقة التّفكير نفسها، واعتماد أسس أكثر موضوعيّة ووضوحًا وأكثر واقعيّة وملامسة للواقع؟

تتابع ديمة، من حرستا، فتصف ما حصل من تغييرات في خطاب الثّورة، وتتحدّث عن تجربتها الاستثنائيّة في المعارك، وعلى خطّ الجبهة، وعن المفاصل التي أدّت إلى انزياح الثّورة عن خطّها الوطنيّ، ودخول المرتزقة واللّصوص إلى الكتائب المسلّحة، وكيف بدأت الشّعارات الإسلاميّة تسيطر على عقول النّاس. تبوح ديمة بتلك الأسرار الصّغيرة التي يمكن من خلالها اكتشاف التّعقيد والتّناقض في مسيرة الثّورة والحرب، وفي روايتها أيضًا استثنائيّة المقاومة. هي ترفض الخروج من الحصار، على الرّغم من القصف والأوضاع المترديّة التي واجهتْها النّساء في ظلّ قوانين الجهاديّيْن والمتطرّفين. ولكنْ، عندما تصبح مطلوبة للموت من الجهات جميعها قاطبة بلا استثناء، فإنّها تضطرّ إلى الخروج من سورية.

رنا من دمشق تروي تجربتها مع "القُبيسيّات" المُحاطات بهالة إعلاميّة أكبر من حقيقة وجودهنّ وفق ما تقول، وتُفصِّل طبيعة طقوسهنّ، وأثرها في الحياة الدّمشقيّة للعوائل الكبيرة. كما تروي انخراطها في الثّورة، ومقاومتها ارتداء الحجاب، على الرّغم من أنّها من عائلة دينيّة عريقة.

ريم، من برزة، تروي حكاية الحصار، وكيف يعيش النّاس لحظات موتهم الأخيرة، وكيف يتحوّل الإنسان في حالة الموت كائنًا شفّافًّا بلا ضغينة. تروي حكاية أحد أحياء دمشق، وكيف تعرّض للقصف والدّمار والحصار من جانب قوّات النظام، وكيف دخلتْه جبهة النّصرة. أمّا عليا، التي رفضت الخروج من ريف إدلب، ولا تزال تقاوم، تحت القصف وسيطرة الجهاديّيْن، وتريد سورية حرّة ومُوحّدة وديموقراطيّة، فتروي حكاية المقاومة المَدَنيّة، وكيف أسّست مركزًا تنمويًّا للنّساء في مدينة على خطّ الجبهة، ضمن تجربة، تكاد تكون عملاً مَلحميًّا في المقاومة السِّلْميّة.

زين من حلب تحتاج إلى كتاب كامل، لتروي تراجيديا هذه المدينة. لقد اعتُقلتْ أمام حاجز للشّبّيحة، فيه رجال ونساء، عرَّاها الرّجال بالكامل من ثيابها، وعبثوا بجسدها بطرائق ساديّة ومهينة. سُجنَتْ زين، وشاهدتْ امرأة مُغتَصَبة تريد أن تُجهِضَ نفسها في السّجن الذي يحوي كاميرا تُراقب وتُصوِّر. السّجن الذي يتحوّل مسرحًا، تنقل وقائعه كاميرا مثبتة في أعلى الجدار. وفُرِضَ عليها، وبالقوّة، أن تشاهد شابًّا يُغتصَب، ورأتْ كيف يموتُ الشّباب تحت التّعذيب.

الشّهادات التي تتناول السّجن والفظائع التي تُرتكَب داخله وُصِفَتْ بدقّة، من أجل تعرية الوجه الحقيقيّ للجلّاد، وقدرته على بلوغ الحدود

القصوى في تعذيب المعتقلات بعد تجريدهنّ من كلّ معنًى يحيل إلى الحياة، وجَعْل حياتهنّ، أو ما تبقّى منها، لحظة انتظار للموت.

داخل السّجن، يُشَيَّأ الجسد، ويمُسرَح التّعذيب، وهذه الشّهادات تتحدّث عن هذه المسرحة بتشابه فظيع، ولا تخفي هذه المَسرَحَة نوعًا من التّلصُّص أيضًا. الوسائل جميعها متاحة لتحطيم السّجينة، وتفتيت إرادتها وكيانها، ودَفْعها إلى الرّضوخ بإذلال لجبروت السّجّان الذي يمسك بخيوط الحياة والموت. السّجّان الذي يصبح بمثابة قَدَر، يصعب الإفلات منه.وعلى الرّغم من ذلك، كانت السّجينات، في أعماقهنّ، أكثر حُرّيّة منه عندما لم يتمكّن من قَتْل الفكرة التي اعتُقلنَ من أجلها.

سمَّت النّسوةُ الأشياءَ بأسمائها المباشرة. ذكرنَ أسماء الطّوائف، لأنّهنّ وجدنَ أنفسهنّ محسوبات، رغمًا عنهنّ، على هذه الطّائفة أو تلك. ومثلما اختزلهنّ الجلّاد المغتصِب في جسد، وبالأحرى في كومة لحم وعظام، حاول أيضًا اختزالهنّ في طائفة. "أقلّيّة" أو "أكثريّة". وهذا ما كان يتناقض وتوجّهاتهنّ المبدئيّة الأولى. كان التّحدّي الأكبر الذي واجه النّسوة الثّائرات اللواتي شاءتْ ولادتهنّ أن يكنّ في صفّ "الأكثريّة السُّنّيّة"، هو كيفيّة إقناع السّجّانين بأنّهنّ ينتمين إلى سورية الواحدة. وهذا الواقع قادهنّ إلى ما يشبه حالة الفصام. هنّ اللواتي خضنَ الثّورة من أجل المطالبة بالحقوق والتّغيير، وجدنَ أنفسهنّ في موقع الدّفاع عن النّفس، وأمام الثّورة نفسها التي أخذتْ تتهاوى. هذا ما نجده في شهادة نور التي كانت تُهمتها أنّها صيدلانيّة، وتساعد الجرحى والمصابين.

جُرح الهويّة الأعمق، أو الجُرح المتأتّي بسبب الهويّة الطّائفيّة، نستشفّه في حديث راويَتَيْن من السّاحل السّوريّ وحمص. نحن هنا إزاء الطّائفة،

وقد أصبحت نعتًا وتُهمة! الرّاويتان هما من الطّائفة العَلَويّة التي ينتمي إليها بشّار الأسد، وهما ضدّه، لكنْ، يتمّ تمييزهما أيضًا داخل الحراك الشّعبيّ والثّورة، بسبب هويّتهما الطّائفيّة نفسها. يصبح هذا الانتماء، غير الإراديّ، عبئًا ومصدر ألم وتمزّق، وهذه الشّهادات لا تفضح ما حلّ بالبنية الإنسانيّة للسّوريّيْن فحسب، بل تذهب أبعد من ذلك، إذ تكشف خطاب الكراهية بين الطّوائف، وتطرح أسئلة، قد تكون في المستقبل، (إذا جاز لنا الحُلم) مدخلًا لتحقيق عقد اجتماع وطنيّ.

إنّ أحد القواسم المشتركة بين النّساء هو مقاربتهنّ موضع الاغتراب الذي وجدنَ أنفسهنّ داخله قَسْرًا. وهذا التّمزّق العميق في نسيج الذّات الفرديّة لكلٍّ منهنّ إنما هو صورة لتمزُّق أكبر وأعمّ، يطاول المجتمع السّوريّ برمّته، وقد تكشّفت معالمه على أكمل وجه مع الثّورة بعد أن كانت مستترة ومحتقنة، بفعل قَمْع النّظام الأمنيّ العسكريّ. تروي المرأة من السّاحل السّوريّ تفاصيل مجزرة "اشتبرق"، وحكاية امرأة سجينة في سجن حارم لدى جبهة النّصرة. وفي الوقت نفسه، تتحدّث عن آليّة فساد أجهزة الأمن، وعن الفقراء المتروكين للموت، والذين يدينون بالولاء للنّظام. لقد أسّستْ مشروعها المَدَنيّ، وجمعتْ أولاد النّازحين من إدلب وحلب مع أولاد النّازحين من القرى العَلَويّة في مدارس مشتركة كخطوة أولى لبناء مجتمع مَدَنيّ، وسلام ما زالت تحلم فيه، وتلك كانت طريقتها في المقاومة.

راوية أخرى تكشف تجربة النّضال السّياسيّ في حزب يساريّ منذ بداية الثّمانينيات، وفي ظلّ القَمْع الذي مارستْه السّلطة السّياسيّة في عهدَي الأب والابن الوريث، ثمّ استمرار تجربتها في الثّورة والحرب. إنّها ضحى عاشور التي تلد ابنتها في السّجن في عهد حافظ الأسد، وكانت تعيش

مُلاحَقَة لسنوات عدّة قبل اعتقالها، تقارب في شهادتها اختلاف تجربة العمل السّياسيّ بين أجيال عدّة في سورية.

حذامي عدي، ابنة السّابعة والسّبعين، تتناول تاريخ مدينة حماه، وما حلّ بها من ويلات، وتُؤرِّخ لنضال النّساء السّياسيّ، ولطبيعة المجتمع السّوريّ الغنيّ والمتنوّع، وما فعله نظام الأسد والبعث قبل صعود ظاهرة التّشدّد الدِّيني كشكل من أشكال المقاومة ضدّ عَسْكَرَة المجتمع، ودَفْعه في اتّجاه التّناحر الطّائفي. إنّ تاريخ مدينة حماه حاضر كُلِّيًّا فيما ترويه. فقد شهدت تحوُّلات هذه المدينة نحو التّديّن، وكشفت المسؤول عن ذلك، ودور حكم الأسدَيْن والبعث في تحويل المجتمع المَدَني في حماه لمجموعات إسلاميّة.

شهادتا ضحى وحذامي تؤكّدان فاعليّة الحراك النّسويّ السّياسيّ والمجتمعيّ، وعلى اختلاف التّجربة السّياسيّة التي عشنَها منذ الخمسينيات وحتّى حُكمَي الأب والابن. هنا، يبرز الاختلاف بين الرّوايات التي تسردها النّسوة، لكنّ القاسم المشترك بين أجيال النّساء هو كثافة المعاناة المتعدّدة الوجه، والمتمثّلة في أشكال الطّغيان السّياسيّ والاجتماعيّ والدِّينيّ جميعها. فالرّاويات اللواتي كنّ في العشرين من أعمارهنّ يوم بدأت الثّورة، أجمعنَ على أنّ قَمْع المجتمع البطريركيّ كان عنيفًا عليهنّ من جهة رفاقهم في النّضال داخل الأوساط الثّقافية والسّياسيّة. هذه المفارقة الصّارخة تؤكّدها النّساء من الجيل الأكبر، في عقود الخمسين والسّبعين أيضًا، عبر العودة إلى تجاربهنّ السّياسيّة في الثّمانينيات والتّسعينيات.

زينة ومريم لهما تجربتان مختلفتان، فالأولى ناشطة مَدَنيّة، قاومت بأن عادت من لندن، واستقرّتْ في ريف إدلب، لتأسيس مشاريع للمجتمع

المَدَنيّ. في تجربتها تشريح عميق لمشكلات عدّة، لم تُحلّ في المجتمع السّوريّ على مدى سنوات طويلة. أمّا مريم المعتقلة، فتروي فظاعة آليّة التّعذيب الجسديّ في السّجن، وفي وصف أحد مشاهد التّعذيب تقول إنّه فُرضَ عليها تحت تأثير القوّة والضّرب القبول بأن يتغيّر اسمها، وأن تتلفّظ باسم آخر غيره. أُعطيَت اسم امرأة أخرى، فكانت تُردِّد في نفسها اسمها الحقيقيّ: "أنتِ مريم! أنتِ مريم، لا تنسي!".

لينا محمّد كان المحقّقون في السّجن ينادونها بصيغة المُذكّر، وفي شهادتها نحن مع امرأة على خطّ النار، تخرج من الحصار، لتعود إليه.كانت مع المقاتلين في معركة دمشق الكبرى، وخرجتْ منها مع الكتيبة، مهزومة. قالتْ بوضوح: نحن لم نكن نفكّر، كنّا فقط تحت الموت، يقصفنا نظام الأسد طوال الوقت.

منى من الرّقّة تتحدّث عن مقاومة أهل المدينة تنظيمَ داعش، وتأثير النّظام العشائريّ في تجنيبها تجربة الاعتقال، وهَوَس داعش بالقضايا التي تخصُّ النّساء، وتركيزه على مَحو وجودهنّ من الحياة.

سعاد، وهي من دير الزّور، لا تتحدّث عن بطولات، ولا عن تجربة سياسيّة، إنّما تُخبرنا فقط كيف أرادتْ أن تُكمل تعليمها بين مناطق النّظام وداعش، وما كانت تفعله في أثناء اجتياز الحواجز. ولقد تمكّنتْ في النّهاية من الحصول على شهادتها الجامعيّة، إنها بطلة فعلًا! والرّاوية أمل تتحدّث عن عبورها البحر، وعن حادثة غرق مركبها، وعمليّة الإتجار بالبشر، وتهريبهم بين تركيا وأوروبا.

تُحيل التّجارب المَرويّة في هذا الكتاب أيضًا إلى تَحَوُّل الصّراع في

سورية من مفهومه الوطنيّ الثّوريّ الدّيموقراطيّ إلى صراع دوليّ إقليميّ، عُمقه سياسيّ واقتصاديّ، وأدواته دِينيّة. وتكشف كيف حوّلت السّلطةُ ضحاياها أنفسَهم أدواتٍ، تتمثّل في المتطرّفين الإسلاميّيْن من جهة الثّورة، والشّبّيحة الطّائفيّيْن من جهة النّظام. لقد أفاد النّظام من شعور الأقلّيّة العَلَويّة بالاضطهاد التّاريخي لتسويغ مجازره، وهذا ما فعلتْهُ لاحقًا الحركات الإسلاميّة المتطرّفة التي هي أيضًا أفادت من شعور الأكثريّة السّنّيّة بالغُبن والاضطهاد. وكانت النّساء اللواتي التقيتُ بهنّ يعشنَ على حافّة هذَيْن الطَّرَفَيْن. وهذا التّأرجح بين خطرَيْن وتحدِّيَيْن، يطالعنا، بشكل واضح، في شهادات المعتقلات، ومن فصوله، استخدام النّساء رهائن حرب تارةً من جانب النّظام، وأخرى من المعارضة المسلّحة، حيث تمّ مرارًا تبادل إطلاق أسيرات بين جبهة النّصرة والجيش الحُرّ من جهة، والنّظام من جهة ثانية. وفي هذا الإطار، تمّ التَّوصُّل إلى ما عُرِفَ بصفقة تبادل الرّاهبات الشّهيرة. ومن خلال التّفاصيل التي ترويها المعتقلات يظهر حجم استخدام النّساء رهائن، كما يتّضح ما يكمن وراء عمليّات الخَطْف المتبادَلَة بين أطراف عدّة، كان لها الدّور الكبير في إشعال نار الطّائفيّة، والحضّ على حمل السّلاح أيضًا.

لقد رأيتُ أهمّيّة نشر هذه الشّهادات من زاوية قدرتها على توثيق حَيّ لما حصل، ومادّة أوّليّة للبحث بغية فَهْم الواقع والتّأسيس للمستقبل، من خلال نقد السّلطة ونقد القِيَم السّائدة في المجتمع، لا سيّما في مسألة التّعاطي مع المرأة التي وجدتْ نفسها، كما سبق أن ذكرنا، أمام تحدِّيَيْن. الأوّل ثوريّ، من أجل إحلال قِيَم الدّيموقراطيّة والعدالة والمواطَنَة وحقوق الإنسان. والثاني، بعد انتكاس الثّورة واختطافها، حيث عدنَ إلى نقطة الصّفر للنّضال من أجل أبسط الحقوق الأوّليّة في العيش، والتي أصبحتْ، بين ليلة وضحاها، مثار جدال جديد، سرعان ما سيتّضح عُمق خرابه.

لقد كانت فكرة تقليب وجهَيْ الضّحيّة والجلّاد ذات أهمّيّة محوريّة في تفاصيل هذه الشّهادات، وذلك بهدف السّعي إلى إعادة تقليب وجوه الذّاكرة الجَمْعيّة التي أبحث عنها، فكانت هذه الشّهادات معلمًا لي أيضًا، في معرفة وجوه التّراجيديا السّورية، كما أنّه لا بدّ لي من القول ختامًا: لولا أنّ الحطام والخراب السّوريَّيْن أكثر فداحة من وميض الفرح والتّغنّي والإسهاب في جماليّات المقاومة، لقلتُ إنّه علينا التّركيز على هذه الشّهادات كَفَنّ مُعلّم في المقاومة والنّضال ونبالة التّطلّع إلى عالم أكثر عدالة. لقد أثبتتْ لي هذه الشّهادات أن أجزاء الحقائق قد تكون يومًا ما مدخلًا إلى عالم العدالة، وربّما في أحسن أحوالنا البائسة قد تكون سؤالًا حول هزيمة قضيّتنا العادلة أمام قوى الشّرّ المحلّيّة والإقليميّة والدّولية. وهي أيضًا، من خلال قصّ النّساء وبَوحِهِنّ المُكاشف، قد تفتح السّؤال نحو مراجعة تاريخنا وحقائقه.

الرّاوية الأولى

أنا من "المعضّمية". اسمي "سارة". عندما بدأت الثّورة كنتُ في الحادية والعشرين. أدرس في الجامعة، وأشتغل. قرّرتُ الاعتماد على نفسي منذ السّابعة عشرة، فعملتُ في مكتب للتّرجمة. أهلي من طبقة ميسورة، وقد غضبوا، لأنّني عملت في سنّ مبكّرة.

في الواحد والعشرين من آذار ٢٠١١، وهو تاريخ خروج أوّل تظاهرة في "المعضّميّة"(*)، كنّا نحتفل لمناسبة عيد الأمّ، فسمعنا هتاف المتظاهرين قرب بيتنا: "يا درعا نحنا معاك للموت"، و"الشّعب يريد إسقاط النّظام". راقبتُ من النّافذة قوّات حفظ النّظام والعساكر ورجال الأمن الذين يحملون عَصيًّا كهربائيّة ومسدّسات. اعتقلوا الكثيرين، وضربوا النّاس، ورأيتُهم يضربون ابن عمّي وهو في السّادسة عشرة، ويعتقلونه. غضبتُ جدًّا، لأنّ أهلي منعوني من الخروج، وتركوا الشّابّ الصّغير يُعتَقَل. الأمّهات بكينَ أولادهنّ المعتقلين بحرقة. لكنّ الأمن أعادهم بعد يومَيْن.

في الخامس والعشرين من آذار ٢٠١١، خرجتْ تظاهرة كبيرة، وطالب المتظاهرون بسقوط النّظام. لم أشارك أنا ونساء (المعضّميّة). بدأتُ

---

*) المعضّميّة: مدينة تقع غرب دمشق، وهي تابعة إداريًّا لمحافظة ريف دمشق، سُمّيت المعضّميّة تحريفًا عن المعظّميّة نسبة إلى الملك المعظّم عيسى بن أيّوب، وقد كانت من أوائل البلدات المنتفضة ضدّ نظام الأسد عام ٢٠١١. وكانت تُعدّ واحدة من أهمّ قرى الغوطة الشّرقيّة، وأكثرها مساحة قبل أن تستولي الحكومة على ٨٥ في المئة من مساحتها، من دون تعويضات تُذكَر للسّكّان المحلّيّين.

التّظاهر في الشّهر الرابع، نزلتُ إلى الشّارع، وصوَّرتُ التّظاهرات، وكتبتُ تفاصيل ما يحصل، وبعثتُها إلى أحد الأصدقاء، ليرسلها إلى الوسائل الإعلاميّة، وقد فعلتُ ذلك بالسّرّ عن أهلي الذين خافوا من تعرُّضي للاعتقال،لأنّ المجتمع يعدّ أنّ أيّ معتقلة قد تتعرّض للاغتصاب، وهذا سيجعلها منبوذة ويُشكِّل عارًا للعائلة.

عملتُ بسرّيّة شديدة عن أهلي، وراسلتُ صفحة "تنسيقيّة المعضّميّة"(*) على "الفايسبوك"، وكنتُ أرسل إليها تقارير عن المعتقلين والمداهمات التي يقوم بها رجال الأمن. كان أوّل شهيد في (المعضّميّة) هو "محيي الدِّين دمراني"، قَتَلَهُ مسلّحون، قالوا إنّهم من حارة المؤيّدين، وخرج النّاس لتشييعه. كانوا حَوالَي ألفَيْن. وفي تظاهرة التّشييع، اعتُقل آخرون، فأرسلتُ أسماءهم إلى وسائل الإعلام، ثمّ خرج النّاس في تظاهرة كبيرة، فيها عشرة آلاف متظاهر، وكان هذا في الثاني والعشرين من نيسان ٢٠١١، شاركت النّساء في هذه التّظاهرة، وأطلق الأمنُ الرّصاصَ، وقتل طفلًا وشابَّيْن، وكان هناك بين ثلاثين وأربعين جريحًا، صوَّرتُ التّظاهرة التي مرّتْ من أمام بيتنا. لم أُصدِّق العنف الحاصل أمامي. كان أهالي "المعضّميّة" فتحوا الجامع مشفًى ميدانيًّا، ونادوا من أجل التّبرّع للجرحى بالدّم، فذهبتُ، وشاهدت

*) التّنسيقيّات:مع الحلّ الأمنيّ العنيف الذي انتهجه نظام الأسد في مواجهة الحراك الشّعبيّ، تشكّلتْ مجموعات من الحراك المَدَنيّ، عُرفت لاحقًا باسم التّنسيقيّات، من فعل "نسّق"، مهمّتها الأساسيّة تنسيق العمل المَدَنيّ وتنظيمه، وربطه بالحراك الشّعبيّ والنّشاطات والفاعليّات الثّوريّة، كلّ تنسيقيّة تتبع بلدة أو مدينة، ومقسّمة إداريًّا بشكل يضمن الاستقلال عن المنطقة الأخرى. وتُعرِّف التّنسيقيّات نفسها بأنها منظّمات غير حكوميّة، تُعنى بالمجتمع المَدَنيّ. كانت مختلفة عمّا أنتجتْهُ المعارضة التّقليديّة كونها أفرزتْ في بداية الثّورة شكلًا من أشكال العمل الجماعيّ والسّياسيّ الهادف إلى إسقاط نظام الأسد. كان هناك تنسيقيّات تابعة لكلّ منطقة باسمها، مثل تنسيقيّة المعضّميّة وتنسيقيّة دوما وغيرهما لاحقًا.انضوت التّنسيقيّات تحت اسم "اتّحاد تنسيقيّات الثّورة السّوريّة" الذي تأسّس في أيّار عام ٢٠١١. وللتّنسيقيّات مهمّات عدّة، منها توثيقيّ وحقوقيّ وإغاثيّ طبّيّ وغذائيّ.

حشودًا من النّاس تصطفّ للتّبرّع، وفي الشّوارع، صرخ النّاس طلبًا لجَلْب موادّ طبّيّة، تألّمتُ عندما كان هناك أشخاص يرفضون المساعدة، ويقولون للآخرين: لا يعنينا هذا الأمر.

في جامعتي، طلّابٌ قالوا إنّ من يتظاهر ضدّ الأسد خائن، وإنّ الذين خرجوا ضدّه يقبضون الأموال من جهات خارجيّة، وأنا رأيتُ بعينَيّ أنّ هذا غير صحيح. خسرتُ أصدقاء في الجامعة، وكسبتُ غيرهم في الثّورة، واستمررتُ في عملي مراسلة إعلاميّة سرّيّة.

اقتحم الجيش النّظاميّ "المعضّميّة" في اليوم التّاسع من الشّهر الخامس ٢٠١١، وقطع شبكة الهاتف الأرضيّ والإنترنت، وانتشرت الدّبّابات في الشّوارع وحول "المعضّميّة" أيضًا. مُنعْنا من فتح نوافذ بيوتنا، وانتشر عناصر الأمن في كلّ مكان، وجاء متعاونون معهم، ودلّوا على بيوت المتظاهرين. رأيتُهم يقتحمون البيوت، وسمعتُ صراخ النّساء. اعتقلوا حَواليَ ألف وخمسمئة شخص، وكانوا يضربون الجميع. دهموا بيتَنا، والبيوتَ كلّها، وضربوا مَنْ رأوه في طريقهم. مُنعْنا من الخروج من البيت لخمسة أيّام. وضربوا أيّ شخص حاول الخروج. فتحتُ النّافذة، فقال لي أحد رجال الأمن: "فوتي، ولّا بقوصِكْ!". في اليوم الخامس، جاع النّاس، فسمحوا للنّساء بالذّهاب لإحضار الخبز. في أوّل شارعنا، وقفتْ دبّابة، ووُضعتْ براميل وسواتر رمليّة، كما في جبهة حرب، وهذا صدمني، كان عندي خطّ "ثري جي" إنترنت، وأعمل من خلاله، وصوّرتُ ما فعله رجال الأمن والجيش من نافذتي.

بعد خمسة عشر يومًا، عادت الحياة شبه طبيعيّة، ثمّ بدأنا نخرج في التّظاهرات كلّ جمعة، لم تتوقّف التّظاهرات ضدّ الأسد رغم القتل والوحشيّة كلَيهما.

كتبْنا، نحن مجموعة من الفتيات، اللّافتاتَ الخاصّة بالتّظاهرات، طالبْنا فيها بإسقاط النّظام. وجاء أهل "داريّا" للمشاركة معنا فيها. اشتغلْنا في ضوء الشّموع، وطَبَعْنا المناشير في مكتبة قرب حاجز. وهذا مخاطرة كبيرة، لكنّنا لم نَخَفْ، وكنّا نُصوِّر ونقرأ كُتُبًا تتحدّث عن تاريخ الثّورات في العالم، ثمّ نرمي أمام أبواب البيوت، مناشير، تشرح طبيعة الثّورة. كنّا مجموعات من النّساء فاعلات في نواحي الحياة كلّها، وهي مجموعات منفصلة من أجل الأمان والسّرّيّة. عُقدت الاجتماعات في بيت أهلي، من دون معرفتهم، وكان من ضمن أهدافي ألّا أُعتقَل.

عندما ازداد عدد الجرحى بإطلاق الأمن النّار على المتظاهرين، سجّلتُ في دورة تمريض لإسعاف الجرحى، لم نستطعْ إسعافهم إلى مشفًى حكوميّ، لأنّ رجال الأمن كانوا يعتقلون الجرحى والأطبّاء الذين يُسعفونهم.

في التاسع والعشرين من تمّوز ٢٠١١، كانت هناك تظاهرة ضخمة في جمعة "صمتكم يقتلنا". حمل النّاس عَلَم الثّورة الكبير، وصرخوا بصوت واحد: "الشّعب يريد إسقاط النّظام". خلال عام ٢٠١٢، حصلت مجزرتان، ارتكبهما الأمن والشّبّيحة.

في المجزرة الأولى؛ كنتُ أراقب ما يحدث من وراء نافذتي. بداية سمعتُ أصوات تكسير أبواب البيوت، ثمّ إطلاق نار، وصراخ ناس وهم يُضرَبُون، ثمّ أصواتهم وهم يُعتَقَلُون، وبعد ذلك، وهم يُذبَحُون. المجزرة سُمِّيَت مجزرة السّكاكين، حصلتْ في نهاية الشّهر السّابع عام ٢٠١٢. اختبأنا في قبو البيت. كنّا مجموعة عائلات، وعرفنا نبأ اقتحام الجيش، لا يوجد هاتف ولا إنترنت. كنّا حَوالَي خمسين شخصًا، والأكل لم يكن يكفينا، ونحن نخاف الخروج. مضتْ بضعة أيّام، كان انتشار العساكر والأمنيّيْن

خلالها كثيفًا. تسلّلتُ مع قريبتي ليلاً، وتجاوزنا السّور زحفًا. كان الظّلام دامسًا، أردنا أن نأتي بقليل من الطّعام، خفتُ على الأطفال في القبو. كانوا تلاميذي، أضمّهم في العتمة، وأُبقيهم قربي. قالتْ لي طفلة: "إذا كانوا سيقتلوننا، فأنا أفضّل أن يُطلقوا عليّ النّار، قولي لهم ألّا يذبحوني!". كنتُ أفقد عقلي عندما أسمع الأطفال يتحدّثون هكذا. كان عدد الأطفال معنا في القبو عشرين. المكان ضيّق، ولا يتّسع لنا، ولا ننام جيّدًا، ولا نأكل خائفين من أن نُذبَح، كانوا أمام بيتنا. أسمعهم وأراهم. في اليوم الأخير، دقّوا باب بيتنا، ثمّ دقّوا باب القبو، وظهر رجل يرتدي بدلة عسكريّة، ارتجفْنا رعبًا. فتحْنا الباب أنا وزوجة أخي، فَشَتَمَنَا، وصرخ، وقلتُ له إنّنا نساء وأطفال هنا، وإنّنا خائفون، فسأل عن الرّجال، فقلتُ له: لا يوجد! وطلب أن نترك باب القبو مفتوحًا، وذهب. في اليوم التّالي، عرفنا أنّهم لن يقتلونا، وكان انتظارنا رهيبًا طوال اللّيل. اعتقدتُ أنّهم سيذبحوننا، إذا وجدوا رجالاً، لكنّنا نجونا، واكتشفنا أنّ نتيجة الاقتحام كانت موت مئة شخص. قتلوا عائلة إدريس ذَبْحًا، ثمّ قتلوا أربعة شباب أمام أمّهم التي سُمِّيت "خنساء المعضّميّة". ذهبتُ لرؤيتها، وروتْ لي الحكاية بتفاصيلها، كيف قتلوهم أمامها، وأحرقوا البيت. كنتُ أُرسل هذه التّفاصيل كلّها إلى الإعلام.

المجزرة الثّانية كانت في شهر تشرين الأوّل، عندما سمعْنا باقتحام الجيش، هربنا إلى بيت خالي القريب من "الحارة الشّرقيّة"، وهي للمؤيّدين، والوضع هناك أكثر أمانًا. اكتشفْنا أنّ البيت لا يكفي، وأنّ العوائل كلّها تتكدّس في بيته، فقرّر أبي العودة إلى منزلنا. كان خطأً أن نخرج في هذا الوضع الصّعب، لأنّ المروحيّة لحقتْ بنا، وأطلقتْ علينا نيران الدّوشكا. اكتشفتُ أنّ العناصر يتسلّون بتعذيبنا. يقصفون حولنا، وكانوا يستطيعون قَتْلَنَا ببساطة، اعتقدتُ أنّني سأموت، لأنّ المروحيّة

كانت فوقنا، نهرب منها شمالًا ويمينًا. كانت المدّة عشر دقائق، لكنّها مرّت عليّ عشر سنوات. لم أفهم لمَا يتسلّون بموتنا ونحن نتكدّس فوق بعضنا بعضًا في شاحنة صغيرة. كنّا في تلك الدّقائق لا شيء ... لا شيء.

وصلْنا إلى البيت، وإذا دبّابة تواجهنا، فركضنا حتّى لا يرانا مَنْ عليها. نزلْنا القبو، أيضًا في تلك الأثناء ونحن نهرب من الطّائرة ومن الدّبّابة، كانت تُرتكب مذبحة على أطراف "المعضّميّة"، قُتل مئة وخمسون شخصًا، كان بينهم مجهولو الهوية، وثّقتُ الأسماء كلّها! كانت الإعدامات ميدانيّة، يُجمَع النّاس، ويُرمون بالرّصاص، وأُحرقَتْ بيوت كثيرة.

بعد المجزرتَيْن، اشتريتُ كاميرتَيْن وبطّاريات، وبدأتُ أصوّر وأكتب وأراسل جهات إعلاميّة عدّة في العالم. هَوَسي كان أن يعرف العالم كلّه حقيقة ما نعيشه. كتبتُ باسم حركي هو "سارة السّمّان"، كنتُ أقدّم أحيانًا اثنتَي عشرة مداخلة إعلاميّة في اليوم الواحد، وتتّصل بي قنوات أجنبيّة كثيرة، ولم أكن أتوقّف عن العمل.

في الحصار القاسي الذي تدرّج منذ بداية ٢٠١٢، وانتهى إلى حصار مطبق في بداية ٢٠١٣، نشر النّظام القنّاصةَ على أسطح الأبنية جميعها أوّلًا. وطوال الوقت كانت طائرات "الميغ" تقصفنا. كنّا معزولين، كأنّنا انفصلنا عن العالم. قصفونا بصاروخ فراغيّ، فقُتل أربعون شخصًا دفعة واحدة. لم نكن نُصدّق ما يحدث، ولكنّني كنتُ هناك، ورأيتُ مقتل قريبتي المتزوّجة وأولادها الثّمانية جميعًا بالصّاروخ الفراغيّ، ولم ينجُ سوى طفلة، عمرها ستّ سنوات. الفتيات اللواتي قُتلنَ كنّ في مثل عمري، وأعرفهنّ، كنّ قريباتي وصديقاتي، رأيتهنّ هناك ممدّدات وميتات.

كنتُ أعمل في المشفى الميدانيّ بلا توقّف. عندما أراد النّاس أن ينتشلوا الجثث بعد القصف من تحت الأنقاض، عاودت الطّائرة قَصْفها، فقُتل أشخاصٌ كُثُرٌ، منهم مَنْ قضى خنقًا تحت الأنقاض. كانوا من جيراني وعائلتي، ثمّ قصفوا للمرّة الثّالثة ذلك النّهار، وكان هذا أوّل عام ٢٠١٣، وسُمِّيَت تلك الحادثة "مجزرة آل جمعة". الطّفلة الوحيدة التي نجتْ كانت محترقة، وبقيتُ معها في المشفى الميدانيّ، اعتقدنا أنّها ستموت. كان منظرها عندما انتُشلَت يوحي بأنّها ميتة، لكنها عاشتْ. بقيتُ قربها ثلاثة أيّام لا أفارقها أبدًا. مات أخوها بين أيدينا خلال يومَيْن، وبقيتْ هي وحيدة. كنّا في الحصار، وكنتُ أحاول أن أجد لها قطعة من البسكوت أو الشّوكولا. لقد فعلتُ ذلك كَمَنْ يبحث عن جوهرة ألماس، لم نُخبرها بأنّ أهلها ماتوا جميعهم. كنتُ، ومع كلّ مجزرة جديدة، أفقدُ شيئًا منّي، أموتُ، ثمّ أحيا.

بقيتُ في المشفى الميدانيّ، لأنّ عدد الجرحى والقَتْلى بدأ يتزايد، كانت وظيفتي الحقن بالإبر. استطعنا تأمين بعض الأدوات الطّبّيّة. المشفى الميدانيّ كان قبوًا. كان من ضمن مهمّاتي تصوير اللّحظات الأولى من المجازر. أنا الآن نادمة، لأنّني صوّرت تلك الأشلاء البشريّة كلّها. أشعر بأنّني ساهمتُ في أن تكون صورتنا مُستهلَكَة. واعتديتُ على خصوصيّة الضّحايا. أردتُ أن يعرف العالم حقيقة ما يحصل، لأنّ نظام الأسد والإعلام لم يكونا ينقلان الحقيقة، لكنّ هذا لم يُجدِ نفعًا. لقد رأى العالمُ كلَّ شيء، رآنا ونحن نموت، ولم يتحرّك أحد. أشعر بأنّني مضطربة جدًّا حتّى اللّحظة، أكثر ما كان يُؤلمني القَتلى المجهولو الهويّات. لقد صوّرتُهم جميعًا!

طُلب منّي أيضًا أن أُكفّن القتيلات. وكانت هذه المَهمّة الأصعب بين

التي كنتُ أقوم بها. في إحدى المرّات، تركوني في غرفة وحدي مع جثّة امرأة، شابّة صغيرة، قُتلَت بالقصف، ونجا رضيعها وزوجها. جلستُ إلى جانب المرأة الميتة، وتفرّجتُ عليها. كان زوجها يصرخ في الخارج، وأنا أظنّ أنّني أسمع صوتًا من راديو، لا صراخ رجل حقيقيّ! تخيّلتُ أنّها ستقوم، وتُكلّمني، لم أفهم معنى أن أكون مع جثّة! قلتُ لها فجأة: قومي، أرجوكِ، زوجكِ حزين، ورضيعكُ يبكي، وكان صوت طفلها يعلو أكثر فأكثر. لمستُها، كانت باردة، فناديتُها باسمها، وقلتُ لها: قومي، يا مديحة ... في النّهاية كفّنتُها، وسألتُ نفسي: هل يستحقُّ ما خرجنا للمطالبة به هذا الموت كلّه؟ انتفضْنا من أجل الحياة، فحصدنا الموت. بكيتُ، وتركتُ وجهها مكشوفًا، أردتُ أن يرى العالم وجهها. كانت وجوه النّساء تُغطّى أحيانًا. لقد اختنقتُ من منظر الجثث الكثيرة، والتي تتحوّل مُجرّد أكياس بِيضٍ.

أحيانًا، كانت تُطلَب منّي المساعدة في العمليّات الجراحيّة. مرّة، خرج صديقي من غرفة العمليّات، وسلّمني كيسًا من البلاستيك. نظرتُ فيه، فرأيتُ قَدَمَ رَجلٍ! كدتُ أهوي على الأرض. قال صديقي: ضعيه جانبًا، يجب أن ندفنه! كنتُ أفعل كلّ شيء كأنّني منوّمة مغناطيسيًّا، وأحيانًا أقول لنفسي هذا كابوس. الصّورة لا تفارق خيالي. قَدَمٌ بشريّة في كيس بلاستيك! ما زلتُ أرى الكوابيس حتّى الآن. أكثر ما أراه هو حبّات البندورة في منامي. في أثناء الحصار، كنّا زرعْنا في حديقة المنزل بضع غرسات من البندورة. إحداها طرحت حَبَّتَيْن صغيرَتَين، غسلتْ أمّي القرصَيْن، وحضّرتُهما، لتصنع منهما سلطة، حيث نفرم ورق العنب ونأكله. أمّي قالتْ إنّ حَبَّتَي بندورة ستجعلاننا نأكل بمذاق أفضل. أخي أمسك قرص البندورة، وقال إنّه يشتهي أن يأكله. قالتْ له أمّي: لا تفعلْ! هذا للسَّلَطة، ويحتاجه الجميع، ولا يوجد لدينا سوى هذَيْن القرصَيْن، فطلب منّي أن

أُصوِّره، مع قرصَي البندورة وهو يُهرِّج أمامنا. التقطتُ صورة له وأنا أضحك. بعد هذه الحادثة بأيّام، قُتِل أخي وزوجته وأطفاله بقذيفة. لا تزال أمّي حتّى الآن تردّد: لو أنّني فقط جعلتُهُ يأكل قرص البندورة! وأنا ما زلتُ أرى في كوابيسي أقراص البندورة مثل دماء تتدفّق من السّماء.

بعد فترة، لم أعد أستطيع تحمّل البقاء طوال الوقت في المشفى الميدانيّ. مات تسعة أطفال في المعضّميّة من الجوع، ومنهم ابن عمّي وعمره ثلاث سنوات، قرّرتُ ألّا أنظر إلى تلك الفظاعات في المشفى.

كان، بجانب بيتنا، مخزن تابع لإحدى مكتبات دمشق، تعرّض للقصف، كانت فيه أغراض مكتبيّة للأطفال. رأيتُ هناك أرامل وأطفالهنّ الكُثُر بلا مدارس، فقرّرتُ مع مجموعة نساء تأسيس فريق "رؤية" لدَعْم الأطفال وتعليمهم. بدأنا بمركز دَعْم نَفْسيّ، فتحنا قبو جيراننا، وكان عندي كمبيوتر، وكنتُ أضع "السبيكر"، وأعرض للأطفال أفلام كرتون وأغاني، وقد وجدوا هذا مذهلًا، لأنّه لم تكن هناك كهرباء، وأنا كنتُ أشحن موبايلي ببطاريّات. كان المشروع ناجحًا أكثر ممّا توقّعتُ. أتتْ متطوّعات كثيرات إلينا لتعليم الأطفال. فتحْنا صفوفًا دراسية جديدة، وتواصلتُ مع المنظّمات الدّوليّة عبر النّت، ودُعمنا منها، وصار لدينا طلاب كُثُرٌ، ومن أجيال عدّة. كانت أولويّاتنا نشاطات الأطفال والعلاج النّفسيّ. كنّا تحت القصف وتحت الحصار، وهذا سبّب أزماتٍ نفسيَّةً كبيرة بين الأطفال. فتحْنا ثلاثة مراكز إضافيّة. لأنّ عددهم تضاعف بعد مقتل أهاليهم. توسّع نشاطنا، ولكنْ، نشأ خلاف بيننا وبين المجلس المحلّيّ(*). لم يرضَ أعضاؤه أن نكون نحن

---

*) المجلس المحلّيّ: تجمُّعٌ شكّل بديلًا من الدّولة المَدَنيّة الغائبة في المناطق التي خرج منها نظام الأسد، ودِيرَ من أهالي تلك المناطق، وكان يُقدِّم الخدمات الإعلاميّة والطّبّيّة والمعونات الإنسانيّة.

النّساء في هذه القوّة. لم يقبلوا أن نؤسّس مشاريع، ونكون مستقلّات عنهم بهذه الطريقة، وقد هاجمونا بشكل عَلَنيّ. كانوا جميعهم رجالًا، ولكنّني أنا والنّساء عملْنا بلا توقّف.

حصلتْ مجزرة الكيماويّ في "المعضّميّة" في ٢١ من الشّهر الثامن ٢٠١٣.

في تلك اللّيلة، كنتُ أبحث عن فيديوات لتعليم الأطفال. في الواقع كان نومي قليلًا، مع ذلك كنتُ لا أتعب، كنتُ صاحية عندما سقطتْ ستّة أو سبعة صواريخ في السّاعة الخامسة والنّصف صباحًا، أحدها بالقرب من بيتنا، كان تأثيره ضعيفًا، بسبب اتّجاه الهواء، فصعْدنا إلى سطح البيت، لأنّ الغاز تغلغل في الأسفل. صُدِمْنا، وأصابنا الهلع. عندما صرنا فوق السّطح، عاودت الطّائرات قصفَ النّاس الذين صعدوا إلى الأسطح. وضعتْ زوجة أخي القماشَ المبتلّ بالمياه على أفواه أطفالها، كان القصفُ غريبًا. أسمعه للمرّة الأولى، ولا يشبه القصف المعتاد. النّاس يصرخون في كلّ مكان، ويركضون، ولم يكن لدينا بنزين، ليهرب النّاس بسيّاراتهم بعيدًا من الكيماويّ، إضافة إلى أن "المعضّميّة" محاصرة من الجهات كلّها.

صوت القذائف يشبه صوت ارتجاج قطار يقع فجأة. هذا ما أذكره، وشعرْنا بضيق في التّنفّس، فذهبتُ فورًا إلى المشفى الميدانيّ قرب بيتنا، رأيتُ أشخاصًا ممدَّدين في الشّارع أمام المشفى، وآخرين ينثرون عليهم الماء. كنتُ أنظر إلى الجثث، وفي الطّرف الثّاني من الشّارع كان الذين لا يزالون على قيد الحياة وصدورهم تختلج، عيونهم بِيضٌ والزّبد يخرج من أفواههم. صرختُ: ماذا أفعل؟ لم نملك أيّ خبرة في التّعامل مع هذا الأمر. دخلتُ المشفى ومَن معي. الرّائحة فيه مثل رائحة بَيضٍ فاسد وعفن. تكمّمْنا بكمّامات عاديّة، لكنّها لم تنفعْ. نساء في جهة تختلج

صدورهنّ، ويصرخن بشكل هستيريّ، ورجال في جهة أخرى يفعلون مثلهنّ كأنّهم يردّون عليهنّ! صَبَبْنَا الماء عليهم، وأتى أفرادٌ بخَلّ، وليمون قطفوه من الأشجار، لكن الإصابات كانت تزداد. وانضمّ إلينا آخرون للمساعدة. تأثّرتُ بالكيماويّ، ولكنْ، لم يحصل هذا فورًا، فقد استغرق بعض الوقت، فَفَقَدْتُ بصري لمدّة أسبوع، وأُصبتُ بحالة اختناق. لكنّي حينذاك، كنتُ لا أزال قادرة على التّحرّك. كان هناك طبيب، واقف قُربي، ناولني رضيعًا، ظننتُ أنّه يريد منّي إسعافه، فأجريتُ له تنفّسًا اصطناعيًّا. بعد ذلك، اكتشفتُ أنّه ميت. ذُعرت! النّاس يصرخون في حالة هستيريّة. سألتُ عن أهل الرّضيع، فقالوا لي إنّهم ماتوا جميعًا. شعرتُ بالرّضا، لأنّه مات، وسوف يرقد بسلام بعد أن فَقَدَ أهله، ولن يكون وحيدًا في هذا العالم المتوحّش. أتتْ امرأة بعد أن تركتُ الرّضيع، وشدَّتْني من يدي، كانت مذهولة، أظنّها أُصيبت بالجنون، أمسكتْ بي بقوّة، وقالتْ: انظري، هذه ابنتي، وهذا أخي، وهذه ابنتي مريم، وهذا زوجي، ثمّ أشارتْ إلى مجموعة من الموتى. لم تكن تبكي، بل طلبتْ مني التّحديق فيهم، ثمّ قالتْ: وهذه أمّي، انظري، ما أجملها! انظري إليهم ... إنّهم ينامون فقط.

وُزِّعَ المصابون على البيوت الجانبية قرب المشفى. رأيتُ الموتى، وكنتُ أعرف معظمهم، من معارفنا وجيراننا وأقربائنا، وكان منهم مَن انتفخ، ثمّ دخلتُ بيتًا قريبًا، حيث مصابون آخرون، ورأيتُ صديقي المقرّب ينازع. إصابته خطرة، كان يُنقذ النّاس، فتنشّق الغاز.

رمت الطّائرات علينا غاز السّارين، وقد مات في مجزرة الكيماوي هذه حَوالَي ثمانين شخصًا. طَلَبَ منّا الفريقُ الطّبيّ أن نغسل وجوهنا باستمرار، ونمتصّ اللّيمون الحامض، لكنّني بدأتُ أشعر بأنّني لم أعدْ

أرى أمامي، ولم أعرف كم مرّ من الوقت ونحن نقوم بالإسعاف. في أثناء ذلك كلّه، تواصلتُ مع القنوات العالميّة، وظهرتُ في الإعلام، وتحدّثتُ عمّا يحصل في "المعضّميّة"، وعرضتُ صور الضّحايا. قصفت الطّائرات البيت الذي يحتوي على جثث ضحايا فقط، ولا يوجد فيه مصابون، كان الهدف قَتْلهم مرّتَيْن! كنتُ مُبلّلة بالماء، وفَقَدْتُ السّيطرةَ على نفسي. طَلَبَ منّا الطّبيب أن نذهب ونُغيِّر ثيابنا ونستحمَّ، حتّى لا يتسلّل السّمّ إلى أجسادنا. عدتُ إلى البيت، وعرفتُ أن قسمًا من عائلتنا قُتِلَ، وبيت أخي قُصِفَ، ظللتُ لا أستطيع التّحرّك لمدّة أسبوع. كنتُ عمياء تمامًا، وفي حالة اختناق، وبالكاد أتنفّس.

في ٢٦ من الشّهر الثّامن، دخل المفتّشون الأمميّون "المعضّميّة" لأَخْذِ عيّنات وإثباتات أن هناك سلاحًا كيماويًّا استُخدِمَ ضدّ المَدَنيّيْن. كنتُ غاضبة، وبالكاد استعدتُ نَظَري الضّعيف، لم أكن مهتمّة بما يريدونه. دخلوا ببساطة إلينا، كنّا نموت من الجوع وتحت القصف الكيماويّ، دخلوا علينا كأنّنا فئران تجارب. كنتُ أشعر بالقهر والغضب من الذين كانوا كلّهم يتفرّجون على موتنا كأنّنا لا شيء. لم أتحدّث إليهم، كان شيء ما في دخولهم أسوأ أخلاقيًّا من المجزرة. لقد أقرّوا بأنّنا مُجرّد كائنات جاهزة للقَتْل.

بعد المجزرة، عملتُ بشكل مضاعف في كتابة التّقارير، وتصوير تفاصيل ما حصل للإعلام. كنّا مذهولين ومُحطّمين، ولكنّنا نفعل ما يجب فعله.

تابعْنا نشاطنا في المراكز التعليميّة بعد أسبوعَيْن. الجميع في حال اكتئاب مزرية. اجتمعْنا، نحن النّساء، ووضعْنا خطّة جديدة لتعليم الأطفال، ثمّ قرّرْنا أن نقيمَ حفلة صغيرة لصديقتنا التي تأجّل زواجها أشهرًا عدّة،

بسبب القصف والموت والحصار، أردْنا نحن النّاجين من الكيماوي أن نستمرّ في الحياة.

في ذلك اليوم، طُلِبَ منّي تصوير العُرس، وكان هذا غريبًا، لأنّني سأُصوّر للمرّة الأولى بشرًا أحياء، شغَّلْنا الموسيقى بالبطّاريّات، هرَّجْنا وضحكْنا وغنَّيْنا للعروس التي فَقَدَتْ عائلتها قبل أيّام، جعلناها تضحك، فجأة سمعْنا دَويّ القذائف في منتصف الاحتفال الذي كان في ضوء الشّموع، فالكهرباء دائمًا مقطوعة، المكان الوحيد الذي توافرت فيه الكهرباء هو المشفى الميدانيّ. كنّا نذهب إليه جميعًا، لنشحن أجهزة الكمبيوتر والموبايل. سقطتْ قذيفة، لكنّنا لم نعرف أين، خرجْنا وركضْنا، وسمعتُ إحدى النّساء تقول إنّ القذيفة سقطتْ فوق بيت أخي. ركضتُ في اتّجاه المشفى الميدانيّ، لأنّ المصابين يُنقَلون إليه فورًا. كانت المسافة تبعد ثلاثمئة متر فقط، لكنّني شعرتُ بأنّني أركض بلا نهاية، أركض ولا أصل، وعندما وصلتُ كان أهلي وجيراننا يبكون ويصرخون، فقد قُتِلَ أخي وزوجته وطفله، وكانت المفاجأة أنّ اثنيْن من أولاده بقيا على قَيْد الحياة.

بقيتُ لمدّة أسبوع شبهَ غائبة عن الوعي بعد موت أخي وزوجته وطفله، ثمّ قرّرتُ التّماسكَ من أجل وَلَديْه اللّذيْن نَجَوَا. أخذتُهما، وذهبتُ إلى مركز التّعليم. لديّ ثلاثة إخوة، قُتِلَ أحدُهم بالقصف، والثّاني اعتُقِلَ لاحقًا بسببي، والثّالث بقي تحت الحصار، وخرجتْ زوجته معنا. كانَ السّؤال الذي يُؤرِّقني ليلًا نهارًا، ولم أعرف له إجابة، هو هل كانت المطالبة بالحرّيّة والكرامة تستحقّ هذه الدّماء التي سُفِكَتْ وهذا الموت كلّه؟ ما هذه الكرامة؟ وما هذه الحرّيّة أمام هذا العنف الوحشيّ؟ لقد كنتُ ضدّ السّلاح، وعندما دخلتْ جبهة النّصرة المعضّميّة في بداية ٢٠١٢، طَرَدَهَا

شباب "الجيش الحُرّ". وقد حاولوا منعي من التّصوير، وأنا لم أكن أحبّ الاحتكاك بالعسكر. مرّة واحدة ذهبتُ إلى التّصوير في خطّ الجبهة، علمًا أنّني كنتُ أذهب إلى "داريّا" التي كانت خطّ جبهة أيضًا. السّلاح لم يكن خيارنا، كنّا نريد فقط أن نشعر بالأمان. سَكَتَ النّاس، ورضوا بوجود السّلاح بسبب الخوف. ذكريات المجازر والإعدامات الميدانيّة، سهّلت سكوت النّاس عن السّلاح، وكان هذا شيئًا جنونيًّا، لأنّ ما كان يحصل أنّنا كنّا نموت في الحالَيْن.

وسَّعْنا العمل في المركز التّعليميّ ونشاطه. أردتُ معاندة الموت والاستمرار في العمل والعناية بابنَي أخي. قوّيتُ نفسي من أجلهما، ومن أجل الفتيات من حولي، شعرتُ بأنّني إذا انهرتُ، فسيكون الأمر سيّئًا عليهنّ. الطّالبات والمتطوّعات والعاملات معنا، يتعلّمنَ ويعملنَ، يفعلنَ كلّ شيء. طاقتهنّ عجيبة. كنّا مثل خليّة نحل، ندير أمورنا، ونستمرّ في العيش. جعلْنا المركز جنّةً، لوّنت الفتيات الجدران والواجهة واستقبلنا الطّلّاب صباحًا ومساء، فقد كانوا يأتون تحت القصف ورغم الجوع. القذائف تتساقط حولنا، فننظّف واجهة المركز كلّ بضع ساعات حتّى تشعّ ألوانه وسط الخراب. طَوَال هذا الوقت، استمرّ عملي الإعلاميّ، أُرسل التّقارير الصّحافيّة، وكنتُ أحصل على أموال من هذه التّقارير، وأتبرّع بها للمركز.

تفاصيل الحياة البسيطة، كانت تحتاج منّا إلى جهد كبير. الرّجال حولنا ظنّوا، بداية، أنّ ما نفعله لا يخرج عن نطاق أنّنا نساء نعتني بالأطفال، لكنّ عملنا تجاوز هذا الإطار، وهذا لم يعجبهم. كنّا، نحن النّساء، فريقًا يعمل بشكل جماعيّ، كنّا نتشاور، ولا يوجد مدير ورئيس ومرؤوس. حُورِبْنا

حتّى من النّاشطين الذين يعدّون أنفسهم ثوريّيْن ومَدَنيّيْن، وقادوا حملة على الإنترنت "هاشتاغ" ضدّنا. لم أُصدِّق هذه النّظرة الدّونيّة كلّها إلينا كنساء، لم أستوعبْ أن يكون رفاق لنا بالثّورة هكذا! لكنّنا تابعْنا نشاطنا رغم الضّغوط المجتمعيّة كلّها علينا من الجهات جميعها. كانت معاناتنا مزدوَجة، صدمتي النّفسيّة الأعمق كانت في ما فعله رفاقُنا الشّباب معنا كنساء. إحدى المرّات، استُدعيتُ للتّحقيق في المكتب الأمني التّابع للمجلس المحليّ والمَحميّ من "الجيش الحُرّ". أنا من عائلة كبيرة معروفة، ولولا ذلك، لرّبما تصرّفوا معي بطريقة مختلفة. ذهب أخي معي إلى التّحقيق. اتُّهمتُ بالسّرقة، حينذاك غضبتُ بشدّة، ولم أسكتْ، صَمَتُّ كثيرًا عمّا فعلوه بنا قبل ذلك، لكنّني هذه المرّة صرختُ في وجوههم، وقلتُ لهم إنّني أعمل ليلًا نهارًا متطوّعة، وما أحصل عليه من تقاريري الصّحافيّة أتبرّع به، وإنّني لا أريد إعطاءهم أيّ مبلغ لشراء السّلاح (كنتُ أعرف أنّ هذا أحد أسباب غضبهم منّي). كانت هناك مبالغ مالية مُحوّلة إلى "المعضّميّة" من أجل الطّحين، وهي عبارة عن مساعدات من منظّمات، وكانوا يعرفون أنّنا خبّأنا الأمر عنهم، وهم يريدون المال لشراء السّلاح. كنتُ واثنَتَيْن من الفريق، قلنا إنّ هذا حقّ النّاس للحصول على الخبز. لقد واجهناهم بكلّ قوّة.

عام ٢٠١٢، قمْنا بعمل استثنائيّ، رسمنا خريطة لـ "المعضّميّة"، وقسّمناها اثنَي عشر قطاعًا، وكان معنا بعض الرجال. أحصيْنا سكّانها، ودوَّنّا مطالبهم واحتياجاتهم. وسجّلْنا الشّرائح التي يجب التّعامل معها في العمل، والمجموعات النّسائيّة التي يجب التّواصل معها. زرْنا البيوت بيتًا بيتًا، وجمعْنا معلومات هائلة. أراد المجلس المحلّيّ المعلومات، فأبديْنا رغبتنا في التّعاون رغم موقفه العدائيّ. فعلنا ذلك كلّه بالورق وخطّ اليد،

عملْنا ليلًا نهارًا، لنُنجز الإحصاء، ولنُوزِّع سكّان "المعضّميّة" على مركز "رؤية" للتّعليم والدّعم النّفسيّ الذي أنشأناه. هذا الأمر كلّه لم يكن ليُعجب أعضاء المجلس المحلّيّ، لذلك كانوا مصمِّمين على جَعْلي أتوقّف عن العمل. سمحوا لنا بحضور جلساتهم بضع مرّات أنا وفتاة أخرى. أعضاء المجلس كلّهم رجال، وحضورنا لم يكن يُشكِّل أيّ أهمّيّة، ولم يُسمَح لنا بالمشاركة في الرّأي، بل كانوا يسخرون منّا. اكتشفتُ للمرّة الأولى معنى أن أكون أُنثى في نظر الآخرين! وكان هذا ضاغطًا. كنتُ في إحدى المرّات، أُصوّر في "المعضّميّة" في ٢٠١٢، وكنتُ في موقع تفجير سيّارة مفخّخة لتصوير الحدث، جاء ناشط إعلاميّ، وصرخ في وجهي: اذهبي إلى البيت، وأنا سأُكمل التّصوير، ما الذي تفعلينه هنا؟ وقال آخر: اذهبي إلى البيت، هذا المكان ليس للنّساء. كان عضوًا في المجلس المحلّيّ الذي يقول عن نفسه إنّه مختلف عن الإسلاميّيْن. كان يُبرّر ذلك بأنّنا نحن النّساء ضعيفات، ولن نجيد الدّفاع عن أنفسنا، وحمايتها في حالات الطّوارئ. هذا لم يكن صحيحًا! تفاصيل كثيرة كانت تعيق عملي كأُنثى، حتّى إنّ أعضاء من المجلس ذهبوا إلى أبي، وأخبروه بأنّني دائمًا بين الرّجال. وهذا أمر معيب. ظللتُ أبكي لفترة. كنتُ عدوانية، وقرّرتُ ألّا أسكت عن هذا الظّلم، فاستمررتُ في العمل بطاقة أكبر.

كانت ترد أخبار أنّ هناك ضربة كيماوية ثانية عندما حصلت الهدنة بين "الكتائب" والنّظام في أكتوبر، خرج ستّمئة من أهالي "المعضّميّة" الذين قُدّر عددهم بخمسة عشر ألفًا، وكانت مدّة الهدنة اثنَتَيْن وسبعين ساعة، وهي الهدنة الأولى بين النّظام و"الكتائب"، وفتح النّظام باب الخروج للنّساء والأطفال والرّجال فوق عمر السّتّين. طلب أهلي منّي الخروج، فرفضتُ. قالتْ لي أمّي إنّ ابنَي أخي الشّهيد

أمانة، ويجب أن نخرجَ جميعًا، ليعيشا. وافقتُ على الخروج، على أمل أن أعود قريبًا.

مشيْنا خمسة كيلومترات حتّى وصلنا إلى حاجز للنّظام. كانت هناك قنوات إعلاميّة للنّظام تُصوِّر الخارجين من "المعضّميّة". لقد غطّيتُ وجهي، ورأيتُ جنود "حزب الله". أوقفُونا لساعات، وفتّشونا بشكل دقيق. كان الحَرّ شديدًا، وأحد ابنَي أخي المتوفّى مريض والنّاس بلا طعام، فأتى جنود "حزب الله" إلينا بربطات خبز، ورموها علينا، كان الموقف مذلًّا، لأنّهم كانوا يقولون: هذا خبز... كلُوا، يا جوعانين، موطلعتوا لأنّكم جوعانين؟! هنا، فَقَدْتُ أعصابي، وصرختُ، ثمّ سقطتُ على ركبتَيّ، كان طَعْم القهر في حلقي مُرًّا، وقلتُ للنّاس: لا تأكلوا ...لا تأكلوا ... نحن لسنا أذلاء! نحن أصحاب كرامة!

متطوّعو الهلال الأحمر كانوا لطفاء. كان هناك زحام وطابور طويل من البشر، لذلك لم يلتفت الجنود لصراخي، ولم يسمعوني، بدونا كما في مشهد فيلم سينمائيّ، وأنا أنظر إلى الجموع الطّويلة والوجوه المتعَبَة المذعورة، ظننتُ أنّنا في كابوس، لكنّنا كنّا هناك حقيقة واقفين، ننتظر السماح بخروجنا من أرضنا!

كان يجب أن نجتاز حاجزًا من أكياس الرّمل والتّراب. الحاجز له بوّابة حديد مفتوحة في وسطه. وهو الحاجز الذي يجب على أهالي المعضّميّة من النّساء والأطفال الخروج منه، أضاع بعضنا بعضًا، أنا وأبي وأمّي. اكتشف جنديّ من "حزب الله" الكاميرا التي خبّأتُها. كان خطأ منّي، استطعتُ تهريب الكمبيوتر الصّغير، لكنّه اكتشف الكاميرا مع زوجة أخي، ضربها ضربًا مبرحًا، وكانت قد ولدتْ حديثًا. وأمامنا بعد الحاجز، الحافلات

الخضر التي ستقلّنا بعيدًا من "المعضّميّة". كان هناك مئات من النّاس يخرجون من المدينة، لم أعرف العدد بالضّبط. الأطفال يصرخون، وأهلهم يصرخون، وجنود "حزب الله" والنّظام يصرخون! لم أكنْ أسمع إلّا الصّراخ والبكاء. وَلَدَا أخي وقفا بجانبي يبكيان بصوت عالٍ، واختفى أبي مع أمّي، وأُغلِقَ الحاجز، ومُنعَت البقيّة من الخروج. كنتُ أصرخ وأبحث عن أبي وأمّي. زوجة أخي في حال انهيار تامّ بعد أن ضربَها جنود "حزب الله"، أولاد إخوتي استمرّوا في البكاء، وتشبّثوا بي مذعورين، أضعتُ أبي وأمّي وسط الحشود، كنتُ مشتّتة تمامًا، وكانت الحافلة الخضراء في انتظارنا. حملتُ الأطفال، وصرختُ: لنتّجه نحو الحافلة. فكّرتُ في أمر واحد فقط: إنقاذهم!

دخلْنا دمشق، وصارت "المعضّميّة" والمحاصرون وراءَنا، رأيتُ دمشق كأنّني أرى مدينة غريبة. أُخذْنا إلى ضاحية "قدسيّا"، كان هناك مركز لإيواء النّازحين، قد فُتِحَ. هربْنا من مركز الإيواء. وذهبتُ إلى بيت، أمّنَهُ لي أحد الأصدقاء في منطقة التّلّ. كنتُ أتواصل بالموبايل مع النّاشطين. خرجْنا بثيابنا فقط مع الأطفال، لا أملك سوى الموبايل وحقيبة يدي ومبلغ ماليّ، خبّأتُهُ في ثيابي. كنتُ أفكّر في أمّي وأبي والأطفال الذين كانوا مسؤوليّتي، وزوجة أخي التي تحتاج إلى رعاية. فكّرتُ فقط في أنّ عليّ ترتيب كلّ شيء لهم.

لم أكن أنوي الخروج من سورية أيضًا، لكنْ، بعد أسبوع، اعتُقل الأصدقاء الذين كنتُ أعمل معهم في دمشق، و"هكّر" فرع الأمن ٢١٥ صفحتي على "الفايسبوك"، و"السّكايب" الخاصّ بي، واعتُقل أخي الثّاني، وصرتُ مطلوبة بشدّة لأجهزة المخابرات. تخلّصتُ من شريحة الهاتف، لأنّ الأمن عرف رقمي، وأخذ يرسل تهديدات عبر الموبايل باسمي المستعار. في

أثناء ذلك، تابعتُ عملي الإعلاميّ، وأمّنتُ الأطفال في مدارس خاصّة، لأنّها لا تحتاج إلى وثائق، وأعطيتُ زوجة أخي الذي بقي تحت الحصار، مبلغًا ماليًّا. أمّا أبي، فكان اعتُقل في أثناء محاولة خروجه، وأمّا أمّي، فقد استطاعت الوصول إلينا في دفعة من دفعات الخروج الآنية خلال الهدنة. كان ذلك صعبًا، وتفاصيله مؤلمة، وتحتاج إلى كُتُب، لأوريها.

خرج أبي من المعتقل. وعندما وصل إلينا، طلبتُ منه أن أغادرَهم، فرفض، فهربتُ ليلاً مع صديقتي التي تورّطتْ بسبب تهكير حسابي. هربْنا، وأنا لا أحمل سوى حقيبة كمبيوتري وخاتمَي أخي وزوجته المتوفّيَيْن.

كانت رحلة الهروب عبر الحدود مُخيفة وفظيعة، أمضيْنا شهرًا كاملاً، نتنقل بين القرى، كان ناشطون يستلموننا، ويُسلِّموننا إلى آخرين، وإلى سائقي سيّارات، نهرب معهم من الحواجز. مرّة، طلبوا منّا أن نبقى أسبوعًا في إحدى قرى وادي بردى، اكتشفتُ لاحقًا أنّنا كنّا في منطقة تهريب، وكان فيها سلاح كثير قبل الثّورة. هناك لحظة لا أنساها أبدًا؛ استلمَنا سائق أنا وصديقتي، وكان يجب أن نخرج في منتصف اللّيل، قال لنا إنّه إذا تنفّسْنا، فسنموت. العتمة حالكة، ولا يوجد ضوء أمامنا، السّائق وضع على عينَيْه منظارًا ليليًّا، وكان هناك ضوء يلمع جانبنا. همس السّائق أنّه حاجز للنّظام. مددتُ رأسي، واكتشفت أنّنا نسير على حافّة وادٍ عميق، شعرتُ بالرّعب، كانت السّيّارة التي تسير ببطء شديد تبدو كأنّها تطير في الهواء! كنّا معلّقين على الحافّة في ليل حالك.

وصلْنا إلى "عرسال" في لبنان، وكان كلّ شيء قد انتهى.

الآن، أفكّر في أنّ الثّورة انتهت في ٢٠١٣، لم أكن قد فَقَدْتُ الأمل

بعد رغم المجازر كلّها التي شاهدتُها قبل الحصار. بعد الحصار، اختلف الأمر، "الكتائب الإسلاميّة" لعبت دورًا سلبيًّا في الثّورة. أهمّ سبب دفعني إلى مغادرة سورية أنّ "جبهة النّصرة" لن تسمح لي بالعمل، وسأبقى في البيت. لقد فُرِضَتْ قوانين جديدة على النّساء، تمنعهنّ من العمل. هذه القوانين فرضها العنف، وشرّعتها "الكتائب" المتطرّفة بقوة السّلاح رغمًا عن النّاس. عمومًا، كان هناك تغييب لأصوات النّساء، خصوصًا اللّواتي في الدّاخل، إضافة إلى أنّ عمليّات النّزوح واللّجوء ساهمتْ في تغييبها. لن أنسى أنّه كان يُطلَب منّي السّكوت دائمًا لأنّني فتاة، ولستُ نادمة على ما فعلتُ. أنا نادمة، لأنّني لم أستطع أن أفعل أكثر، لولا الضّغوط المجتمعيّة، لاختلف الأمر، مع ذلك، صنعت منّي الثّورة شخصيّة أخرى، أعطتْني روحًا وتجربة وقوّة. أنقذتْني من القوالب الاجتماعيّة. الحرب التي شُنّت لاحقًا لم تكن مسؤوليّتنا أنا وغيري، إنّها مسؤوليّة نظام الأسد وحلفائه والتّدخّل الإقليميّ والدّوليّ.

الآن، أحاول بدء حياة جديدة، من دون أن أنسى سبب وجودي خارج بلدي، أعيش لاجئة مع زوجي في إحدى الدّول الأوروبيّة، وأتابع دراستي الجامعيّة، وأعمل لأعيش.

الرّاوية الثّانية

أنا مريم حايد. عندما بدأت الثّورة كان عمري إحدى وعشرين سنة، وكنت أدرس في جامعة دمشق علم النّفس، كان عملي في الهلال الأحمر مع النّاس الذين تهجَّروا نتيجة القصف، وسكنوا المدارس التي تمّ تفريغها لاستيعاب الأُسر المُهجَّرة.

المدارس التي عملنا فيها كانت عبارة عن غرف واسعة، تُقسَم بالملاءات، وكلّ عائلة تسكن في حيّز ضيّق خلف كلّ ملاءة. كان التّحفّظ كبيرًا عن مشاركتنا النّساء النّشاطات، وقد عرفتُ هذا في أثناء محاولتي شرح الأمر للعائلات. كانت نشاطاتنا حركيّة للأطفال من رسم وكتابة وألعاب ذهنيّة، كأن نجعلهم يكتبون عن أشخاص مقرَّبين لهم فَقَدُوهم، وعن مكان نزوحهم، أو يبعثون برسالة إلى أصدقائهم، أو يرقصون. كان الهدف هو كسر حاجز الخوف في عملنا مع المراهقين والرّجال، ومن وجود جنس ثانٍ، لأنّ الرّجال قالوا إنّهم خائفون من هذا التّحرّر، وعمليًّا كانوا مضطرّين للبقاء في غرفة واحدة. لم نجمع في عملنا الرّجال بالنّساء، لأنّ الرّجال لم يرضوا بذلك.

كنتُ مسؤولة عن مشروع دليل الأمّهات لمساعدة النّساء في كيفيّة التّعامل مع المتغيّرات الفجائيّة التي طرأت على حياتهنّ. الرّجال لم يتفاعلوا مع المشروع، ورفضوه. من بين عشرين رجلًا، اشترك خمسة

رجال معنا، كانوا غاضبين، لأنّهم بلا عمل وبلا مأوًى. تركّز عملنا في حَيّ "الزّاهرة" ومشروع "دمّر" و"المزّة" في دمشق. وقد بقيتُ لثلاث سنوات أعمل مع النّساء النازحات حتّى اعتقالي.

شاركتُ في تظاهرة تجوب شارع "الحمرا" عام ٢٠١٢. كانت نسائيّة صامتة، وشكّل الشّباب حولنا طوقًا لحمايتنا. كتب كلّ واحد لافتة خاصّة به. أنا كتبتُ "نحن بدنا حُرّيّة". كان عددنا قليلاً وسط ساحة "عرنوس"، وهجمَ الأمن علينا بوحشية، واعتقل الشّباب، وضربهم، وأخذ بعضهم.

عام ٢٠١٣، نسّقْنا نحن الطّلّاب في الجامعة فيما بيننا، لنخرج بتظاهرات ضدّ الأسد، كنّا نُجبَر بطريقة تعسّفيّة على الخروج في مسيرات مؤيّدة للنّظام. تُغلَق أبواب المدينة الجامعيّة، ونُجمَع، ثمّ نكتشف أنّ هناك مسيرة مؤيّدة. تخرج رئيسة الوحدة الجامعيّة مع بنات عدّة، ويحملن العصيَّ، ويطرقنَ أبواب غرفنا، ويقلنَ إنّنا إذا لم نخرج، فسنُفصل من الجامعة، والتي تختبئ في الغرفة، ستنال العقوبة. أنا رفضتُ الخروج، وهربتُ. لذلك، خطّطتُ مع مجموعة من أصدقائي للخروج بتظاهرة ضدّ هذا القَمْع.

في كُلّيّة الهندسة المعلوماتيّة خرج الطّلّاب في تظاهرة. فضُربوا، واعتُقل بعضهم، ثمّ تظاهرنا تأييدًا لهم، لنقول لهم لستُم وحدكم، ونحن معكم. فشلْنا في الخروج بتظاهرة، لأنّ الأمن موجود بكثافة، وعرفْنا لاحقًا أنّ أحد أفراد مجموعتنا أخبر الأمن بالتّظاهرة.

في أثناء عملنا في الهلال الأحمر، طُلب منّا أن نقف على الحياد للاستمرار في العمل. هذا في الظاهر. وفي الحقيقة، انقسمْنا بين مؤيّد ومعارض، أصدقاء عملوا معي اعتُقلوا على الحواجز الأمنيّة نتيجة وشايات،

في الوقت الذي أصدرتْ مديريّة التّربية والتّعليم قرارًا يقضي بفَصْل أيّ طالب جامعي يشارك في تظاهرة.

في عام ٢٠١٢ نفسه، ذهبتُ إلى "الحمدانيّة" في "حلب"، اتّصلتْ بي ابنة خالتي وهي مختطَفَة الآن من "داعش"، وحتّى اللّحظة لم نعرفْ عنها شيئًا. كانت تعدّ رسالة الماجيستر في علم الآثار في مصر، وقرّرت العودة والمشاركة في الثّورة، فذهبتْ إلى الأتارب، لتشارك في كتابة تقرير ضدّ "داعش"، ورفضتْ وضع الحجاب، فاعتقلها عناصره مع صديقها. حينذاك، وقبل خطفها، طلبتْ منّي أن نُصدر بيانًا نسويًّا ضدّ نظام الأسد، يتحدّث عن مطالبنا وأولويّاتنا كنساء، وعن حُرّيّتنا المقبلة، وظهرتُ مُلثّمة على التّلفزيون، كي لا يعرفني الأمن. أنا ضدّ الحجاب والتّقاليد والعادات والمعتقدات الدِّينيّة، وأخطّط للعيش حُرّة مستقلّة، كنّا أنا وغيري من نساء كثيرات انخرطنا في الثّورة ضدّ الأسد من أجل حُلمنا هذا.

لقد سألتُ نفسي، لماذا شاركتُ في الثّورة؟ وكنتُ أعرف الجواب، فعندما مات حافظ الأسد، بَكَتْ أمّي خوفًا، كان بالنّسبة إلينا هو الأبد، لم نعرفْ رئيسًا غيره، وهو بالنّسبة إلى النّاس إله، وقرّرتُ أن أفهم. قرأتُ كثيرًا في التّاريخ وحقوق الإنسان، وأخي كان ناشطًا حقوقيًّا، وعرَفْتُ بمجزرة "حماه" ١٩٨٢، وكنتُ ضدّ توريث بشّار الأسد الحكم. كان أخي عرضة لملاحقات أمنيّة، وأمّي خائفة ومذعورة بشكل دائم، وأنا أشعر بالذّل ممّا يحصل لنا. لقد قرّرتُ أن أكون حُرّة مستقلّة، وألّا أخاف رجال الأمن، كان هذا جزءًا من قراري في العيش، امرأة حُرّة على الصّعيد الشّخصيّ. أنا لم أخرجْ في تظاهرة من الجامع. خرجتُ من الشّارع ضدّ نظام الأسد، خفتُ من خروج التّظاهرات من الجوامع، وكنتُ حذرة كثيرًا، وشاركتُ

في الثّورة، لأنّني أريد سورية حُرّة ديموقراطيّة بعد الظّلم الذي رأيتُه وعشتُه طوال عمري.

اعتُقلَتْ ابنة خالي الأخرى في سجن "كفرسوسة"، وكان معلومًا أنّه بدَفْع رشوة، نستطيع من خلالها إيصال مبلغ ماليّ إلى أيّ سجين، وهذا جزء من عمليّة فساد أوسع، شملتْ مناحي الحياة في سورية، من ضمنها المنظومة الأمنيّة نفسها. ذهبتُ إلى فرع الأمن في "كفرسوسة" لرؤية ابنة خالي، ولإيصال الثّياب والطّعام لها. فعلتُ هذا لها ولسّجينات أخريات. كنتُ صلة وَصْل بين عالم السّجينات وأهاليهنّ في الخارج. استمررتُ بعملي مع الهلال الأحمر، وزرتُ أصدقائي في بقيّة المعتقلات تحت تفتيش وضغط كبيرَيْن. كنتُ في السّجون بشكل دائم، وهذا أخافني جدًّا. رأيتُ وجوه المساجين الصّفر بلا ملامح، والسّراديب القذرة المظلمة.

اعتُقلتُ في الشّهر الخامس من عام ٢٠١٢. كان الأمن اعتقل صديقًا لنا، وأجبره على الاعتراف علينا. كنّا أحد عشر شابًّا وفتاة. جاءتْ في صباح أحد الأيّام دوريّة أمن إلى البيت، كان معي اثنان من الشّباب، وضع رجال الأمن المسدّس في رأسي، وهدّدوني بالقتل، ثمّ أغمضوا عيوننا، وأخذوا أجهزة الكمبيوتر، ودمّروا محتويات البيت، ثمّ اعتقلونا. تحرّشوا بي. دسُّوا أيديهم في أنحاء جسدي كلّها، ولعبوا به، وربطوا يَدَيّ بقَيْدِ حديد، كنتُ هادئة، لا أتحرّك، وصامتة تمامًا، لا أشعر بأيّ شيء مثل حجر! لم نكن نعرف أين يأخذوننا، لكنّنا وصلْنا إلى بناء، ونزلْنا الأدراج، وكنتُ لا أرى شيئًا، ثمّ أداروا وجوهنا إلى حائط. قالوا إنّهم يعرفون عنّي كلّ شيء. ضربُوني بعصيّ الكهرباء، ولبطُوني بأرجلهم، ضربوا الجميع بشكل عنيف، وأخذوا منّا أوراقنا الثّبوتيّة وأموالنا.

عادوا، وطمّشوني، ونزلوا بي أدراجًا تحت الأرض وهم يتحرّشون بي جنسيًّا، ويتحسّسون كلّ جزء من جسدي، أدخلُوني غرفة صغيرة جدًّا. فيها بين خمس وعشرين وثلاثين امرأة. رموني هناك، وطلبوا من السّجينات عدم التّكلّم معي، وسبّوني ببذاءة. لم يكن لي مكان في الغرفة، حُشِرنا، وتكوّم بعضنا فوق بعض. كنّا بالكاد نستطيع الجلوس. المنظر كان مرعبًا والرّائحة خانقة، وعرفتُ أنّنا في فرع الأمن الجنائيّ في باب "مصلّى"، ولسنا في قسم الجناح السّياسيّ، وهذا أخافني أكثر، لأنّني لستُ قاتلة أو لصّة، جلستُ متقوقعة على نفسي علمًا أنّ حجمي ضئيل، عيون المعتقَلات تراقب عينَيَّ. شعرتُ بأنّ عيونهنّ تسرق الحياة من عينَيّ، لأنّ عينَيَّ قادمتان من العالم الأعلى حيث الحياة، وعيونهنّ من العالم السّفليّ، حيث الموت. وجوههنّ صُفرٌ، ولون الموت فيها أرعبَني، فكّرتُ في أنّ هذا ما سأُصبح عليه، كنّا نُحدِّق في بعضنا بعضًا، ولا ترفّ أجفاننا. لم أنمْ تلك اللّيلة.

في الصّباح، اقتحمُوا الغرفة، وصرخوا باسمي، وأخذوني. جرَّني المحقّق من رقبتي مثل خرقة مهترئة، وضعوني في غرفة بحجم التّابوت، فيها دوش في السّقف، ثمّ فتّحوا الماء المثلّج عليّ، وبقيتُ تحته. كنّا في الشّتاء، وأنا تحت الأرض بطبقات عدّة، ازرقّ جسدي. كان المحقّق يضعني تحت الماء المثلّج، يُبعدني خمس دقائق، ثمّ يُعيدني إلى المهجع، ويُبقيني في ثيابي المبتلّة، ويمنع الجميع من الاقتراب منّي، ثمّ يأتي بعد ساعة أو أكثر، ويُعاوِد الأمر نفسه. بقيتُ أيّامًا عدّة على هذه الحال. أرتجف بشكل دائم، ولا أنام. لا أفكّر في أيّ شيء، كنتُ فقط في ذلك المكان. لي عينان فقط!

بعد اليوم الرّابع، عذَّبوني بالكهرباء على رجلي وظهري ورقبتي، وكنتُ

أسمع صراخ الشّباب الذين يُعذَّبون، وكانت عيناي مطمَّشتَيْن بشكل دائم، وبين جلسات التّعذيب بالكهرباء، يأتون بقِطَع ثلج، ويُفرغونها على جسدي، ينزلونها من رقبتي، وهم يشتمونني، لم أكن أعرف طَعْم النّوم، لأنّهم كانوا يأتون كلّ ساعة أو ساعَتَيْن، ويُعاوِدُون تفنُّنهم في التّعذيب. كان المحقّق شابًّا من دمشق. لم أكن أعرف تُهمتي، لم تُوجَّه إليّ أيّ تهمة، كنّا نتعرّض للتّعذيب فقط! ومُنِعْنا من الكلام.

عندما بدأ التّحقيق، اتّضح أنّهم يعرفون عنّي كلّ شيء. في الغرفة التي تبلغ مساحتها متريْن بمتر، وضعوا أمامي الكومبيوترات كلّها، بعد أن نزع المحقّق الغطاء عن عينَيّ، وهو لا يتوقّف عن رَكْلي ولطمي. عرفتُ أنّ هناك وشاية من شخص قريب، قال لي: لماذا تبقين هنا؟ اخرجي من سورية. كان يضربني طَوَال الوقت. لم يتوقّف أبدًا وهو يعرض الكاميرات والصّور التي قمتُ بتصويرها، الضّرب كان عنيفًا. "يفعسني" مثل حشرة تحت حذائه، مع ألفاظ مهينة وبذيئة لا تتوقّف، ثمّ وضعني رجاله تحت الماء البارد، ولم يسمحوا لي بالنّطق بحرف واحد.

في إحدى المرّات، دخل المحقّق، ونادى اسم أميرة. لم يسمع جوابًا، ثمّ دخل بيننا. تفرَّقْنا مذعورات. نظر إليّ، وقال: ما اسمكِ؟ قلتُ مريم. فصفعَني بقوّة، وقال: اسمكِ أميرة. ثمّ عاد، وقال ما اسمكِ؟ قلتُ: مريم. فصفَعَني بعُنف أكثر، وقال: اسمكِ أميرة خليف. فَصَمَتُّ، فعاد قال: اسمكِ: فقلتُ أميرة. أضاف: كنيتكِ؟ صَمَتُّ، فضربني بشكل أعنف، وصَمَتُّ، ولم أردّ، فضربني أكثر بشكل عنيف، ولطمني، ولبطني، فتراجعت السّجينات مذعورات. قلتُ له: قلْ لي مَنْ أنا؟ فقال أنتِ أميرة خليف، فقلتُ له: أنا أميرة خليف، قال: برافو! من الآن فصاعدًا، أنتِ أميرة خليف، مريم ماتتْ.

منذ تلك اللحظة، لم يعد يناديني إلّا أميرة، وكلّما كان يناديني أميرة، كنتُ أقول لنفسي: لا تنسي! أنتِ مريم ... أنتِ مريم ... أنتِ مريم!

بعد جلسات التّعذيب، كنّا نتعاون، ويواسي بعضنا بعضًا، ونبكي، والسّجينات يهتممنَ بي. كنتُ هادئة، وأحلّ الأمور بين السّجينات المتّهمات بالسّرقة والدّعارة، وكنتُ السّياسيّة الوحيدة بينهم. أقدم سجينة، وهي مميّزة عند المحقّق كانت مثل سجّانة، زعيمة المهجع، تأكل قبل الجميع، وتُوزّع الطّعام، وإذا لم نأكل، نتعرّض للضّرب، وقد ضُربتُ كثيرًا، لأنّني لم أستطع الأكل. لم يكن هناك هواء للتّنفّس، ولا مكان للنّوم، بالكاد نجلس، وننحشر قرب بعضنا، والرّوائح تزداد نتانة، ونتناوب على النّوم، لأنّ المكان لا يتّسع لنا جميعًا. كان المحقّق ورجاله يطلبون بنات الدّعارة ليلًا، يغبنَ حَوالَي السّاعَتَيْن، ونسمع ضحكهم. قال المحقّق لإحدى بنات الدّعارة: أنتنّ ستخرجنَ، لا خطر على المجتمع منكنّ، أمّا هذه الشّرموطة، وأشار إليّ، ثمّ قال: فستبقى هنا، وتموت. كنّا نسمع صراخ بنت تتعرّض لتعذيب عنيف، كان صراخها مُرعِبًا. لا تنام، تصرخ، ولا نعرف ما فعلوا بها. قالت النّساء إنّها أوصلت أموالًا لـ "الجيش الحُرّ"، وهي قالتْ إنّها كانت تُحضِر الطّعام لأهلها. صراخها لا يزال في أذنيّ.

ساعدْنا أنفسَنا للتّخلّص من القَمْل، فَقَأْنَا القَمْلَ في رؤوس بعضنا بعضًا، هناك حفرة في الأرض نتغوّط فيها، ونستحمّ بالماء البارد عبر خرطوم جانب الحفرة، كانت المعاملة الأسوأ معي في المهجع من قِبَل السّجّانين. في مهجع الشباب، انتشر الجَرَب. وعندما انتقلتُ إلى سجن آخر، كنتُ مصابة به، لم أستحمّ إلّا بالماء. في مهجع الشّباب، لا يوجد حمّام، كانوا يُخرجونهم مرّتَيْن فقط، من أجل ذلك. في أثناء الخروج والعودة، يتعرّضون

لتعذيب وضرب مُبرّح، وكان الشّباب يتبوّلون ويتغوّطون في ثيابهم أحيانًا. أمّا الممرّ بيننا وبين مهجعهم، فيُشطَف بالماء، لأنّ الدّماء والأوساخ تملؤه، ورائحته مقزّزة وخانقة.

كان التّحقيق يستمرّ لعشرات السّاعات، أجبروني على فَتْح حسابي على "الفايسبوك" وكان يتحسّسون جسدي ببذاءة كلّ يوم، والمحقّق يتحرّش بي جنسيًّا طَوَال فترة التّحقيق، وفي الوقت نفسه، يضربني ويركلني. فتحوا كلّ إميلاتي، وعرفوا نشاطاتي. كانت كلّها سِلْميّة وإغاثيّة. كنتُ مهتمّة بالحراك السِّلْميّ، وأُصوِّر التّظاهرات السِّلْميّة. قلتُ لهم إنّني قمتُ بهذه الأمور كلّها، لم يكن هناك خيار آخر. إنّهم يعرفون كلّ شيء.

استمرّوا يُعذّبونني من أجل استدراج أصدقائي والوشاية بهم. كان المحقّق يتلذّذ بسَحْقي بين يَدَيْه، يلصقني بجسده، ويهصرني حتّى أشعر بأنّ عظامي ستتفتّت، لكنّني كنتُ أردِّد في نفسي، طَوَال الوقت أنّني لستُ أميرة خليف، وأنّني مريم حايد التي تريد سورية حُرّة ديموقراطيّة. أردّد هذا الكلام مع تنفّسي بصمت، وأنسى ما يفعلونه بي.

كانت لنا معاناتنا في أثناء فترة الطّمث، انقطعتْ دروتي الشّهريّة في السّجن، وشقّت البنات ثيابهنّ لاستخدامها فوطًا صحّيّة، وتمّ إرسال الفوط بطريقة محدودة. كانت هناك دماء على البطّانيّات، والأدوية لم تكن متاحة، وإذا طلبناها كنّا نُضرَب.

إحدى طرائقهم في التّعذيب تُسمّى الشَّبْح. يربطون يَدَيّ من الأمام بحبل، ويشدّون عليهما، ثمّ يأتون ببرميل، ويجعلونني أقف عليه، وأنا مُطمّشة، ويضعون سلّمًا، يصعد عليه رجل، يُمرّر الحبل المربوط بيديّ

بحلقة السّقف، ثمّ يُثبّتونني، وينزعون البرميل من تحت رجليّ. بعد أن يُعلّقونني في الهواء، يضربونني على ظهري بسوط من المعدن والبلاستيك، كنتُ أظنّ أنّ نهايتي اقتربتْ، وسأموت، لأنّ الألم كان سيخًا من نار يخترق جسدي، ثمّ يصرخون: بدّك حرّيّة؟ بدّك تطلعي مظاهرات؟ وقبل أن يُغمى عليّ، يُنزلونني، كنتُ أبكي طَوَال الوقت، وأغيب عن الوعي، بعد ذلك يصبّون الماء البارد على جسدي، ثمّ يحشرونني بين مجموعة من الشّباب الذين كانوا يئنّون من الألم والتّعذيب. قلتُ لهم، اكتبوا ما تريدون وأنا جاهزة، فقط أريد أن ينتهي هذا كلّه. أصوات التّعذيب كانت أكثر ما يبقى في رأسي، لأنّني في أثناء تعذيبي، كنت أسمع صراخ الشّباب المروّع.

في يوم، وبعد الشَّبْح، صباحًا، ناداني المحقّق باسم أميرة، فخرجتُ، عصرني بيَدَيْه، وسَحَلَني في الممرّ، رأيتُ صديقي خطفًا وهو يُعذَّب، كانوا يقصون شَعْره الطّويل، ورأيتُهُ فاقدًا الوعي، ولم يعرف أنّني رأيتُهُ في جلسة التّعذيب تلك، والتي عرفتُ لاحقًا أنّ اسمها بساط الرّيح. وفعلوا بي كما فعلوا به، جاؤوا بلَوحَيْن خشب، فيهما قضبان خشب صغيرة ومفرّغة. ثبّتوا اللّوحَيْن، وصارا قطعة واحدة غير مربوطة، وجعلوني أستلقي على ظهري، ثمّ ربطوا حبلًا مع اللّوحَيْن بخصري، وصرتُ مثبّتة بهما، ثمّ فتحوا يَدَيّ إلى الأعلى، وثبّتوا معصمَيّ بالحبل، وألصقوا رجليّ ببعضهما بعضًا بشدّة، وربطوهما، ثمّ ثنوا أحد جهتَي لوح الخشب من جهة الرّجلَيْن، فصرتُ مثل زاوية حادّة، مع رَفْع لوح الخشب، يصير هناك ضغط على الظّهر، وصارت رجليّ في الهواء، وبدؤوا يجلدونني، الضّرب والوجع لا حدود لهما. بعد الضّربات الأولى، انسحق ظهري، وتخدّرتُ. كان المحقّق يضربني ويقول: يا شرموطة بدّك حرّيّة؟ قولي! هيك كنتِ تصرخي بالمظاهرة؟ ويضربني حتّى أردِّد ما كنتُ أقوله في التّظاهرة، كنتُ أردِّد ما يريده، وأنا على وشك

الإغماء أبكي وأصرخ. بعد ذلك، أجبروني على الوقوف، ووضعوا رجليّ في ماء مملّح حتّى لا تنتفخا. عند ذلك، شعرتُ بأنّ جسدي يُقطّع بسكّين.

جاء المحقّق في يوم، وناداني. أخبرني بأنّني إذا أردتُ الخروج من السجن، فيجب أن أقبلَ عرضه، وقال إنّ أصدقائي قبلوا بالظّهور على التّلفزيون، وإنّهم سيُصوّروننا لنصيرَ عبرة للنّاس، وإنّني لست مُخيّرة، لأنّني غير موجودة في الواقع، واسمي هو أميرة خليف، وهو يستطيع قَتْلي وإخفائي. اعتقلُونا بتهمة الإرهاب. وأنا ناشطة سِلْميّة، ولم أفكّر في ما سيحصل. وافقتُ على أيّ شيء يُخرجني من السّجن والجحيم والتّعذيب.

كان التّصوير في فرع الأمن "باب مصلّى"، بغرفة كبيرة، هناك رأيتُ أصدقائي. المصوّر كان لطيفًا، كان فيها أناسٌ كُثُرٌ، طلبوا أن أروي لهم قصّة تعاملي مع "الجيش الحُرّ"، فقلتُ لهم: أنا ناشطة سِلْميّة، وليس لي أيّ علاقة بجماعات مسلّحة. غضب المحقّق، وكان رئيس الفرع الذي لبّى قبلًا مطالب السّجينات حاضرًا، والمحقّق لا يجرؤ على الصّراخ أمامه. اقترحتُ عليهم حلًّا وسطًا، أردتُ الخروج بأيّ ثمن، قلتُ إنّنا سنقول إنّنا فبركنا التّظاهرات كما يردّدون هم في وسائل إعلامهم، وهم رضَوا بعرضي، وطلب منّي المحقّق أن أُعلن ندمي وتوبتي، تحطّمتُ تمامًا أنا وأصدقائي بعد التّصوير. لقد عذّبونا، وكدنا نموت، ثمّ جعلونا نقول من على شاشة التلفزيون ما يريدونه.بعد ذلك، عرفنا أنّ رئيس الفرع والمحقّق حصلا على ترقية، والبقيّة حصلت على مكافآت ماليّة، لأنّهم، حسب رواية النّظام الإعلاميّة، قبضوا على مجموعة إرهابيّة خطيرة.

نُقلْتُ إلى سجن "عدرا" بعد سبعة وستّين يوم اعتقال في فرع "باب مصلّى". في أثناء ذهابنا إلى سجن "عدرا"، كنتُ المرأة الوحيدة بين

المعتقلين، مَرَرْنا في طريقنا بسجن الرّجال، فجعلوا السّجناء يتعرّون أمامي، فأدرتُ وجهي. ربطونا بسلسلة حديد، وجرُّونا مثل العبيد، كان المشهد فظيعًا، وهم يجرُّوننا، وينهروننا، ويركلوننا! ذهبتُ إلى سجن "عدرا" بلا وثيقة تُثبِتُ مَنْ أنا. قال لي المحقّق، إنّني سأُعدم قريبًا، لذلك لا حاجة لأيّ شيء.

كان سجن "عدرا" في منطقة اشتباك بين النّظام و"جيش الإسلام"، وسمعنا في السّجن الجديد، دَويّ القصف فوق رؤوسنا، ولم تكن هناك زيارات نتيجة القصف. في ليلة، تساقط الزّجاج فوقنا من شدّته، كان الخوف من أن يتقدّم "جيش الإسلام"، ويأسرنا، واعتقدت النّساء أنهن سيُسبَيْنَ. أنا لم أتأثّر بشيء. بالنّسبة إليّ، النّظام و"جيش الإسلام" أسوأ من بعض، لكنّني فكّرتُ في أنّه إذا اقتحم "جيش الإسلام" السّجن، فربّما أستطيع الهرب.

في السّجن الجديد، كنّا في الجناح الخامس ما بين عشرين واثنَتَيْنْ وأربعين امرأة، تنقص أعدادنا، وتزيد. عرفتُ لاحقًا أنّه وُجِّهَتْ إليّ تهمة التّرويج لمنظّمة إرهابيّة، وحُوّلتُ على المحاكمة. لقد شهدتُ حوادث مروّعة، ولن أنسى أنّهم في إحدى المرّات أرادوا معاقبة معارضة للأسد، فوضعوها في غرفة بنات المخدّرات بعد أن رفضتْ انتخابه. وكانت تسبُّه، لأنّهم أجبرونا في السّجن على مبايعته بالقوّة. طلبوا منّا أن نبصم بالدّم على أنّنا نريده رئيسًا، كلّنا فعلنا ما طلبوه منّا، والفتاة الحلبيّة رفضتْ، فرموها بين بنات المخدّرات اللواتي أمسكنَها من شَعْرها، ورطمنَ رأسها بالجدار، واستمررنَ بفعل ذلك حتّى اغتسلت بالدّماء، وغابتْ عن الوعي ثمّ رمينَها في باحة السّجن.

خرجتُ من السّجن برشوة، ودفعتُ مالًا كثيرًا، كان هناك وسيط فعل ذلك، وهذه تجارة راجتْ أيضًا بين المحامين والقُضاة، وكانت سببًا في اعتقال أناس كُثُر أيضًا ظلمًا، من أجل ابتزاز أهلهم. كان يجب أن أهرب فور إطلاق سراحي المشروط، المال كان قوّة في أسوأ الحالات. لقد خرجتُ، وهنا بدأتُ رحلة الهروب واللّجوء.

وصلتُ أخيرًا إلى فرنسا، وما زلتُ أعيش هنا لاجئة، وأريد إكمال دراستي العليا في الجامعة.

الرّاوية الثّالثة

عمري سبع وثلاثون سنة. اسمي الحركيّ "ديما". أنا من حَيّ "ساروجة" في دمشق، وكنتُ أعيش في "حرستا"(*) عندما بدأت الثّورة. درستُ الـ "غرافيك ديزاين"، ثمّ أكملتُ في الصّحافة والإعلام في الجامعة. كنتُ أعمل في مَرسمي، وأصمّم الرّسومات التي تُطبَع على القماش، وأتابع دراستي في الوقت نفسه. "حرستا" منطقة صناعيّة، وقد عشتُ فيها مع أهلي منذ عام ١٩٩٠.

كنّا نستبعد قيام ثورة في سورية، عندما خرجت تظاهرة "الحريقة" في ٢٠١١، فوجئنا بشجاعة النّاس! بعد قصّة أطفال "درعا"(**) خرجتْ في دوما تظاهرة، ثمّ في الأسبوع الذي يليه تظاهر النّاس في "حرستا". حصلت الأمور بطريقة سريعة، خرج الرّجال من الجامع بعد صلاة الجمعة في التّظاهرة. بدايةً، لم يُطلق الأمن النّار، بل فعل ذلك لاحقًا. كنتُ غاضبة وخائفة، ولم أفهم ما يحصل حولي. رغبتُ في المشاركة، ولكنّني لم أعرف

---

*) حرستا: بلدة تابعة لمحافظة ريف مشق، وتتبع إداريًّا لمدينة دوما. تُعدّ من أهمّ بلدات غوطة دمشق، في الجهة الشّرقيّة منها، وحرستا باللّغة الآراميّة تعني، الأرض الخشنة، كما ذكر ياقوت الحمويّ في معجم البلدان.

**) أطفال درعا: مجموعة أطفال، أعمارهم ما بين ٨ و١١ سنة، كتبوا على جدران مدارسهم عبارات ضدّ بشّارالأسد، مُقلّدين العبارات التي كانت تظهر على شاشات التّلفزة العربيّة، وتطالب الرّئيس المصريّ والتّونسيّ بالرّحيل، فتمّ اعتقالهم وتعذيبهم بشكل وحشيّ من قِبَل أجهزة الأمن في مدينة درعا.

مَنْ يُنظِّم التّظاهرات، ومَنْ يخرج فيها، وخفتُ حيث لم أثقْ في ما يريدونه. عندما سقط "أحمد درويش"، الشّهيد الأوّل في "حرستا"، خفتُ الخروج في تشييعه، أنا حذرة أمنيًّا جدًّا، ومن قواعدي الأساسيّة عدم اعتقالي. كان في "حرستا" تنوُّع دِينيّ، ولكنْ، كان للمسيحيّيْن والدّروز والعَلَويّيْن حارات خاصّة بهم، مع ذلك انتفضتْ "حرستا" كلّها. أنا أعرف مخارجها ومداخلها وأسرار طُرُقاتها. وأعرف أهلها جيّدًا، كانوا متكافلين بداية الثّورة.

سألتُ عن أماكن التّظاهرات في دمشق، وذهبتُ وحدي إلى تلك الأماكن بعيدًا من "حرستا"، حيث لا يعرفني النّاس. تظاهرتُ في عزاء "هلا المنجّد"، وهي طفلة قُتلتْ برصاص قنّاص في أثناء خروجها من المدرسة في شهر نوفمبر٢٠١١، خرجنا للتّظاهر في حَيّ "الميدان" وسط دمشق، هتفْنا وغنّيْنا ورقصْنا، وقتل رجال الأمن حينذاك خمسة شباب. في اليوم التّالي، شيّعناهم، وكانت تظاهرة كبيرة، فرأينا في وجوهنا سبطانات الدّبابات ورجال الأمن والجيش. كانت الصّورة مخيفة. هربْنا. كنّا في شارع "أبو حبل" في حَيّ "الميدان". الشّباب صرخوا: الله أكبر، فجنّ رجال الأمن عندما سمعوا هذه العبارة التي كانت تصيبهم بالذّعر، فهجموا علينا، وركضْنا. لم يضربوا النّساء حينذاك. أمسكَني أحد رجال الأمن بخصري، فخلّصني شابٌّ من المتظاهرين، فقُبض عليه، وأُبرح ضربًا، واعتُقل مع الذين اعتُقلوا. لكنّ صديقاتي اعتصمنَ، وكنّ من الطّوائف جميعها: الإسماعيليّة والدّروز والعَلَويّة والمسيحيّة ... كنّ خمس عشرة فقط. وطالبنَ بإطلاق سراح الشّباب، لكنّ الأمن لم يقبل إلّا بإطلاق سراح النّساء. في هذه التّظاهرة، تأكّدتُ أنّني على صواب لأنّني أعارض نظام الأسد. لقد أردتُ حُرّيّة وكرامة ودولة مَدَنيّة تعترف بالحقوق، وكانت عندي طاقة مشتعلة للعمل في الثّورة.

أوّل مرّة، رأيتُ فيها السّلاح في ٦/١ /٢٠١٢، في أثناء التّظاهرات في جمعة "إن تنصروا الله ينصركم"، وكانت لتشييع شهداء سقطوا برصاص الأمن وهم "محمّد خالد زيتون، سامر منير المهدي، ماهر الدّبّاس وحسّان شلّة". قال المسلّحون إنّهم يحمون التّظاهرة، فنزلتْ دّبابات النظام إلى "سقبا".

عملتُ في تأمين الإغاثة الغذائيّة، وكنتُ على علاقة مباشرة مع "كتائب الجيش الحُرّ"، وعملتُ في التّنسيق مع "الفصائل" و"الكتائب" و"المجلس العسكريّ" لدمشق الذي كان يرأسه "خالد الحبوس"، بهدف توحيد "الكتائب" تحت لواء المجلس. كنتُ أنسّق بينها وبين سيّدة، كانت تؤمّن لها المال والسّلاح. وقصّة هذه المرأة تحتاج إلى صفحات وصفحات، لأنّ ظهورها واختفاءها المفاجئَيْن والمال والسّلاح الذي أمَّنَتْهُ غير مفهومة أبدًا. حينذاك، لم أفكّر في هذا كلّه. كنّا في قلب المعركة والعنف، وكنتُ مهتمّة بدَعْم الشّباب بكلّ ما استطعتُ من قوّة.

تابعتُ عملي في الإغاثة، وفي الوقت ذاته، كوّنتُ شبكة علاقات ممتازة من الأطبّاء الأكراد الذين ساعدوا الجرحى والمصابين. كنّا في ٢٠١٢، حين اعتقل الأمنُ أحد الرّجال الذين أعمل معهم في "حرستا". وهنا، قرّرتُ التّظاهر بشكل واضح في "حرستا"، لأنّه لم يعد عندي ما أخشاه، بخاصّة أن الرّجل الذي اعتُقل قد يُخبر أجهزة الأمن باسمي الحقيقيّ.

حمى "الجيش الحُرّ" تظاهراتنا، واعتُقلَتْ صديقتي التي عملتُ معها على مشروع "روزنامة الحُرّيّة"، حيث رسم أولاد الشّهداء صور آبائهم، ونحن نشرناها. صار وضعي في خطر أكبر، لأنّ الأمن سيقتحم مكتبي، وتمّ تحذيري بأنّ عليّ الهروب. لكنّني استمررتُ أعمل مع مجموعات "الجيش

الحُرّ". كانت الفكرة أن يتأسّس "جيش حُرّ" موحّد مع رواتب للمقاتلين، تحمّستُ للفكرة، وكنتُ أسلّم النّقود التي تأتي من "المجلس العسكريّ" إلى "الكتائب"، ومنها "كتيبة الاغتيالات"، والتي قُتل منها اثنان في مكمن نصبه النّظام في "حَيّ الزّاهرة". كان في الكتائب أطبّاء ومُحامون، أرادوا أن يغتالوا المسؤولين الأمنيّيْن الكبار، وقد نفّذوا بعض العمليات. في تلك الفترة تحديدًا، عرفتُ أنّ الأمن يأتي إلى مكتبي، ويسأل عنّي.

في السّابع عشر من الشّهر العاشر عام ٢٠١٢، حصلتْ "معركة حرستا" التي قرّرها "الجيش الحُرّ"، خوفًا من ارتكاب مجازر أخرى. الكتيبة التي قاتلتْ هي "كتيبة درع العاصمة"، أفرادها من أهالي "حرستا"، قائدهم اسمه "أبو محمود عفّوف" الذي ذهب إلى العراق للقتال عندما فَتَحَ النّظامُ باب الجهاد فيه في أثناء الاجتياح الأميركي، حيث ذهب كُثُرٌ من الشّباب السّوريّيْن إلى هناك، واعتقلهم النّظام لدى عودتهم، وأطلق سراحهم في بداية الثّورة. استمرّت المعركة ثمانية أيّام، فجّر شباب "الجيش الحُرّ" فرع الجويّة الذي كانت قوّات النّظام تقصف منه "حرستا" و"دوما". كنتُ المرأة الوحيدة في المعركة. لكنّ نساء أخريات كنّ في أماكن أخرى. رأيتُ الدّبّابات تقتحم من جهة مشفى الشّرطة، وكان القصف بالهاون مثل المطر، ونحن كنّا في الأبنية التي تقصفها الدّبابات، فطلب الشّباب منّي الخروج حرصًا على سلامتي، لأنّهم لا يريدون تسليم "حرستا"، والمعركة ستكون عنيفة. ذهبتُ إلى "مسرابا"، وبقيتُ في بيت عائلة أعرفها. البيت نفسه كان عبارة عن نقطة طبّيّة. و"مسرابا" تبعد كيلومترًا واحدًا فقط من "حرستا". رأيتُ أهل "حرستا" في الشّوارع، عائلات كاملة مشرّدة هاربة وهائمة على وجوهها. كان هذا المشهد مؤلمًا جدًّا، كنتُ أرى بأمّ عينَيّ كتلة بشريّة تُقتلَع من مكانها، وكان عليّ الاستمرار في العيش والمقاومة!

مع تزايد القصف، تزايدتْ أعداد الجرحى والمصابين والشّهداء. فعملتُ ليلاً نهارًا حسب حاجة المنطقة التي أنزح إليها. كان الجرحى ممدّدين في الشّوارع، ولا توجد أدوية. تعلّمتُ بأجساد البشر التّمريض تحت إشراف طبيب، لقد رأيتُ الفظائع ... أشخاصًا بلا أرجل، بلا أيدٍ، بلا رؤوس!

توسّعتْ رقعة المعركة، ولم يتراجع شباب "الجيش الحُرّ"، ودُمِّرَتْ "حرستا" كُلِّيًّا، لم يبقَ فيها شيء، ثمّ بدأ النّظام يرمي من الطّائرات صواريخ فراغيّة، تُدمّر الأبنية كما هي، كانت بلدات "الغوطة" كلّها مشتعلة، "سقبا، حمّورية الشهابية، المرج، حرّان العواميد". المَدَنيّون هربوا من طريق "المليحة". وبقيتُ مع أصدقائي، نعمل ليلاً نهارًا. في الليل، أبقى في "سقبا" وفي النّهار، أذهب إلى "مسرابا"، كنتُ أعمل مُسعِفة وممرّضة، وفي الإغاثة الغذائية، وربط الجهات العسكريّة، وفي الإعلام. كان هذا جنونيًّا، لأنّنا لم نكن ننام سوى ساعات قليلة.

شاركت النّساء في الفاعليّات جميعها، لكنّ الحيطة الأمنيّة والحذر جعلتنا النّاشطات يخفينَ وجوههنّ وأسماءهنّ، ما بدا ظاهرًا أنّهنّ اختفينَ، لكنّ الحقيقة أنّهنّ كنّ يعملنَ عملاً ميدانيًّا مكثّفًا. بالنّسبة إليّ، توزّع نشاطي بين السِّلْميّ والعسكريّ، لذلك كان وضعي خطرًا، ودُوِّن اسمي في مكاتب الأمن بتهمة التّسليح، فسافرتُ إلى مصر لخمسة وأربعين يومًا في الشّهر التّاسع ٢٠١٢، وعدتُ في الشّهر العاشر، كان المُفترَض ألّا أعود! لم أستطعْ تقبّل فكرة مغادرة بلدي والنّاس يواجهون القَمْع والظّلم. عدتُ إلى سورية بطريقة غير قانونيّة، حينذاك كان الأمن ارتكب مجزرَتَيْن في "حرستا"، إحداها في حَيّ "التّعلية" والأخرى غرب الأوتستراد، وسحب

حواجزه كلّها، ووضعها على مداخل "حرستا"، فاستنفرت الكتائب، لأنّها اعتقدت أنّ النّظام سيجتاح "حرستا".

بدايةً، وضعتُ الحجاب للتّنكّر. لكنّني لم أنزعْهُ حتّى خرجتُ نهائيًا، لقد تغيّر النّسيج الاجتماعيّ بشكل مفاجئ! وقد رأيتُ هذا بأمّ عيني، وكانت "حرستا" شبه خالية، لا يوجد فيها سوى بعض المَدَنيّيْن.

في أحد الأيّام، اعتقلَنا "الجيش الحُرّ" أنا وصديقتي في السّاعة الثّانية ليلًا، ثمّ أطلق سراحنا، وبعد ذلك بفترة، اعتقلتْنا "كتيبة" أخرى. كانت "الكتائب" تتكاثر والفوضى أيضًا مع تزايد التّمويل والسّلاح. مشكلة "الجيش الحُرّ" معي أنّني كنتُ امرأة أعمل بين مجموعة رجال! قرّرتُ الخروج من "سقبا" عندما اعتقلَني "الجيش الحُرّ" للمرّة الثّانية، وبقيتُ في "مسرابا".

بقيتْ صديقتي معي في "مسرابا"، ومعنا مجموعة شباب. كان معي جهاز لاسلكيّ بسبب ارتباطي بقسم العمليّات العسكريّة. كانت في كلّ منطقة غرفة عمليات، وأنا كنتُ محسوبة على غرفة عمليات "مسرابا". في ذلك الوقت، خرجت "كتائب" مدينة دمشق كلّها إلى "الغوطة"، وبقيتْ فيها، فبدأتُ استخدام طابعتي الخاصّة وأدوات مَرسمي، من أجل طبع الخرائط من غوغل، واستخدامها في المعارك والعمليّات العسكريّة التي تُنفّذها "الكتائب" التي وثقتْ بي، ولجأتْ إليّ، لأنّني كنتُ على دراية بتفاصيل ما تُخطّط له. صمّمتُ الشّعارات واللّافتات واللّوغو الخاصّ بكلّ "كتيبة"، لكنّ "الكتائب" التي تكاثرتْ غيّرتْ أسماءها حسب المُموّل الذي يدفع لها. كنتُ أعمل بلا مقابل، وبعتُ أغراضي كلّها لأعيش، كان ذلك قبل الحصار الذي بدأ على "الغوطة" في الشّهر العاشر من ٢٠١٢.

ساعدتُ "الكتائب العسكريّة" إعلاميًّا، جزء كبير منها من الطّبقات المسحوقة غير المتعلّمة، ولا يعرف شيئًا خارج إطار حدود قراها وبلداتها، أراد أفرادها القتال من أجل السّلطة، حينذاك لم أفهم ذلك. كُثُرٌ من الرّجال قاتلوا للحصول على السّلطة والمركز الاجتماعيّ، وليس من أجل محاربة الأسد. كان هناك لصوص فعلوا أسوأ بكثير ممّا فعل الجيش النّظاميّ، سرقوا ونهبوا وضربوا وقتلوا النّاس. رفضتُ ما يفعلونه، وأعلنتُ موقفي منهم، واعتقلوا شريكي في العمل، لأنّنا وصفناهم باللّصوص. صُدمتُ بما يحدث أمامي، لأنّي ظننتُ أنّنا خرجنا ضدّ الأسد من أجل العدالة، كان ما يحصل أسوأ ممّا تخيّلتُهُ في حياتي كلّها. كنتُ حينذاك في المكتب الإعلاميّ الخاصّ بكتيبة "فَتْح الشّام"، أعمل في قسم التّوثيق والأخبار، خرجتُ مع المقاتلين إلى معركة تحرير حواجز أوتوستراد "دمشق - حلب" الدّولي، وكان الدَّعْم يأتي من لواء "مغاوير سورية" الذي استلمَهُ أبو الحسن السّوريّ.

طُلِبَ منّي تصوير المعركة التي خاضتْها "فتح الشّام"، وبثّها مقاطع على اليوتيوب، كان معي لاسلكيّ بشكل دائم وكنتُ في قلب المعركة. كان لديّ مسدّس ٨,٥، لكنّني لم أحمله، أعطيتُهُ لشريكي. ذهبتُ إلى المعركة مع كمبيوتري و"الثّري جي"، قيل لنا هناك الكهرباء متوافرة في البناء الذي سنكون فيه، ويقع خلف "الكتيبة" على خطّ المواجهة. كان قصف الهاون فوقنا مثل المطر، وقائد "الكتيبة" في الصّفّ الثّاني، ولم يقف إلى جانب مقاتليه الذين استطاعوا الاستيلاء على الأوتوستراد الدّوليّ. فكّر بعضهم في إقامة حواجز على الأوتوستراد من أجل سرقة أموال النّاس. في صباح اليوم التّالي، قصف النّظام منطقة المعركة بغاز الخردل، وانسحبت "الكتائب" من الأوتوستراد، ثمّ استلم قائد "الكتيبة" النّفقَ، وحوّله مصدرًا

للنّهب واستغلال النّاس، لذلك قَبِل بهذه المقايضة، وباع المعركة للنّظام. كان من أهل "حرستا". وعلى الرّغم من أنّهم لا يُحبُّونه، إلّا أنّه فرض نفسه عبر مقارّه العسكريّة. كان مُجرّد لصّ وقاتل.

أسّستْ صديقة لي "كتيبة"، اسمها "أمّهات الشّهداء" في "الغوطة الشّرقية"، و"ألمى شحّود"(*) أسّست "كتيبة" في "عين ترما"، وكتيبة نسائيّة في عربين، وكتيبة أخرى في "مسرابا". عندما أسّستْ صديقتي الكتيبة، علّمت النّساءَ فنون القتال والكاراتيه والتّمريض واستخدام السّلاح. إحدى "الكتائب" المحسوبة على "الجيش الحُرّ" هاجمت كتيبتَها، وسرقت السّلاح. ومنذ عام ٢٠١٤، لا وجود لأيّ كتيبة نسائيّة في "الغوطة".

فَقَدْتُ إيماني بـ "الكتائب العسكريّة"، والمجموعات الجيّدة منها كانت تقلّ أكثر فأكثر. وخلال عام ٢٠١٣. عرفتُ أنّ لها ارتباطات خارجيّة.

مرّة، زرتُ إحدى "الكتائب"، بعد أن نزعتْ علم الثّورة، ووضعتْ راية سوداء، فاستهجنتُ الأمر، فقال لي صديقي: "قد يأتينا تمويل من "جبهة النّصرة" أو من السّعوديّيْن"، لقد كنتُ على علم دقيق بهذه التّفاصيل، لأنّني كنتُ أصمّم لها الشّعارات واللّوغو، وقد شهدتُ مراحل تحوُّل شعاراتها إسلاميّةً متشدّدة.

المكتب السّياسيّ التّابع للمجلس العسكريّ في تركيا، هو الذي نفّذ صفقات السّلاح الذي يأتي من ليبيا. في بداية تأسيس "الجيش

*) ألمى شحّود كانت تُلقّب بـ"الحُرّة". هي واحدة من ناشطات الثّورة السّوريّة، من مواليد دمشق ١٩٨٦ عملتْ في الحراك السِّلْميّ والإغاثيّ بأنواعه كافّة، ثمّ عملتْ في الحراك المسلّح، وكانت تقاتل على خطوط الجبهات مع الرّجال. أسّستْ كتيبة مسلّحة للنّساء في غوطة دمشق، واعتُقلتْ، وعُذّبتْ، واغتُصبت في سجن لنظام الأسد، وأُصيبت في أثناء المعارك، فَشُلّتْ، وتُوفّيتْ في الأردن عام ٢٠١٤.

الحُرّ"، كانت أسماء "الكتائب" غير إسلاميّة، وكانت تضمّ دروزًا ومسيحيّيْن وعَلَويّيْن. انتهت كلّها بين نهاية ٢٠١٤ وبداية ٢٠١٥." جبهة النّصرة" و"الكتائب الإسلاميّة" لم تسمح بوجود النّاشطين العَلَويّيْن والمسيحيّيْن، خرجوا كلّهم. التّمويل غيَّر الأمور، كان الدّعم المالي يأتي لغير المتعلّمين والمتديّنين، وهم أناس معروفون قبل الثّورة بسوء أخلاقهم، واغتيل كُثُرٌ من قادة "الكتائب" الشّرفاء المؤمنين بمبادئ الثّورة. كانت تحصل أمامي أمور مرعبة، رأيتُها بوضوح، فقرّرتُ الابتعاد عن "الكتائب" نهائيًّا، رفضتُ حتّى وجود السّلاح في بيتي. كنتُ مصدومة من تفاصيل السّرقات الحاصلة، رفضتُ حتّى مُجرّد اللّقاء بهم ورؤيتهم.

تفرّغتُ للعمل المَدَنيّ، واستمررتُ في عملي على طابعتي، ثمّ توقّفتُ بسبب الحصار، لأنّ الحبر نفد. بعد ذلك، افتتحتُ مركزًا نسائيًّا في "حرستا" التي لم تكن فيها فاعليّات مَدَنيّة، سوى مدرسة تُديرها امرأة "قُبيسيّة" تُعلِّم الدِّين. كانت المنطقة خطّ جبهة، لكنّني وجدتُ قبوًا بمساعدة أصدقاء لي في مطلع ٢٠١٣، كانت بالقرب منه "كتيبة"، حاولت السّيطرة علينا، واجهتُها بصرامة، ومنعتُها من الاقتراب منّا.كانت تابعة لـ "الجيش الحُرّ" قبل أن تتحوّل "سَلَفيّة". القبو كان غرفة كبيرة. أتيْنا بخزّان ماء من بناء مجاور مقصوف، ومددْنا مواسير الماء، لم تكن هناك مواصلات، فكنتُ أمشي ساعات وساعات لتأمين حاجاتنا. كان مبنى قبونا مقصوفًا وشبه ركام، والقبو مَحميًّا. كنّا نتعرّض للقصف دائمًا، لقد فتحْنا مركزنَا تحت الرّكام، علمًا أن الشّتاء كان قد اقترب، والحصار اشتدّ، واختفت البضائع، وارتفعت الأسعار. كانت المعاناة في شراء المازوت، لأنّ المولّدات الكهربائيّة تعمل بها، ثمّ اختفت المواصلات نهائيًّا. تقريبًا لم نعد نأكل. معبر العتيبة وقع في يد النّظام، ثمّ في يد "داعش"، وكان يأتي

منه الطّحين الذي اختفى لاحقًا. كنّا تقريبًا ثمانمئة ألف إنسان محاصرين. حاولنا إيجاد بدائل، كي نستمرّ في الحياة، فَخَبَزْنا عَلَفَ البقر. بعد معارك "الكتائب"، كان النّاس يأتون بالخبز المعفّن، يبلّونه بالماء، ثمّ يعيدون خَبزه من جديد. مَنْ يحصل على الخبز، كان يعدّ صاحب حظّ وغنيًّا بين النّاس، ثمّ أتينا بعَلَف الدّجاج، وخبزناه، وأكلناه. أحد أصحاب معامل الأجبان كانت له علاقات مع النّظام، قرّر أن يبعث منتوجات الألبان إلى مناطق النّظام، والنّظام يرسل لنا الشّعير. وجدناه نعمة! كان سعر كيلو الشّعير سبعمئة وخمسين ليرة، نُقشِّره، ونطحنه، ونعجنه، ونخبزه بأيدينا. عمليّة الخَبز تتمّ على "تنكة"، لها فتحة من فوق، وفتحة من تحت، نُشعل داخلها الحطب. لا يوجد رزّ ولا سكّر ولا ملح ولا بنّ ولا شاي. كنتُ أغلي الشّاي نفسه مرّات عدّة، كانت لدينا مخلّلات بمئتَيْن وخمسين ليرة سوريّة للكيلو، هذا فقط لأنّ "الكتائب" سيطرتْ على أحد مصانع المخلّلات، وباعتْه للنّاس! كنّا جائعين طوال الوقت، حتّى الماء كنّا نشتريه. أُعبّئ خزّان الماء بألف ليرة، ويكفيني لأسبوع، والعائلة التي كانت تسكن تحتي كان يكفيها الخزّان ليوم واحد، كانت العوائل تأتي بالمياه من الآبار مشيًا لمسافات طويلة للحصول على الماء، الأطفال غالبًا هم مَنْ كانوا يحملون المياه تحت القصف، وفي البرد.

في مجزرة الكيماويّ في ٢١ آب ٢٠١٣، استيقظتُ في الثّالثة فجرًا على دَويّ القصف، اعتقدنا بداية أنّهم قصفُونا بالكيماويّ، فقد سبق أن قُصِفَت "حرستا" بالكيماويّ، واستُخدمَ غاز الخردل في ٢٠١٣/٥/٢٦، لكنّ القصف هذه المرّة كان على "زملكا"(*). وأنا كنتُ عانيتُ من آثار بعيدة للغاز الذي

*) زملكا: إحدى بلدات الغوطة الشّرقيّة التّابعة لمدينة دوما. وهي تبعد من دمشق عشرة كيلومترات فقط.

أطلقه النّظام، عانيتُ من التّقيّؤ والهبوط الحادّ في الطّاقة والغياب عن الوعي. لذلك، لم أعمل بالإسعافات في النّقاط الطّبّيّة مباشرة. في تلك المجزرة، كُوِّمتْ جثث النّساء في شاحنة، وأُخفيت الأجساد عبر تكديسها فوق بعضها بعضًا. الأمر الفظيع أنّه في مركز العلاج بعد القصف الكيماويّ، لم يكن يوجد سوى فتاتَيْن لتنزع الثّياب عن النّساء، وهذا جزء من عمليّة الإسعاف، وكان هذا مُرهِقًا، والفتاتان لم تستطيعا تحمّل جهد العمل وحدهما في نزع ثياب المصابات كلّهنّ، والرّجال لم يقتربوا، قالوا، هذا حرام! وهذا أدّى إلى وفاة نساء، وسُرقت جواهرهنّ. كنّا وجدنا في جيوب أحد المصابين أقراطًا وأساور وسلاسل ذهبًا منتشلة من جثث النّساء. كان هذا رهيبًا، ولا أستطيع التّعبير عنه باللّغة!

في شتاء ٢٠١٤ القاسي، اختفتْ أدوات النّظافة في الحصار، لا معجون أسنان ولا صابون ولا شامبو، ولا ثياب شتوية، حتّى إنّ "الكتائب" استولتْ على معامل النّسيج في "الغوطة"، فأرسل لي أصدقائي جرابًا صوفًا، لم أملكْ سواه، كنتُ أذهب صباحًا إلى المدرسة، لأُدرّس الأطفال في "دوما"، وبعد الظهر إلى مركز النّساء في "حرستا". أتحرّك مشيًا. بيتي في طبقة عَلَويّة مواجِهة للقصف، لذلك أُجرته رخيصة، ومدفأتي تعمل على الحطب، فكان صديقي يأتي بأغصان الزّيتون، وأنا أقطع الحطب بنفسي بالفأس. الوقت العصيب كان فترة الدّورة الشّهريّة، حيث لا فوط نسائيّة ولا ماء ولا صابون للنّظافة، كنت أستخدم القماش كبقيّة النّساء. أدوات العناية بالنّساء كلّها اختفتْ أيضًا. بعد فترة، بدأتُ أغيب عن الوعي، ومرضتُ، ونحلتُ جدًّا. عندما استولى "الجيش الحُرّ" على معمل شوكولا، أرسل لي الأصدقاء بضع قِطَع منها. كلّ قطعة بحجم كَفّ اليد، وكلّها عليها آثار أسنان الجرذان. كنّا نحفّ

الآثار بمبرد، وعندما نزيل الطّبقة العليا، نأكلها. حصلتُ على بعض الطّاقة من قِطَع الشّوكولا هذه.

بدأت اتّفاقات تُبرم بين النّظام وبعض "الكتائب" المعارضة بطريقة غير مباشرة عبر لجنة المصالحة في بداية الشّهر الخامس من ٢٠١٤، ووصلتْ بضائع من "برزة"، ولكنْ، بأسعار مرتفعة. مثلاً، كان النّظام يبيع ربطة الخبز، بخمس وعشرين ليرة سورية، وكان التّجّار وأمراء الحرب من "الكتائب" يبيعونها للنّاس بألف وخمسمئة ليرة تحت الحصار، وهذا حصل مع الأدوية والحشيش والموادّ كلّها. صار النّاس يلجؤون إلى "الكتائب" التي تفرض إتاوات على دخول الأشخاص والموادّ وخروجهم عبر الحواجز، وقد اغتنتْ بشكل فاحش من هذه التّجارة، حتّى الإبر والأدوية المجّانيّة، كانت تفرض عليها غرامة لدخولها "الغوطة". الفقراء لم يقدروا على شراء حتّى طحين العَلَف. مازالت تطنّ في أذني حتّى اللّحظة أصوات أطفال جيراننا الذين كان أهلهم يضربونهم في اللّيل، لأنهم لم يكونوا يستطيعون النّوم بسبب الجوع. أهلهم يضربونهم، ويبكون عليهم! كان الأطفال في شبه غيبوبة، بسبب عدم توافر الطّعام، وتحوَّل بيتي مركزًا لطالبي الأدوية وأدوات الإسعاف. كانوا لا يملكون ثمن طعامهم، جوعى ومرضى دائمًا! لم يكن هناك أطبّاء ولا ممرّضون، كنتُ أعطيهم الإبر والأدوية مجّانًا.

لم نكن ننام إلّا نادرًا، لأنّ القصف لا يتوقّف ليلاً ولا نهارًا. وأنا كنتُ مشتّتة على الدّوام، وجميع مَن حولي تقريبًا مثلي. استعضْنا عن الزّجاج بأكياس النّايلون على النّوافذ، لأنّ القصف لم يترك زجاج نافذة سليمًا. وهذا يجعل البيوت أكثر برودة. بيتي قُصف بقذيفتَيْن، وبقي أحد جدرانه مكشوفًا. كنّا نمشي في الشّوارع والسّيّارات المفخّخة تنفجر. وكانت النّساء

يلدنَ بعمليّات قيصريّة، لأنّنا لم نكن نستطيع انتظار المخاض في أثناء القصف، ولا توجد معدّات طبّيّة، فكنّا نجري العمليّات القيصريّة بأبسط الوسائل حتّى لا تلد النّساء وحدهنّ خلال القصف الذي لم يتوقّف على مناطق "الغوطة" كلّها، مع اختلاف حدّته بين منطقة وأخرى. كنّا على وشك الجنون، فقد كنّا نظلّ أيّامًا داخل البيوت ونحن ننتظر الموت. بعد فترة، اعتدْنا النّوم تحت القصف، وقد مات ناس كُثُرٌ وهم نائمون.

جُرِّبَتْ فينا أنواع أسلحة كثيرة. مرّة، أُطلقتْ علينا "صواريخ الفيل" كانت الأرض ترتجّ تحتنا، وكنتُ أرى أبنية تختفي بلمح البصر. كانت أمام عينَيّ وبمواجهتي. كنّا نعرف أنّه في حال سمعنا دَوِيّ القذيفة، فهذا يعني أنّنا نجونا، لأنّ دَوِيّها أسرع منها. في أحد الأيّام، كنتُ في بيتي، أمدّ رأسي من النّافذة، أراقب حركة "جبهة النّصرة"، حيث كان أفرادها يجتمعون في الجامع. قصفت طائرات النّظام الجامع بصواريخ عدّة، فجأة تهاوت الأبنية، وكادت أذناي وعيناي تنفجر... حصل ضغط هائل في الهواء. بدأ الأطفال يصرخون. خوفي لم يكن من الموت، بل من أن تُقطّع أعضائي، وأتحول مُعاقة كما حال كُثُرٍ في "الغوطة". كانت إصابات النّساء سيّئة للغاية، ولا عناية بها، لأنّ الكوادر النّسائيّة قليلة، والرّجال لا يدخلون على النّساء حتّى لو كانوا أطبّاء. صار هذا قانونًا!

مع ذلك، استمررتُ أعمل في مركز النّساء، وبدأنا نشاطات بسيطة مثل مَحو الأمّيّة وتعليم اللّغة الإنكليزيّة ونشاطات مهنيّة، قسمْنا القبو بستار من قماش، لنفرز الدّروس والحصص.كانت تأتي إلينا كلّ يوم مئة وخمسون امرأة رغم الظّروف القاسية والصّعبة. لم تكن لدينا شبكة إنترنت حينذاك، نظّمتُ الشّغل، وأقمتُ معرضًا للأشغال المهنيّة. وعلى الرّغم

من البرد والقصف والمطر، جاءت لحضور افتتاح المعرض مئتان وخمسون امرأة. كان هذا مصدر تفاؤل لي. كان مركزنا مرتبطًا مع مراكز نسائيّة أخرى، وطوّرْنا عملنا لاحقًا، وتواصلنا مع مراكز ريف "إدلب" النّسائية ومخيّمات لبنان، وأنشأنا مراكز للإنترنت. صادفتْنا مشكلات في البنيّة الدّاخليّة لعملنا نتيجة عدم الثّقة وعدم الاحتراف وسوء الائتمان. لا بدّ من القول إنّه وُجدت حالات كثيرة من قلّة الأمانة في الأموال التي أُرسلتْ لمساعدة النّاس حتّى في النّشاط المَدَنيّ أيضًا.

في تلك المرحلة، اشتدّ التّضييق عليّ من قِبَل "الكتائب" المُعارضة، فقد كانت ضدّ العمل المَدَنيّ. حصلتْ معركة كبيرة بين "جيش الإسلام" و"داعش". وفي تمّوز ٢١٠٤، كان "جيش الإسلام" قد سيطر على "الغوطة"، وقتل النّساء والأطفال، وقال إنّ هؤلاء نساء وأطفال رجال "داعش".

قرّرتُ الخروج من سورية حينذاك. لقد شعرتُ بالقَرَف تمامًا، بخاصّة بعد أن هدّدني عناصر "جيش الإسلام" و"النّصرة" بالقَتْل، وقالوا إنّ خلايا "داعش" تُنفّذ اغتيالات بحقّ النّاشطين، وكان أصدقائي قد خرجوا قبلي، وصرتُ مطلوبة لـ "داعش" ولـ "الكتائب" العسكريّة على اختلافها. خفتُ من كلّ ما يحيط بي. صرتُ أنتظر أن يُقتحَم بيتي، وأُقتَل في أيّ لحظة! لكنْ، عندما خُطفتْ رزان زيتونة وسميرة الخليل، فهمنا أنّ الأمر رسالة لنا جميعًا وإنذار أخير. أظنّ أنّ "جيش الإسلام" هو الّذي خطفهما، أو أنّ عمليّة الخطف تمّتْ تحت وصايته، فقد كانت سيطرته مطلقة على مدينة "دوما"، له أجهزة مخابرات، لا تقلّ عنفًا عن أجهزة النّظام، بل كانت أسوأ. صديقي ناشط عَلَويّ، أخفى هويّته، وبقي هناك، لكنّه كان مطلوبًا أيضًا.

وبات واضحًا أنّ وجود أيّ ناشط مَدَنيّ أو من الأقلّيّات، سيكون مرفوضًا تمامًا، وسوف يُقتَل.

لقد تنازلتُ عن كلّ شيء من أجل البقاء، وضعتُ الحجاب، ورضيتُ بالجوع، وانتظرتُ الموت مثل النّاس كافّة. أردتُ أن أكون جزءًا من عالم الناس المسحوقين، وأساعدهم في التّغيير. كانت لهم عاداتهم، وكانوا متشدّدين دِينيًّا، وقد التزمتُ عاداتهم. كانوا لطفاء، وصرتُ واحدة منهم، ووثقوا فيّ. كانت جارتنا تُرسل إليّ عندما تطبخ لقمة واحدة في فنجان قهوة، طبختُها كلّها لا تملأ صحنًا، وكانت تقاسمني اللّقمة الواحدة، فقط لأنّها لا تستطيع أكثر من ذلك. لكنّ سيطرة "الكتائب" المتطرّفة أمر مختلف. أرادتْ أن تقتلنا أو تطردنا، أو نعمل تحت إمرتها. كان أفرادها أمراء حرب.

الفظيع في الأمر أن الطبقة الوسطى عمومًا تركت "الغوطة"، هربتْ مع اشتداد المعارك، والذين بقوا هم الفقراء والبسطاء والمتديّنون والجهّال أيضًا. الطبقة الوسطى تتحمّل مسؤولية تَرْك النّاس وحدهم! كان هناك تصحير للطّبقة الوسطى يحصل قبل الثورة. لقد كنتُ وغيري من القلائل وجهًا لوجه مع هذه الفئات البسيطة. فعلتُ هذا بملء إراداتي، وكنتُ أعرف أنّ خروج الطبقة الوسطى سبب من ضعف فاعليّتنا. كان يأتي إلينا ناشطون وناشطات من الطّبَقَتَيْن الوسطى والثرية. يأتون ليوم أو يومَيْن، ويذهبون. وكان هذا أسوأ.

صار ثمن حياتي رصاصة من هذه "الكتائب" التي تحوّلت وحشًا جديدًا. وكان هذا يؤلمني، لأنّنا كنّا نبذل جهودًا جبّارة في تعليم النّساء والأطفال، بخاصّة الذين كانت لديهم مشكلات في التّبوّل اللّاإراديّ من

كثرة الخوف والضرب من أهلهم. صار أهالي الطّلّاب أنفسهم يتدخّلون، ويريدون فرض ما يرونه مناسبًا لأطفالهم في التّعليم، على الرّغم من التزامنا تعليميهم الدِّين، إلّا أنّ هذا لم يكن كافيًا. كان شيء ما يتغيّر في النّظرة إلى الدِّين. جاءت "الكتائب" بقوانين دِينيّة، لم نسمع بها من قبل.

كنتُ امرأة وحيدة، ولستُ من أهل المنطقة، وفاعليّتي تضعف. وكنتُ مذهولة أمام تفاصيل الجهل والتّطرّف التي بدأت تفرضها "الكتائب" في مسألة الدِّين والحياة. "الكتائب الإسلاميّة" المسلّحة مثل النّظام،كانت تخافنا، نحن النّاشطين والإعلاميّيْن، وما كان يفعله النّظام بالنّاشطين والإعلاميّيْن فعلتْهُ "الكتائب العسكرية" تمامًا.

الآن، أعيش في تركيا مع زوجي وابني، لقد خرجتُ مُرغَمَة من "الغوطة"، بعد أن شهدتُ انكسار الحُلم، وصرتُ مُهدّدة بالاغتيال والخطف من الأطراف كلّها. ولكنّني سأظلّ ملتزمة قضيّتي، وأعمل من أجل نساء سورية في الدّاخل، وفي مخيّمات اللّجوء.

الرّاوية الرّابعة

اسمي الحركيّ "زين". كنتُ في العشرين من عمري، أدرس في كُلّيّة التّربية عندما بدأت الثّورة. خرجتُ في التّظاهرات، وشاركتُ في الهتاف مع الطّلّاب في ساحات جامعة "حلب" من كُلّيّات الطّبّ والهندسة والعلوم. كنتُ حينذاك في حالة غضب شديد ممّا حصل لأطفال "درعا"، وبعد حادثة قَتْل الطّفل حمزة الخطيب(*).

كانت الأيّام الأولى للثّورة أعظم ما عشتُهُ في حياتي، عندما هتفتُ في الشّارع: سورية بدّها حرّيّة!

في تظاهرة "حَيّ الفرقان" في شهر آذار ٢٠١٢، رفعتُ وأصدقائي المتظاهرين شعار "حرّيّة آزادي"(**)، وطالبْنا بإطلاق سراح المعتقلين. جاء أفراد الأمن وقوّات حفظ النّظام مدجَّجين بالأسلحة، وضربونا بالعصيّ الكهربائيّة، فركضْنا، واختبأنا في المباني القريبة وهتفْنا: "الشّعب والجيش إخوة"، فأطلقوا علينا الرّصاص، وقُتل "أنس سمو"(***)، وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها شخصًا يُقتَل أمامي. بعد ذلك، لم أتركْ تظاهرة إلّا

---

*) حمزة الخطيب: طفل من مدينة درعا، في الثّالثة عشرة من عمره، اعتقلَهُ حاجز أمنيّ، ثمّ سُلِّمَ جثمانه إلى أهله بعد فترة، وعليه آثار تعذيب عنيف، منها كَسْر رقبته وقَطع عُضوه التّناسليّ.

**) آزادي: تعني حُرّيّة باللّغة الكرديّة.

***) طالب جامعيّ كان يدرس في المعهد الهندسيّ بجامعة حلب. استُشهد برصاص قوّات الأمن في ٢٠١٢/٣/٢٨ قرب جامع سعد.

وكنتُ أشارك فيها، في أحياء "بستان القصر" و"صلاح الدِّين" و"سيف الدّولة". أنا من حَيّ "طريق الباب"، ولم أتظاهر في حارتي حتّى لا يعرفني أحد، ويضايق أهلي. في التّظاهرات، كان معنا ثلاثة طلّاب من كُلّيّة الطّبّ يُسعفون الجرحى، اعتقلَهم الأمن، وبعد خمسين يومًا من اعتقالهم، وُجدَت جثثهم محترقة ومَرميّة قرب حاوية في شارع في منطقة "الزّهراء"، وهم "باسم أصلان، حازم بطّيخ، ومصعب برد". لم يكن مسموحًا حتّى التّعاطف الإنسانيّ مع المتظاهرين الجرحى!

قمْنا بنشاطات سِلْميّة وتعبيريّة، وزَّعْنا المنشورات على طلّاب الجامعة، نشرح لهم فيها فكرة الثّورة. بعد مجزرة نهر "قويق"(*)، صبغْنا النّهر باللّون الأحمر احتجاجًا، بعد أن وجد الأهالي جثثًا مَرميّة في النّهر، تعود لأبنائهم الذين كانوا معتقلين.

تدرّبتُ على التّمريض والإسعافات الأوّليّة لإنقاذ الجرحى في التّظاهرات. كان "الجيش الحُرّ" قد دخل منطقتنا في الشّهر السّابع من ٢٠١٢، وكانت الكتائب قادمة من ريف "حلب"، مثل "لواء التّوحيد" الذي قاده عبد القادر صالح(**). بدأتْ طائرات النّظام تقصف مدينة "حلب". نزح أهلي مع عائلات كثيرة، فرفضتُ النّزوح، والتحقت بمشفًى ميدانيّ من أجل إسعاف الجرحى، كان هذا خارجًا عن المألوف والتّقاليد، إذ لا يجوز لفتاة أن تبقى خارج بيت أهلها. أنا من بيئة محافظة ومتديّنة، لكنّني أصررتُ على البقاء في مشفى دار الشّفاء في "حَيّ الشّعّار".

---

*) وُجدتْ ١٠٠ جثّة مَرميّة في حوض نهر قويق الواقع في حَيّ بستان القصر بحلب في ٢٠١٣/١/٢٩.

**) عبد القادر صالح من مُؤسّسي لواء التّوحيد أحد ألوية الجيش الحُرّ. لُقّب بحجّي مارع، لأنّه وُلد في مارع عام ١٩٧٩ بريف حلب، وقُتل بغارة جوّيّة لطيران نظام الأسد عام ٢٠١٣.

كان المشفى نقطة اشتباك وخطّ جبهة، كان الرّصاص يخترق غرفة الإسعاف التي كنتُ فيها طوَال الوقت، لأنّ النّظام كان يحاول استرجاع المنطقة، على الرّغم من ذلك، جاءنا كُثُرٌ من المتطوّعين والمتطوّعات. لم تكن الاتّصالات متوافرة، وكنتُ أنام في المشفى. بعد مجازر القصف، كانت تصل إلينا أشلاء النّاس، ولم نكن نقدر على المشي في ممرّات المشفى، بسبب الجثث والجرحى، كنّا نقفز فوق الجثث، لنمرّ. كنتُ أذهب مرّة في الأسبوع إلى بيت أهلي المهجور، لأستحمّ، ثمّ أعود مباشرة.

بعد اشتداد القصف، صارت أيّامنا كلّها مجازر، صرنا نضع الجثث على الرّصيف أمام المشفى، صوّرتُ جثثًا مجهولة الهويّات، واحتفظتُ بها. كنّا ندفنها، ونُدوّن اسم المكان الذي دُفنتْ فيه بجانب كلّ صورة حتّى يتمكّن الأهل من معرفة قبور أولادهم عندما يأتون بعد القصف للسّؤال عنهم. كنّا نفعل أشياء غريبة، بخاصّة مع الجثث الممزّقة. نحاول تسليم الأهالي جثث أبنائهم بطريقة لائقة. نُخيّط أعضاء كلّ جثّة، ونجعلها تبدو بشكل إنسانيّ. أوّل مرّة خيَّطتُ لحم بشر، كان لجثّة رجل ثمانينيّ، أمعاؤه خارج جسده، والطّبيب قرّر ألّا يُسلِّم جثّته إلى أهله في هذه الحال، حتّى اللّحظة لا أعرف ولا أستطيع وصف شعوري، لا أظنّ أنّ هناك لغة قادرة على التّعبير عن وصف ما حدث، أمّا عن مشاعري وما حصل لي، فأنا لا أجرؤ حتّى اللّحظة على التّفكير بها! فكّرتُ حينذاك فقط كيف يمكننا مساعدة النّاس وإنقاذهم. عندما كانوا يأتون بجثث الأطفال المقطوعة الرّؤوس، كنتُ أرتجف. أتماسك في النّهار في أثناء العمل، وأبكي طوال اللّيل، ولا أنام، فالقصف لا يتوقّف، والمجازر الحاصلة تجعلنا كلّنا على أهبة الاستعداد. كنّا نتناوب على النّوم ساعات قليلة في المشفى.

كان المشفى بناء مؤلّفًا من سبع طبقات، قُصفَتْ كلّها، وبقينا في الطّبقة الأولى. وفي نهاية ٢٠١٢ قُصف المشفى بشكل غير مسبوق، ودُمّرَت الطّبقة المتبقّية، وقُتلتْ صديقتي "بشرى شيخو" المتطوّعة معي، وكثيرون من كوادر المشفى. عشتُ فقط بمحض المصادفة، فقد كنتُ على خطّ الجبهة، ورأيتُ الطّائرة عندما ضربت الصّواريخ الفراغيّة. مات أربعة وثلاثون شخصًا، وظللْنا ننتشل الجثث لأربعة أيّام. لقد انتشلتُ أشلاء أصدقائي بيديّ!

كان المشفى بمثابة بيتنا الجديد، والطّاقم كلّه مثل عائلة، وقد مات أفراده كلّهم. كنتُ في حال انهيار، وبكاء لا يتوقّف، ولم أعرف ما أفعل، لأنّني عندما فكّرتُ في المشاركة في التّظاهرات، لم أتخيّل أن ينتهي الأمر بنا أن نعيش المجازر اليوميّة.

مع ذلك، استمرّ مَنْ بقي في العمل، وانضمّ إلينا متطوعوّن جدد، عملنا على مدار أربع وعشرين ساعة. حقيقة، كلّ ما كنّا نفعله أنّنا نُلملم الأشلاء، ندفن الموتى، ونعالج الجرحى، ولا نفكر في أيّ أمر آخر! صارت شعارات الحُرّيّة والكرامة التي هتفْنا بها في تظاهراتنا السِّلْميّة باهتة أمام قصف الطّيران! كنتُ ألهث من شدّة التّعب والعمل. مرّة، أُتي بجريح من جماعة النّظام، وكان من "النّبك"، اهتممتُ به، وأمّنتُ له التّواصل مع أهله، ولم أفكّر للحظة في أنّني أكرهه، لكنّ "الكتائب" أخذتْهُ. كنتُ أهتمّ بأيّ جريح، والنّاس كانوا يشتمون النّظام و"الجيش الحُرّ"، لأنّ أولادهم قُتلوا، وبيوتهم هُدّمتْ، و"الجيش الحُرّ" دخل أحياءهم، وشرّدهم منها. كنتُ أحاول تهدئتهم ومساعدتهم، فقد كانوا فقراء، خسروا كلّ شيء.

انتقلتُ للعمل في مشفى آخر بحيّ "الهَلك" الواقع على خطّ جبهة.

كانت الاشتباكات بين الطَّرَفَيْن عنيفة، والقنّاصة ينتشرون في كلّ مكان. بقيتُ هناك حتّى الشّهر الخامس من عام ٢٠١٣، وكنتُ أضطرّ للتّنقّل بين مشافٍ عدّة حسب الحاجة لوجودي، وبقيتُ هناك حتّى عرفتُ أنّني قُبلتُ في دراسة ماجستير التّربية وعلم النّفس في جامعة "حلب". قرّرتُ الخروج إلى منطقة للنّظام عبر أحد المعابر، ويُسمَّى "المشارقة"، وهو المعبر الوحيد بين النّظام و"الكتائب المعارضة". كان الوصول إلى هناك خطرًا، لكنّني أصررتُ على الخروج، وتقديم أوراقي الرّسميّة للتّسجيل، وإكمال تعليمي الجامعيّ العالي. خرجتُ من مناطق "الجيش الحُرّ" إلى مناطق النّظام، وأنجزتُ أوراقي المطلوبة كلّها. بدأتُ أستعدّ للعودة إلى عملي في المشفى. كانت الحرب مستعرة، لكنْ، بطريقة ما كانت الحياة مستمرّة حتّى ذلك الوقت في حلب!

في طريق عودتي إلى عملي التّطوعيّ في المشفى، كان عليّ اجتياز شارع فقط لعبور الحاجز الأخير، لأنتقل من منطقة النّظام إلى منطقة المعارضة. أنا محجَّبة، لكنّني لستُ منقّبة، حجابي عادي. وضعتُ نقابًا حتّى لا يتعرّف إليّ عناصر الحاجز. خفتُ أن يكونوا على علم بنشاطاتي. في محيط الحاجز، رأيتُ نساء ورجالًا. خافوا منّي، ثمّ اعتقلُوني، واعتقدوا أنّني أُخفي حزامًا ناسفًا. كان هذا في يوم ٢٠١٣/١٠/٣٠. النّساء أمام الحاجز كنّ جزءًا من عناصره. افترضتُ أنّ تعاطُف النّساء معي سيكون قويًّا، لكنّهنّ ضربنَني بوحشية، وانضمّ الرّجال إليهنّ، وأطفؤوا سجائرهم في جسدي، وكانوا يقولون إنّني إرهابيّة. الحاجز عبارة عن غرفة كبيرة. أدخلُوني إليها، وقالوا إنّهم سيغتصبونني واحدًا واحدًا. كان أحدهم يضربني، والآخر يركلني، وآخر يُعرّيني من ثيابي، وآخر ينام فوقي وأنا عارية تمامًا، ويقرصني بعنف في أنحاء جسدي، بخاصّة بين فخذَيّ، كان ساديًّا، يتلذّذ بصراخي

وهو يكاد يخنقني بيَدَيْه. ظلّوا طَوال اللّيل يفعلون هذا كلّه، ولم يسمحوا لي حتّى بالتّكلّم، ثمّ أخذوني إلى فرع الأمن، وطَوال الطّريق أيديهم على جسدي، يعبثون بي بطريقة عنيفة وبذيئة، كان تركيزهم على ما بين فخذَيّ. كنتُ أعضّ على شَفَتي، وأنكمش، ثمّ أنكمش، وأحاول لَمْلَمَة نفسي! كنتُ أريد التّلاشي! لكنّهم لم يتوقّفوا حتّى وصلنا إلى باب فرع الأمن! لا أعرف وصف شعوري حتّى الآن! لقد انتهكوني بكلّ ما يمكن تخيُّله من وحشيّة! وهؤلاء لم يكونوا من رجال الأمن، كانوا من "الشّبّيحة"(*)، نساء ورجالاً، ثمّ استلموا أموالًا أمامي من فرع الأمن العسكريّ في "حلب الجديدة". كانت هذه مكافأتهم، لأنّهم قبضوا عليّ.

في فرع الأمن، طمَّشوني، وأنزلوني طبقات عدّة تحت الأرض، وضعوني في غرفة صغيرة جدًّا، فيها عشر نساء مصابات بالجَرَب والقَمْل، ولم يسمحوا لنا بالخروج إلى الحمّام سوى مرّة واحدة. الأصعب أنّني كنتُ أشمّ من القماش الذي يغطّون به عينَيّ رائحة دم، كانت رائحة زنخة وخانقة! أرادوا أن يعرفوا أسماء العاملين في المشفى من أطبّاء وممرّضين، وأن أتعاون معهم، وأعمل لمصلحتهم. لم أوافق، فاستمرّوا في تعذيبي.

كانوا يُعلّقون الشّباب أمامنا مثل ذبائح. الشّباب على قيد الحياة، وأجسادهم متشقّقة ومفتوحة الجروح، وكلّهم دماء، ولا ملامح لهم. أحدهم كان مطمَّشًا، وكنتُ أمرّ به عندما أعود من جلسة تعذيب، لقد أحسّ بأنّ

---

*) الشّبّيحة: من كلمة شبح، ومفردها شبّيح، وقد اختلف معناها منذ بدء ظهورها في منتصف ثمانينيات القرن الماضي في سوريا، كانت حينذاك تُطلق على مجموعة عصابات، تقوم بترهيب النّاس والاعتداء عليهم. استُخدمت بداية كظاهرة اقتصاديّة في سرقة السّلاح والموادّ الاستهلاكيّة وتهريبها، ثمّ اختلف معنى المفردة وتطوّر، لتدلّ على مجموعة من المرتزقة الذين يستخدمهم الأمن لترهيب النّاس وتخويفهم، تعمل خارج الإطار القانونيّ والمؤسّساتيّ، بخاصّة مع بدء الثّورة السورية، حيث تمّ استخدامها بكثرة من قِبَل النّظام السّوريّ وأجهزته الأمنيّة لقَمْع الحراك الشّعبيّ.

فتاة تمرّ بجانبه، فقال بهمس: "ادعيلي"! سمعه السّجّان، فتعرّضنا معًا للعقوبة، حيث أدخلوني في الدّولاب، وصار رأسي عند ركبتَيّ، وضربوني بعنف بكابلات من البلاستيك والنّحاس. لقد تمنّيتُ الموت، قالوا إنّ الموت راحة وحُلم بالنّسبة إليّ!

مرّة، أتوا بشابّ، وجاء بي المحقّق، وضعوني أمامه، قال له المحقّق، هذه البنت من جماعتكم، وإذا لم تعترف، فسنغتصبها أمامكَ، فاعترف الشّابّ، وهكذا فعلوا مع شباب آخرين، عرفوا أنّني أعمل في المشفى من امرأة حلبيّة وَشَتْ بي، فاستخدموني أمام الشّباب لجَعْلهم يعترفون، وهدّدوهم باغتصابي، وكنتُ أرتجف رعبًا في كلّ مرّة.

عندما لم أقبل التّعامل معهم، أتوا بشابّ من "الجيش الحُرّ"، وأمسكوا برأسي، لأنظر إليه، وأردتُ ألّا أنظر، كان عاريًا. فضربني الجلّاد بسوط، وقال: إذا لم تنظري، فسوف أغتصبك. لقد رأيتُهم يغتصبون الشّابّ. وجعلوني أُحدِّق في وجهه وهو يُغتَصَب. رأيتُ شبابًا فَقَدُوا عقولهم، كان أحدهم طبيبًا، عذّبوه بالكهرباء، جُنَّ تمامًا، وآخر فَقَدَ السّيطرة على جسده، وصار يتغوّط ويتبوّل على نفسه.

حاولتْ إحدى السّجينات الانتحار بخنق نفسها بحجابها. كانت تشدّ الحجاب على رقبتها بطريقة جنونيّة، كانت اعتُقلت مع أمّها. أطلقوا سراحها، وأبقوا على الأمّ، وكانت التّهمة أنّ أولادها مع "الجيش الحُرّ"، ولن يطلقوا سراحها حتّى يسلّموا أنفسهم.

بقيتُ في سجن "حلب" لشهر، ثمّ نقّلوني بين أفرع عدّة. في فرع الأمن العسكريّ في "حماة"، تعرّضتُ للتّعذيب والأهوال نفسها، ثمّ أخذوني

إلى الشّرطة العسكريّة في "حمص"، وفي أثناء ذلك كانوا يضعونني مع المجرمات واللّصّات والقاتلات وبنات الدّعارة.

وصلوا بي إلى مطار "الشّعيرات"، ومن هناك، نقلوني بطائرة إلى مطار "المزّة" في دمشق. كان معي امرأة واحدة فقط، ورجال معتقلون عُراة، مقيّدون بسلسلة حديد طويلة ومربوط بعضهم ببعض، ويضربونهم بشكل مستمرّ.

أخذوني إلى فرع الأمن في دمشق، وأنزلوني طبقات عدّة تحت الأرض، وعندما عرفتُ أنّني في "فرع فلسطين"، قلتُ إنّني سأموت. كنتُ أعرف الأهوال التي تحصل فيه، ومَنْ يخرج منه حيًّا، يكون الأمر معجزة.

كانت مساحة الزّنزانة مترَيْن في متر، تكدَّسْنا فوق بعضنا بعضًا، نتناوب على الجلوس والوقوف والنّوم، أطعمونا أكلًا مليئًا بالأظفار وكرات الشّعر. لا يوجد ضوء، ولا هواء للتّنفّس. مرضتُ، وغبتُ عن الوعي لأيّام عدّة، كانت البنات يطرقنَ الباب، ويطلبنَ النّجدة لإنقاذي، فيأتي السّجّان، ويقول لهنّ: عندما تموت، أخبرونا حتّى نرميها بالزّبالة. تركونا نتغوّط، ونتبوّل في ثيابنا، ولم يسمحوا لنا بالخروج، كنّا في حال إسهال دائم، وفي أثناء فترة الحيض، كان الوضع كارثيًّا، لا توجد فوط صحّيّة، فمزَّقْنا ثيابنا لاستخدامها كبديل. كانوا يجعلوننا نشرب الماء الذي يضعون فيه الكافور كمثبّط جنسيّ، فنزفتْ فتيات عدّة بسبب ذلك.

مرّة، جاؤوا بمعتقَلَة من "درعا"، ولم نعرف أنّها كانت مُغتصَبَة وحاملًا، أخفتْ ذلك عن الجميع، اعتقدْنا أنّها مريضة، ولم تتوقّف عن التّقيّؤ. بعد ذلك، أخبرتْنا أنّها اغتُصبَتْ في فرع الأمن ٢١٥، كانت حاملًا في الشّهر الثّالث. حاولتْ إجهاض نفسها، فضَربتْ بطنها بعنف، وأُصيبتْ

بنزيف، وسقطتْ على الأرض، لا تتحرّك. أتى السّجّان بمعتقَلَة من زنزانة أخرى، وهي ممرِّضة توليد، كانت المرأة تُجهض، والكاميرا في الزّنزانة تُصوِّرنا بشكل دائم. كان الأمر مُخزيًا أن تكون مكشوفة في هذا الوَضْع المحرج من العُري!وضعنا عليها غطاء وهي تُجهض، ووقفْنا أمام الكاميرا حتّى لا يراها أحد، كنّا عشرين امرأة، وأجهضت المرأة أمامنا، ولم تتوقّف عن الصّراخ والبكاء. لم يُعطوها حتّى حبّة مسكّن، ولا أيّ شيء للنّظافة بعد الإجهاض.

التّحقيق والتّعذيب لم يتوقّفا معنا، كدتُ أُصاب بالصّرع، لأنّهم استمرّوا في تعذيب الشّباب أمامنا، أضربْنا عن الطّعام، وعرفوا أنّني حرّضتُ الموجودات على الإضراب، فوضعوني في زنزانة منفردة، ورأيتُ لأوّل مرّة القَمْل يمشي على الأرض. لقد أكل القَمْل من جسدي. رائحة القذارة في المنفردة قاتلة. ومقابلي تمامًا أجساد الشّباب، روائحهم خانقة، لأنّ جروحهم متفسّخة، وكان السّجّانون يضعون كمّامات. عندما كنتُ في المنفردة، عرفتُ أنّ أحد الشّباب مات تحت التّعذيب، لأنّ المحقّق ضرب رأسه بباب زنزانتي الحديد. سمعتُ صوت كسر رأسه، ظلّ يضربه حتّى سقط الشّاب أرضًا، وسمعتُ صوت غرغرته قبل أن يموت، وتسرّب دمه من تحت الباب إلى زنزانتي، كانوا يضربون رؤوس الشّباب بجدران الممرّات وبأبواب الحديد، كانت جدران الممرّات كلّها بقع دماء من رؤوس الشّباب.

أُصبتُ فعلاً بالصّرع. كنّا نسمع لهاث السّجّانين والمحقّقين المتعبين لكثرة تعذيبهم الشّباب، لقد عرفتُ أنّ كُثُرًا منهم يموتون، فبعد حفلات التّعذيب، في المساء يأتون، ويقول أحدهم: شيلوهم، هدون خالصين، فأرتجف!

في ذكرى الثّورة، فعلوا شيئًا غريبًا. كانوا أكثر استفزازًا ووحشيّة. عرّوا

الشّباب، ووضعوهم في الممرّات، وانهالوا عليهم ضربًا عنيفًا، وهم يصرخون: هذا من أجل ذكرى ثورتكم!

بعد خمسة أشهر، نقلوني إلى سجن "عدرا". بقيتُ هناك خمسة شهور أيضًا.كان الوضع أفضل منه في "فرع فلسطين"، أجبرونا على أن نبصم لانتخاب بشّار الأسد مرّة ثانية، فرفضتُ المشاركة، وقلتُ لن أبصمَ، وضعوني في زنزانة منفردة عقابًا لي.

خرجتُ برشوة من المحامي الذي وكّلَهُ أهلي. المال كان كفيلًا بكلّ شيء، وكنتُ منهارة نفسيًّا وجسديًّا. في السّجن، انقطعتُ عن تناوُل أدويتي، وأُصبتُ بمرض تضخّم الغدّة، وتضخّم في الثّدي الأيمن، ونشأت عندي مشكلات في المجاري البوليّة، والتهابات نسائيّة، وانقطعت دورتي الشّهريّة طَوال فترة السّجن. تعالجتُ بعد خروجي حتّى عادت دورتي طبيعيّة، لكنّ فقر الدّم والهزال استمرّا.

عدتُ إلى "حلب"، وسكنتُ في حَيّ "الشّعّار"، وعلى الرّغم من ضغط أهلي، لأخرج من المدينة، إلّا أنّني رفضتُ، وبدأتُ العمل عام ٢٠١٥ منسّقة ميدانيّة لمنظّمة إغاثيّة، من أجل توزيع الطّعام والأدوية على النّساء والأطفال. كان القصف يشتدّ يومًا بعد يوم. كنتُ أذهب إلى المشفى للمساعدة في الإسعاف، وفي الوقت نفسه، أُدرِّس الأطفال في مدرسة ميدانيّة. صار القصف جزءًا من حياتنا، وجيش النّظام يقترب كلّ يوم باتّجاه "حلب"، وتوقّعْنا أن نُحاصر. أهلي كانوا محاصرين من قِبَل "داعش" في قرية قرب مدينة الباب، فهربوا من "داعش"، ودخلوا "حلب"، لم يعودوا إلى بيتنا، لأنّه كان مدمّرًا. حارتنا كلّها كانت مُدمّرة ومهجورة. كانت إحدى صديقاتي انضمّتْ إلى "داعش"، وحاولت التّواصل معي

لإقناعي بالانضمام إليه، فصُدمتُ ممّا فعلتْهُ، وبقيتُ وحدي. كانت مؤمنة بأنّ "داعش" سيأخذ حقّنا من النّظام. كنتُ ضدّها في هذا، "داعش" عدوِّي مثل نظام الأسد.

وجدْنا أنا وصديقة أخرى بيتًا، سكنّاه وحدنا، تعرّضْنا لضغط كبير، لأنّنا فتاتان، ونعيش وحدنا. في الواقع، كان هناك تمييز ضدّنا كنساء، ففي أثناء عملي في المشفى، كان أحد الأطبّاء صاحب لحية طويلة، ضدّ فكرة وجودنا نحن المتطوّعات في المشفى، ويقول لنا إنّ مكاننا في بيوتنا، وأنّه لا يجوز وجود النّساء والرّجال في مكان واحد. وقف أطبّاء معنا ضدّه، ودعمونا. نحن عملنا مثل الشّباب، ما عدا حمل السّلاح، قدْنا السّيّارات إلى خطّ الجبهة، ورابطْنا هناك لإسعاف الجرحى، وإنقاذ المصابين، المقاتلون على خطّ الجبهة رفضوا وجودنا. كنتُ وسبع متطوّعات لا نهدأ ليلاً ولا نهارًا. ولكنْ، بعد فترة، بقينا أنا ومتطوّعة واحدة فقط. وعندما سكنتُ أنا وصديقتي وحدنا، تعرّضْنا لمضايقات، وكان عناصر "جبهة النّصرة" يستوقفوننا على الحواجز، لأنّني أرتدي بنطلون الجينز، علمًا أنّني كنتُ أضع الحجاب، لكنّهم أرادوا أن نرتدي اللّباس الأسود الكامل مع النّقاب، وكنتُ أرفض، وكانوا يعترضوننا ونحن نقود السّيّارة، وقالوا إنّ قيادتنا السّيّارة حرام، وكنّا نسمع هذا الكلام لأوّل مرّة في سورية. حاولوا نَزْع عَلَم الثّورة، وقالوا إنّه عَلَم الكَفَرَة، وأرادوا أن نضعَ العَلَم الأسود المكتوب عليه: "لا إله إلّا الله"، فرفضْنا. قلتُ في إحدى المرّات لأحد العناصر بعد أن اعترضونا: هذا العَلَم هو عَلَم بلدي، وأنا حملتُهُ على دمي، أين كنتُم أنتُم عندما كنّا نحمله؟!

في بداية الثّورة، انخرطت النّساء في العمل والحراك بشكل كبير. عشتُ أنا وفتيات غيري مستقلّات. عشتُ وحدي، وكنتُ أعمل وأتدرّب

على مهارات جديدة في الحياة. كنتُ ضدّ السّلاح، لكنّني أعرف نساء كثيرات حملنَهُ. لاحقًا، تغيّرت الأمور مع سيطرة "الكتائب المسلّحة".

بدأ حصار "حلب" في آخر الشّهر الخامس من عام ٢٠١٦، وبعد الحصار، صار القصف أكثر عنفًا، كانت أسوأ أيّام حياتي في الحرب. رأيتُ النّاس يجوعون، ولم أستطع مساعدتهم. لن أنسى وجه المرأة السّبعينيّة التي أوقفتْني، ترجوني إعطاءها الطّعام، قالتْ لي إنّها وبناتها الأربع لم يأكلنَ منذ يومَيْن. تمّنيتُ حينذاك أن نموت كلّنا، وننتهي من هذه الآلام. الأطفال كانوا يبحثون في حاويات القمامة الفارغة عن الطّعام. فُقدتْ الموادّ الطّبّية، وتحوّلت الملاجئ نقاطًا طبّيّة. في الفترة الأخيرة في النّصف الثّاني من ٢٠١٦، مات النّاس بكثرة بسبب نقص الأدوية، وازدادت حالات البَتْر، نتيجة نقص موادّ طبّيّة بسيطة. أجريْنا العمليّات الجراحيّة في أضواء الموبايلات، لأنّ الكهرباء كانت مقطوعة بشكل دائم، والمياه انقطعت، والدّماء تيبّستْ، لأنّنا لم نستطع تنظيف أرض المشفى، وكانت الرّائحة خانقة. عقّمْنا الأدوات الجراحيّة بالنّار. في الحصار، اختلف نوع القصف. كانت القنابل الارتجاجيّة مثل زلزال، الأرض تهتزّ حولنا، مهما كنّا بعيدين من مكان القصف، والبراميل التي كانت تُلقَى علينا أُضيف إليها الكلور، فتزايد عدد الضحايا، كنتُ أشمّ رائحة الكلور، وعيناي تدمعان وتحمرّان، وجِلْدي كذلك، كنتُ أهرشه دائمًا بعد القصف لأيّام. كنتُ أستعين بالأوكسجين بداية، ثمّ فَقَدْنَاه. أمّا الأكل، فقد اختفى. وُجد بعض البرغل والعدس، ولكنْ، لا توجد نار للطّهو. أحرق النّاس ثيابهم، ليطهوا البرغل. كان هناك رجل اسمه أبو عبدو، استخرج المازوت من الأدوات البلاستيك، لكنّه كان مادّة مسمّمة، وهو نفسه مات في أثناء محاولة استخراجه. كنتُ آكل ما يتوفّر من البقدونس، وأضع عليه الملح، من دون زيت. طعامنا كلّه كان

من دون زيت، في الشّهرَيْن العاشر والحادي عشر، وصل النّاس إلى حافّة الانهيار. رأيتُهُم في الشّوارع، وجوههم صفرٌ متعبة، هائمين مثل أشباح، والأطفال عانوا من فقر دم وسوء تغذيّة، والأمّهات جفّتْ أثداؤهنّ، ولم يستطعنَ الإرضاع، لأنّهنّ لا يأكلنَ. مرّة، جاؤوا برجل إلى المشفى، كانت أضلاعه نافرة، ويبدو كهيكل عظمي، وقد مات جوعًا.

كان بيتي أنا وصديقتي في حَيّ "الشّعّار"، وكان النّظام سيطر على حَيّ "الصّاخور" وحَيّ "مساكن هنانو". كنتُ أشعر بالرّعب، ولا أنام، لأنّني خفتُ أن أُعتقَل ثانية، إن دخل النّظام، فضّلتُ الموت تحت القصف على العودة إلى السّجن. الأبنية حولي مُدمّرة، والبناء الذي أعيش فيه كان نصفه مُدمّرًا. كنتُ أحمل جهازًا لاسلكيًّا بيدي ليلاً نهارًا، للتّواصل مع الدّفاع المَدَنيّ والإسعاف، وأتابع حركة الطّائرات والقصف، كنتُ على حافّة الموت قَهْرًا وكَمَدًا؛ من جوعنا وموت النّاس أمامي والقذائف التي تتساقط بغزارة، والموت الذي تمنّيتُهُ ولم يأتِ! كانت الشّظايا تتساقط فوقي، تدخل من النّوافذ، ولا أتحرّك من سريري. أستمع لصوت الموسيقى العالي، ولا أكترث. انتظرتُ الموت السّريع. كرهتُ فكرة انتظار الموت، لذلك كنتُ أُشغِّل الموسيقى عندما كنتُ أعود إلى بيتي. صار الأمر من عاداتي الجديدة.

كلّما كان النّظام يسيطر على حَيّ جديد، كان النّاس ينزحون منه بشكل جماعيّ. كتل بشريّة هائلة كانت تتدفّق إلى حَيّ آخر. يحملون طعامهم فقط. نزحتُ معهم. في أسبوع واحد، سكنتُ ثلاثة بيوت، فعندما كان النّظام يستولي على حَيّ، أغادره إلى حَيّ آخر، ثمّ أعود إلى النّزوح من جديد ضمن الكتلة البشريّة المتحرّكة في "حلب". كنّا نركض والقذائف فوق رؤوسنا، وقوات النّظام تتقدّم.

في اليوم الأخير وقبل خروجي النّهائي من "حلب"، أردتُ إيصال معونات غذائيّة إلى مجموعة عائلات، كانت على وشك الموت جوعًا. كنتُ أركض في منطقة فيها قنّاصة، فرأيتُ سيّارة مشتعلة إثر قذيفة سقطتْ عليها، وفيها ناس يحترقون. لم أتوقّف لأُسعفهم، فقد كانوا موتى، وأنا أعرف أن هناك أطفالًا جائعين في انتظاري. عندما وصلتُ إلى مكان وجود العائلات، وقبل أن أُسلِّمها الطّعام، سقطتْ قذيفة فوقنا. في الدّقائق العشر الأولى، لم أرَ سوى الدّخان الأسود، ثمّ بدأ ما حولي يتّضح شيئًا فشيئًا من جثث وأشلاء. عشتُ من جديد! وقلتُ في نفسي: يا للكارثة! لقد عشتُ! أمضيتُ ثلاثة أرباع السّاعة أبحث عن سيّارة لنقل الجرحى. كان المصابون كُثُرًا. لن أنسى ذلك اليوم ما حييتُ! مات الجرحى أمامي، ولم أستطع إنقاذهم. كانوا أفراد عائلات جائعين، تحوّلوا فجأة خلال دقائق أشلاء متناثرة أمامي! حدث هذا في حَيّ "أغيور" في الشّهر الحادي عشر من عام ٢٠١٦.

كان القصف العنيف عادة يتّبعها عناصر النّظام قبل دخوله واستيلائه على الأحياء، يُحرِّقون ويُدمِّرون كلّ شيء، ثمّ يدخلون، عرفتُ أنّهم سيُسيطرون على حَيّ "أغيور"، فانتقلْنا كلّنا إلى منطقة "الزّبديّة". اجتمع النّاس كلّهم هناك، وكانت النّقطة الأخيرة التي خرج الحلبيّون منها قبل أن يستولي النّظام على "حلب" نهائيًّا.

ظللْنا لشهر في الملاجئ، بكيتُ من شدّة قذارتي. لا يوجد ماء ولا إنترنت، ولم أستحمّ لشهر كامل! كانت هناك بئر، فخُصّص لكلّ عائلة دلوًا ماء فقط، وكلّ يوم وجبة برغل مسلوق، هذا في أحسن الأحوال، لأنّ هناك عائلات كانت تبقى ليومَيْن وثلاثة بلا طعام، علمًا أن العائلات كانت

تساعد بعضها بعضًا. كان القصف يشتدّ ويعنف، ونحن ننتظر الموت. حتّى الآن لا أُصدِّق كيف بقيتُ على قيد الحياة. لقد خرجتُ عشرات المرّات من تحت الأنقاض والرّكام، وانتشلتُ جثث أصدقائي، كنتُ ضائعة!

اجتمعنا مجموعة شباب وفتيات، وكنّا منذ بداية الثّورة أسّسنا "تجمّع ثوّار حلب"، وشعرْنا بمسؤوليّتنا تجاه المَدَنيّيْن المحايدين، الذين لم يتدخّلوا في كلّ ما حصل. وقلنا لـ "الكتائب" إنّ النّاس يريدون الخروج والعيش. أردْنا إنقاذ مَنْ بقي من الأحياء، ذهب اثنان من مجموعتنا، واجتمعا مع "كتائب الزّنكي" و"أحرار الشّام"، وأخبراهما بما نريد. كان الأمر يترافق مع ترتيب دوليّ لخروجنا، كنّا فعلاً نريد خروج المَدَنيّيْن، لأنّ وضعنا يختلف عن بقيّة النّاس في المناطق المحاصرة الأخرى. لم تكن عندنا معابر، و"حلب" مدينة لا توجد فيها أرض زراعيّة، والنّاس كادوا يموتون من الجوع فعلاً، فضلاً عن القصف، وكانت المدينة فارغة، ونحن نتجمّع في منطقة محدودة، كأنّنا نتهيّأ للموت. تمّ الاتفاق دوليًّا على خروج المَدَنيّيْن، وعرفنا أنّ الحافلات الخضر ستأتي، لكن سيّارات الإسعاف سبقتْها لنقل الجرحى قبلاً، وجاءت جرّافات لتهدم السّواتر التّرابيّة، لتدخل سيّارات الإسعاف، وكانت هناك "ميليشيّات" إيرانيّة، أطلقت النّار على سيّارات الدّفاع المَدَنيّ، وأُصيب أصدقائي، فتوقّفت المفاوضات ليومَيْن. أخيرًا، بدأت القوافل البشريّة تخرج. ذلك اليوم سُمّي يوم سقوط "حلب"!

كان النّاس شبه مجانين، ولا يصدّقون أنّهم سيعيشون، وقد أحرق كُثُرٌ منهم بيوتهم قبل رحيلهم، أنا كنتُ في المشفى، ولم أخرج مع الدّفعات الأولى، بقيتُ أساعد الجرحى، وأعتني بصديقي في الدّفاع المَدَنيّ الذي أُصيب. خرجتُ بسيّارة إسعاف مع صديقي المصاب، ولم أركب حافلة

مع القوافل البشريّة، خفتُ أن أُعتقَل على أيٍّ من الحواجز التي كانت تحت إمرة الجنود الرّوس. أوقفوا سيّارة الإسعاف، وسمحوا لنا بالمرور. النّاس الذين كانوا يخرجون في الحافلات نصفهم من المصابين والجرحى.

وصلتُ مع صديقي إلى مشفى، وتركتُهُ مع زوجته، وذهبتُ باتّجاه الحدود. كنتُ أعرف أنّني خارجة من "حلب" نهائيًّا، وأنّ "حلب" ذهبتْ إلى غير رجعة. بكيتُ بحرقة، كما لم أبكِ منذ بداية ٢٠١١.

أقيم الآن في كندا، لم أتخيّل أنّني سأعيش لاجئة في بلد آخر، وأنا ما زلتُ أفكّر في "حلب". لكنّني الآن على قناعة تامّة، بأنّه لا توجد عدالة بشريّة، كلّ ما طالبْنا به قليل من الكرامة والحُرّيّة والعدالة، وكانت النّتيجة إبادتنا وتدمير بلدنا.

الرّاوية الخامسة

أنا ضحى عاشور. عمري اثنتان وخمسون سنة. عندما بدأت الثورة، كنتُ صحافيّة. كتبتُ في موضوعات عدّة، منها؛ "هل الحرب طائفيّة في سورية؟ دراسة عن الأكراد، المرأة في الثّورة، وقائع وتغييرات الحياة في سوريا، جنود الخدمة الإلزاميّة".

كنتُ أنتمي إلى حزب يساريّ معارض "حزب العمل الشّيوعيّ"(*). اشتغلتُ كقياديّة في الهيئة الاستشاريّة للحزب الذي أراد إسقاط النّظام. وفي عام ١٩٨١ في مؤتمرنا الأوّل جمّدْنا فكرة إسقاط النّظام، واستبدلنا بها شعار دَحْر الدّيكتاتوريّة. كانت لي خلافاتي مع رفاق الحزب، فقد أرادوا ثورة سياسيّة، على الرّغم من أنّنا اتّفقنا على أن تكون ثورتنا اجتماعيّة بحسب المفهوم "الماركسيّ"، والتي هي تغيير في علاقات الاقتصاد ونمط الإنتاج وتوزيع الثّروة للقضاء على الاستغلال بين الطّبقات الاجتماعيّة. أصدرْنا دوريّات عدّة في بداية الثّمانينيات؛ مجلّة "البروليتاريّ"، وهي نشرة داخليّة لأعضاء الحزب، يكتبون فيها، ويتداولونها بين بعضهم بعضًا، إضافة إلى جريدة سياسيّة شهريّة، اسمها "الرّاية الحمراء"، ومجلة "الشّيوعيّ" وهي مجلّة فكريّة.

تخفّيتُ عام ١٩٨٧، حيث بدأت حملة اعتقالات في حقّ حزبنا منذ

---

*) كان اسمه رابطة العمل الشّيوعيّ عندما تأسّس في منتصف السّبعينيات، ثمّ تحوّل إلى حزب العمل الشّيوعيّ، وقد كان من الأحزاب اليساريّة المحظورة.

عام ١٩٨٢. اعتُقل رفاق الحزب وأصدقاؤه والمتعاطفون معه، حتّى مَنْ يقرأ منشوراتنا وجرائدنا اعتُقل.

عشتُ باسم مستعار وهويّة مزوّرة، وعملتُ في معمل خياطة، لأؤمّن مصدر عيشي، وكنتُ أدرّس في البيوت. تجربة التّخفّي وعيشي في الأحياء الشّعبيّة والعشوائيّات، جعلتْني أتعرّف إلى حقيقة واقعنا السّوريّ. سكنتُ على أسطح الأبنية في غرف صغيرة وغير صالحة للعيش، وانقطعتُ عن الحزب أنا وصديقتي المتخفّية معي، وذلك بسبب الاعتقالات التي طاولت رفاق الحزب. كنّا مجموعة نساء، ونتوزّع على أماكن عدّة، ونعيش بشكل سرّيّ، وتابعْنا قراءاتنا ونشاطاتنا وحواراتنا. كنتُ أعمل لثلاث عشرة ساعة في معمل خياطة بأجر زهيد. لا يزورنا أحد في غرفتنا، ولا ندلّ أحدًا على مكاننا، واجتماعاتنا تُعقَد في أماكن مختلفة في كلّ مرّة، من دون أسماء، ومن دون أن نعيد الاجتماع في المكان نفسه مرّة أخرى. التزمتُ بتقاليد الأحياء الشّعبيّة وعاداتها في اللّباس، وامتنعنا عن استقبال أصدقائنا الرّجال، لكنّنا لم نضع الحجاب، على الرّغم من أنّ نساء الحارة كلّهنّ محجّبات. في إحدى المرّات، نسيتْ صديقتي إغلاق الباب جيّدًا، فاستيقظتُ في اللّيل على جلبة وضجّة. كان رجل دخل غرفتنا، وحاول اغتصابها، أُصيبتْ بالخَرَس مؤقّتًا، فصرختُ أنا، وجمعتُ النّاس حولنا. كان ما حصل مُؤشّرًا إلى صعوبة عيش النّساء وحيدات في حارات فقيرة وشعبيّة، لقد مررْنا بتجارب شبيهة أخرى، وهو أمر يختلف في البيئات الأكثر غنًى وتعلّمًا، كان علينا نحن النّساء أن نُخبّئ أجسادنا وأنفسنا ووجودنا حتّى نكون بمأمن، هذه الحوادث أغضبتْني، وجعلتْ قَهْري مضاعفًا، فقد كنتُ امرأة سياسيّة، وأعيش مُلاحَقَة ومُطارَدَة، وأعمل في حزب سرّيّ، ووضعي الاقتصاديّ والاجتماعيّ في الحضيض، وحُرّيّتي الشّخصيّة

معدومة. كنتُ مُقتَلَعَة من عائلتي وأهلي، لأنّهم أيضًا تحت الرّقابة الأمنيّة، ولا أستطيع الاتّصال بهم. إخوتي الثّلاثة معتقلُون لدى أجهزة الأمن، لأنّهم في الحزب نفسه، وعائلتي فقيرة. وكنتُ بدأت العمل عندما كان عمري ثماني عشرة سنة بعد البكالوريا، لأساعد أهلي، وعندما اعتُقل إخوتي قبل أن أُضطرّ للتّخفّي، حملتُ مسؤوليّتهم في السّجن، ولديّ إخوة لا يزالون صغارًا. خلال التّخفّي، لم أعد أهتمّ بإخوتي الصّغار وأمّي. مع ذلك، كنتُ سعيدة وراضية، لأنّني أيقنتُ أنّ ما أفعله هو النّضال من أجل إحلال قِيَم الدّيموقراطيّة في سورية. أذكر بعد سنوات، أنّني كتبتُ رسالة طويلة إلى ابنتي وأنا في السّجن، قلتُ لها: لقد فَقَدْتُ اليقين! غضبي كان لأنّني كنتُ أعمل على تغيير مجتمعي، وأناضل من أجل ذلك، وعلى المستوى الشّخصيّ، كنتُ مقيّدة في حُرّيّتي في أدقّ تفاصيلها.

من الصّعوبات التي عانيتُها في مطلع شبابي، أنّ عائلتي نفسها راقبتْني لأنّني فتاة، كان خالي يلاحقني وأنا ذاهبة إلى الجامعة، على الرّغم من استقلالي اقتصاديًّا، لكنّه كان يريد التّأكّد من أنّني في أثناء تحرّكاتي لا ألتقي برجال، علمًا أنّ حياتي كانت في عمل دائم، وكنتُ جدّيّة إلى درجة أنّني لم أجد وقتًا للالتفات إلى أيّ أمر شخصيّ، يحصل لفتاة في عمري للارتباط بعلاقة مع شابّ.

حياتي بين الطّبقات الشّعبيّة، وعلاقتي السّياسيّة بالنّخب والمثقّفين جعلتاني أفهم الحياة بشكل أفضل. كنتُ أرى الازدواجيّة بين ما يُقال وبين ما يُنفَّذ. فرفاقنا يعيشون حياة تقليديّة ضمن أطر الذُّكُوريّة في محيطهم العائليّ الخاصّ، إلّا أنّهم يتحدّثون في الحزب بشكل مختلف عمّا يعيشونه، بخاصّة فيما يتعلّق بقضايانا نحن النّساء وحُرّيّاتنا. كنتُ ضدّهم في

ازدواجيّتهم، لكنّني لم أترك الحزب، لأنّني فكّرتُ في أنّ التّناقض جزء من الحياة، وأنّنا سنصنع التّغيير تدريجًا.

في أثناء الحياة السّرّيّة، نشأتْ بين رفاق الحزب علاقات رفيعة وتشاركيّة وتعاونيّة، أحيانًا كنّا عندما لا نجد مكانًا، ننام فيه، نركب حافلة من الصّباح إلى المساء، وفي آخر اللّيل، نأوي إلى بيت أحد المعارف القريبين، وفي الصّباح نخرج بسرعة قبل أن يستيقظ النّاس.أحيانًا لم نكن نملك أجرة الحافلة، كّنا فقراء جدًّا، ومُطارَدين، لكنّ الرّوح الرّفاقيّة عالية.

نظّمتُ قراءاتي، وزدتُ معارفي وثقافتي. في إحدى المرّات، هربتُ مع صديقتي من غرفتنا، لأنّ رجال الأمن اهتدوا إلينا، فاستأجرْنا غرفة في مكان آخر، بشكل سريع، واختبأنا، وكانت الغرفة تحتوي فقط على أريكة صغيرة، بلا تدفئة، لا يوجد حتّى أغطية، كنّا ننام إحدانا ملتصقة فوق الأريكة. في حوزتنا كتاب "أحمر أسود" لستاندال، كنّا نقرؤه بصوت عالٍ، حتّى ننسى البرد!

عشتُ حياة التّخفّي لستّ سنوات حتّى اعتُقلتُ في دمشق عام ١٩٩٢، نتيجة وشاية صديق، ذُعرتُ! لأنّني في أثناء التّخفّي وقعتُ في حبّ رفيقي في الحزب، وتزوَّجْنا سرًّا حتّى لا يتعرّض لخطر الاعتقال. كنتُ حاملًا في شهري الثّاني! قاومتُ رجال الأمن، وهم يحاولون اعتقالي. كانوا يرتدون ثيابًا مَدَنيّة، وأنا صرختُ في الشّارع طالبة الاستغاثة، لكنّ النّاس الذين التفّوا حولنا، وحاولوا إنقاذي، تراجعوا خائفين من رجال الأمن، عرفتُ أنّهم سيأخذونني إلى فرع الأمن السّياسيّ في ساحة "الميسات" وسط دمشق، فقد خطفتُ بطاقة رجل الأمن وهو يُريها للنّاس. أردتُ أن أفهم ما سيحصل لي. كان شعوري بالخذلان قاسيًا، لأنّ صديقي وشى

بي، وخانني، وأنا كنتُ مسؤولة عنه، وعن مجموعة شباب، خرجوا أخيرًا من السّجن، مع ذلك، صرختُ برجال الأمن أن يُطلقوا سراحه. كان هذا إحساسي بواجبي تجاه حزبي.

اعتقالي كان إنجازًا لهم، وفرصة لإنهاء ملفّ حزب العمل "الشّيوعيّ"، لأنّني كنتُ آخر مَنْ يريدون اعتقاله في الحزب. سمعتُهم عندما وصلْنا إلى فرع الأمن، يضحكون، لأنّهم قبضوا عليّ أخيرًا بعد ستّ سنوات ملاحقة، فرحوا لانتهاء مهمّاتهم، لكنّني كنتُ سعيدة! أخيرًا، سمعتُ أحدًا يناديني باسمي الذي حُرمتُ منه منذ ستّ سنوات! حتّى زوجي كان يناديني قمر، لأنّنا أخفيْنا هوّيتي عن أهله. المحقّق ناداني باسمي، وهذا كان حدثًا استثنائيًّا. خبّأتُ في جيبي مفتاح بيتي وخاتم زواجي. قرّرتُ التّخلّص منهما، وقد فعلتُ ذلك على دفعَتَيْن، الأولى في المرحاض، والثّانية عندما تظاهرتُ بإصابتي بنوبة ربو، فسُمح لي بالخروج إلى الشّرفة، ورميتُ خاتم زواجي. خفتُ أن يعيدوا اعتقال زوجي للمرّة الثّانية. توقّعتُ أن يضربوني، لكنّهم لم يفعلوا، كانوا فقط سعداء.

فكّرتُ في المصيبة عندما يظهر عليّ الحمل قريبًا، فأنا لا أريد توريط زوجي، كنتُ أتقيّأ. تماسكتُ، وقرّرتُ أنّه لا توجد قوّة في العالم ستجعلني أضعف وأنهار حتّى لو عذّبوني، كما عذّبوا رفاقي. في الواقع، لم يُعذّبوني، ولم أستفزّهم، على الرّغم من أنّ أصدقاء لي في الحزب عُذّبوا بشكل وحشيّ، وأحدهم وهو رفيقنا في الحزب، واسمه "مضر الجنديّ" قُتل تحت التّعذيب. شُغلتُ بالتّفكير العقلانيّ الذي سيُجنّبني أكبر الخسائر، فكّرتُ مبدئيًّا في أنّني إمّا أُجهض جنيني، أو أنتظر الوقت، وأخفي حملي حتّى يتّضح ما يريدون فعله بي. قال لي رئيس فرع الأمن حينذاك، ما

من قوّة تستطيع الوقوف في وجه هذا النّظام، وأنّه باق إلى الأبد! ثمّ أدخلَني رجاله زنزانة صغيرة وقذرة، في تلك اللّحظة عندما أقفلوا الباب الحديد، شعرتُ بأنّني سأموت. تلك اللّحظة لا تزال حاضرة في ذاكرتي. صرختُ، وطرقتُ الباب. اختنقتُ. شعرتُ بأنّني لا شيء! وبأنّني لستُ حتّى حشرة! كنتُ أشعر بأنّني أتلاشى، وأنّ هذه اللّحظة المكثّفة هي معنى السّجن. منذ ذلك الوقت وبعد أن خرجتُ من السّجن، لم أستطع النّوم وباب غرفتي مُقفَل، ولا أقدر على البقاء في غرف مقفلة الأبواب. لم أكن أتوقّف عن الصّراخ في السّجن حتّى أتى السّجّان، وسألني عن سبب صراخي، ولا أعرف لمَ قلتُ له: الغرفة قذرة، وأريد تنظيفها. أُصبتُ بنوع من الاضطراب، فأتى لي بأدوات تنظيف، ونظّفتُ الغرفة، قرّرتُ ألّا أنزع عنّي السّترة الطّويلة التي أرتديها حتّى لا يظهر بطني. خلال التّحقيق معي، عرفتُ أنّهم وجدوا وثائق الحزب كلّها المكتوبة بخطّ يدي. أنكرتُ أنّني في الحزب، وقلتُ إنّني كنتُ مُجرّد سكرتيرة لـ "عبد العزيز الخيّر"، وهو عضو قياديّ في الحزب، وقيمته المعنويّة كبيرة، كان هذا لمصلحتي، لأنّ الوثائق بمعظمها كانت أدبيّة، وقلتُ للمحقّق هذه رسائل أدبيّة وفكريّة فقط. كان المحقّق محترمًا معي، لكن محقّقًا آخر كان بذيئًا وعنيفًا. حُقّق معي لأسبوع كامل. لم يُسمَح لي بالنّوم، أحيانًا كنتُ أغفو على الكرسيّ، وأستيقظ فجأة! بقيتُ لثلاثة أشهر في فرع الأمن السّياسيّ، وأخفيتُ حملي، ثمّ حُوِّلتُ إلى سجن دوما المَدَنيّ.

فرع الأمن السّياسيّ يعمل كالشّرطة، كلّ فرع للأمن يعمل بطريقة مختلفة، أغلق عناصره ملفّي، وحوّلوني إلى المحكمة. لم أكن آكل. نحلتُ كثيرًا، ولم أُبدِّل ثيابي لثلاثة أشهر، وعانيتُ من تسلُّخ اللّحم، بخاصّة بين فخذَيّ، وفي بطني. جسمي اهترأ. كنتُ أنظر إلى جِلْدي المتعفّن،

وأتحدّث مع جنيني، وأطلب منه الصّمود، وكنتُ أتلمّس بطني، وأربّته، وأقول: سننجو معًا، ويجب أن نتماسك! لكنّني كنتُ أغيب عن الوعي بين وقت وآخر، ولا أستطيع التّنفّس، بسبب ظروف الزّنزانة غير الصّحيّة. كانوا يأتون لي بفوط نسائيّة، ولم أكن أحتاجها، فكنتُ أُمزّقها، وأرميها بين بقايا الطّعام حتّى لا يعرفوا أنّني حامل. طلبتُ من المحقّق ثيابًا، فكان لي ما طلبتُ. كان جسمي فعلاً قد بدأ يتآكّل!

نقلوني من أجل المحكمة، وجاء زوجي لزيارتي، فاكتشفوا زواجي، وغضبوا منّي. قلتُ لهم لم تسألوني ما إذا كنتُ متزوّجة، أم لا. كانت طريقتي الوحيدة لإغاظتهم هي ذلك البرود، عذّبُوه بالكهرباء لمدّة ثلاثة أيّام، كنتُ رأيتُهُ لعشر دقائق فقط قبل أن يأخذوه إلى التّعذيب.

في السّجن، منعوا الزّيارات عنّي لمدّة ثلاث سنوات، وسمحوا بتمرير حاجات أتى بها زوجي وأهلي، وأصابتْني حالات تشنّج من البرد، كنتُ شبه جاهلة وضع المرأة في حالات الحمل، ودخلتُ في الشهر الرّابع، وأنا مضطربة وخائفة.

شعرتُ مرّة بحركة في بطني، تشبه الدّغدغة، وتكرّرت الحركة مرّات عدّة، لمستُ بطني، وحرّكتُ يدي، أحسستُ بكائن يتحرّك في بطني، وبدفء غريب، عرفتُ أنّني أريد جنيني أكثر من أيّ وقت مضى. في تلك اللّحظات، شعرتُ بأنّني أمّ! وقرّرتُ حمايته وتغيير حياتي والاهتمام بصحّتي وطعامي، تدفّقتْ قوّة هائلة في داخلي.

في سجن "دوما"، غرفة تمريض. فَحَصَني الممرّض، وقال إنّ وزني ضعيف، ولوني أصفر، ثمّ اتّضح أنّني أعاني من فقر الدّم، والتهابات

المجاري البوليّة، كنتُ سعيدة لأن جسمي يتنفّس، وأرى الشّمس، فبدأتُ آكل. كان مسموحًا لنا البقاء في باحة السّجن من التّاسعة صباحًا وحتّى السّادسة مساء. استطعتُ الاستحمام وغَسْل ثيابي، اجتاحني الذّعر والشّعور بالذّنب، لأنّني سألد جنيني في السّجن، وأُعرّضه لهذه القسوة.

كنتُ أنتظر المحاكمة، على الرّغم من يقيني أنّ المحكمة شَكْليّة، والأحكام جاهزة عند أجهزة الأمن، والمحكمة الاستثنائيّة التي عقدتها لنا كانت تندرج تحت حكم قانون الطّوارئ المعمول به في سورية مُنذ عام ١٩٦٣، والذي يجيز المحاكم الاستثنائيّة، التي تحكم بالإعدام، وهي نفسها المحكمة التي أقرّت قوانين الإعدام بحقّ "الإخوان المسلمين" في الثّمانينيات، وحكمت بخمس عشرة سنة على رفاقنا في الحزب. كانت دوريّة من الأمن السّياسيّ تأتي وتأخذني إلى المحكمة، وقبل العودة بي إلى السّجن، تأخذني إلى فرع الأمن. كلّ شيء مرتبط بأجهزة الأمن وسيطرتها، والقضاء كان جزءًا من هذا الارتباط.

في السّجن، تبرّعتُ بترتيب المكتبة، لأنّنا كسجينات سياسيّات مُنعْنا من القراءة، وأقنعتُ إحدى السّجينات القضائيّات بأن تستعير لي كتاب "روزا لوكسمبورغ" ، "رسائل حُبّ"، وكتابًا عن الحمل. عند دخولي السّجن، لفتتْ انتباهي شجرة خوخ مزهرة في باحته مقابل نافذة سجني مباشرة، وكنتُ أتحدّث إليها دائمًا. كانت صنوي، فأنا مثلها أغوص في أعماق جذوري، وحملي وأغصاني تتوق للانعتاق في الفضاء، ما زلتُ أذكر صوتي، وهو يقول لها: أنا وأنتَ سجينتان!

كنتُ ضدّ واقعي، وأريد تغييره، لهذا انتميتُ إلى حزب يساريّ معارض، وفكّرتُ في ما يجب فعله داخل السجن! تطوّعتُ للعمل في

مطبخ السّجن، والاهتمام بالمكتبة، ودرّستُ أطفال السّجينات، واعتنيتُ بهم. كان معنا حَواليَ ثلاثون طفلاً، بخاصّة في الصّيف، كانوا يبقون لأشهر مع أمّهاتهم، ثمّ يخرجون. في إحدى المرّات، أُغمي عليّ في باحة السّجن، ونزفتُ، وتوقّف جنيني عن الحركة، اعتقدتُ أنّه مات. لكنّه عاش! قال الطّبيب الذي فحصني إن جنيني يتكوّر على نفسه بطريقة غريبة، وهو مذعور! كان المفترَض أن ألدَ في ٣/٩/ ١٩٩٣، لكن ولادتي جاءت مبكّرة! كنتُ أعمل في مطبخ السّجن، وعندما بدأت أفقد السوائل، طُلب نقلي إلى المشفى، كنّا في يوم جمعة، والبرقيّة التي أُرسلت إلى فرع الأمن السّياسيّ لم يردّ عليها، خاف عناصر السّجن، ولم يرسلوني إلى المشفى، وأنا ألدُ، لأنّني سجينة سياسيّة، ولأنّهم سيتعرّضون لعقاب شديد من الأمن، إن فعلوا ذلك.

كان سجن "دوما" جانب المشفى، فأتوا بطبيبة، وقالتْ لهم إنّني في حالة ولادة، ويجب نقلي فورًا إلى المشفى، كان خروجي ممنوعًا من السّجن إلا بموافقة أمنيّة حتّى لو متُّ! بعثوا برسائل عدّة، لكنّ أحدًا لم يجبْ، جاءت طبيبات عدّة، وكلّ واحدة تقول إنّه لا يحقّ لها قانونيًّا توليدي في السّجن، ويجب نقلي مباشرة إلى المشفى، وإنّني قد أموت في أيّ لحظة. كنتُ بين الغيبوبة والوعي أسمع هذه الجملة؛ "إنّها تموت"، مع ذلك رفضوا! السّجينات احتججنَ، وطرقنَ الأبواب لإسعافي، وصرخنَ في عناصر الشّرطة: "المرا عم تموت ... يا ويلكم من عذاب ربكم ... المرا عم تموت". كنّ يقرعنَ الطّناجر أيضًا لإحداث ضجّة، وكنتُ أسمع أصواتهنّ بعيدة.

بقيتُ لستّ ساعات على هذه الحال، حتّى جاءتْ برقية من فرع الأمن بالموافقة على نقلي إلى المشفى. عندما وصلتُ، وَلدتُ بصعوبة. رأيتُ

الموت فعلاً! وُلِدَتْ ابنتي مُنتفخة ونحيلة جدًّا، كانت تعرّضت لصعوبات، لأنّها فَقَدَت السّوائل، وبقيتْ لفترة من دون تغذية. أمّا أنا، فأُصبتُ بعاهة مستدامة، لأنّ هذه العمليّة أثّرت في عمودي الفقريّ!

صحوتُ في المشفى على كفوف تضرب وجهي، وصراخ: لا تموتي... لا تموتي. كنتُ فَقَدْتُ الكثير من الدّماء، ولا أستطيع فَتْح عينَيّ، وسمعتُ بكاء ابنتي، وفتحتُ عينَيّ! الشّرطة طلبتْ أن أغادر خلال ساعَتَيْن، وأعادتْني إلى السّجن. تضاعف شعوري بالذّنب، لأنّني أتيتُ بطفلتي إلى هذا العالم في السّجن. عيناها مغلقتان، لا تفتحهما، ووجهها غريب ونحيل إلى درجة مرعبة. وشكلها مُشوَّه من الانتفاخ. كنتُ أنزف بغزارة، وعندما عُرِف أنّني معتقَلَة سياسيّة، خافت منّي الممرّضات.

وصلتُ إلى السّجن وثوبي كلّه دماء. السّجينات حضّرنَ حفلة صاخبة وطعامًا وفيرًا احتفالًا بقدوم ابنتي "ديانا". استلقيتُ على ظهري، لأنّني تأذّيتُ من عملية الولادة، ولم أستطع التّحرّك لفترة طويلة. كنتُ في وَضْع نفسيّ وصحّيّ سيِّئ، لكنّ عناية صديقاتي في الحزب المعتقلات معي، أنقذتْني!

عندما بلغتْ ابنتي السّنة وشهرَيْن، طلبتُ من أبيها أن يُخرِجَها، ثمّ كانت تأتي لزيارتي كلّ أسبوعَيْن، تنام عندي ليلة، وتعود إلى أبيها. أمضيتُ ستّ سنوات في السّجن، وخرجتُ عام ١٩٩٩.

منذ خروجي وحتّى بداية الثّورة، كنتُ أعيد اكتشاف المجتمع السّوريّ الذي تحوّل مجتمعًا استهلاكيًّا. كان صدر قانون الاستثمار في عهد الأسد الأب، والذي يتيح عمل الشّركات الخاصّة، ودخل الهاتف الخليويّ البلد

وشبكات الإنترنت، على الرّغم من محدوديّتها بداية إلّا أنّها سرعان ما انتشرتْ. بدأتْ سورية تنفتح على العالم على الرّغم من أنّ الانفتاح كان اقتصاديًّا واستهلاكيًّا. وهذا أدّى إلى انتعاش الطّبقة الوسطى لفترة مؤقّتة. شعرتُ بأنّني أمام عالم مختلف، لا احترام فيه للعلم ولا للثّقافة، كنتُ ابتعدتُ عن المجتمع السّوريّ حَواليَ اثنَتَي عشرة سنة، ستّ سنوات في التّخفّي السّرّيّ، وستّ أخرى في السّجن، وكنتُ مُجرَّدة من حقوقي المَدَنيّة، ولا يحقّ لي العمل، وفُصِلتُ من جامعتي. فهمتُ أنّ النّاس أرادوا نسيان الماضي، وكنّا نحن المعتقلين جزءًا منه، بطريقة ما تخلّى عنّا المجتمع، وتُركنا نواجه مصيرنا قبل السّجن وبعده.

عندما استلم بشّار الأسد، استبشر النّاس خيرًا، أنا من الذين رفضوا التّفاؤل بتوريثه، لأنّني أعرف حقيقة النّظام الأمنيّ العسكريّ من الدّاخل، لكنّ الأسد قال ستكون هوامش للحُرّيّات، وعمليّات الإصلاح ستبدأ بالإصلاح الإداريّ للمؤسّسات، ثمّ الاقتصاديّ، وأخيرًا سيكون الدّيموقراطي، فنشأت منتديات كثيرة بعد عام ٢٠٠٠، مثل منتدى "رياض سيف"، ومنتدى "اليسار" و"حركة مناهضة العولمة" و"منتدى الأتاسي"(*).

ما حصل بعد ذلك، أنّ نظام الأسد اعتقل كُثُرًا من النّاشطين والمثقّفين ورموز المعارضة داخل هذه المنتديات، وأودعهم السّجن لسنوات، منهم رياض سيف وميشيل كيلو وعارف دليلة وأنور البنّيّ. أعاد السّلطة والمجد إلى الأجهزة الأمنيّة، وأدرك النّاس أنّ ما وعد به كان مُجرّد أكاذيب. وعادت حال الرّعب والخوف من جديد.

---

*) من المنتديات التي شكّلت تجمّعات فكريّة وسياسيّة عدّة. وكانت من ظواهر ما عُرف لاحقًا باسم ربيع دمشق، ورياض سيف هو أحد أقطاب المعارضة السّياسيّة في سورية، وكان عضوًا في مجلس الشّعب سابقًا.

في أثناء ربيع دمشق، كنتُ أواظب على حضور اجتماعات الحركات "اليساريّة" والفكريّة كافّة، وكنتُ من أنصار "حركة مناهضة العولمة"، لأنّني رأيتُ أنّ هذا النّظام الاقتصاديّ العالميّ الجديد هو جزء من مشكلتنا، وهو عالم متوحّش ومُولّد الأزمات، وحلوله لهذه الأزمات على حساب الشّعوب، وعلى حساب شعوبه، لأنّه أيضًا في أوروبا وغيرها تمّ سحب الكثير من الميّزات والخدمات الاجتماعيّة والتّعليميّة والثّقافيّة من المواطنين، وتحوَّل الإنسان الغربيّ إنسانًا معزولًا، يعيش بشكل استهلاكيّ مرعب.

بعد عمليّة الاعتقالات والتّرهيب، قرّرتُ الاعتناء بابنتي، ومنحها الوقت الكافي لتربيتها، وبناء حياتي الشّخصيّة، فاشتغلتُ مدرّسة غير حكوميّة، وسجّلتُ في جامعة خاصّة، وبقيتُ كذلك حتّى بدأت الثّورة.

كانت الثّورة الانفجار الذي أخرج إلى العَلَن مشكلات المجتمع السّوريّ التي لم تُحلّ فيه قضيّة واحدة على مدى سنوات عدّة، من الطّائفيّة، إلى المناطقيّة، إلى الفساد المتفشّي في أجهزة الدّولة. كان خوفي من معرفتي حقيقة النّظام الأسديّ، ومن معرفتي أن النّظام العالميّ معادٍ للثّورات الدّيموقراطيّة، حيث إنّ وجود نظام ديموقراطيّ سيضرّ بمصالح الدّول الغربيّة، إضافة إلى أنّ نظام الأسد عمل ولعشرات السّنوات ضابطَ أمن لمصالح دول كبرى عدّة في المنطقة. لذلك، لن تتخلّى عنه ببساطة.

السّرعة التي رُفع فيها شعار إسقاط النّظام أخافتْني أيضًا، وكنتُ حذرة من الانجرار وراء ما لا أفهمه، بخاصّة بعد تجربة طويلة في العمل السّياسيّ منذ ربع قرن، كنتُ أرى الذّعر ممّا يحصل يوميًّا في وجوه النّاس. في مناطق العَلَويّيْن، سافر كُثُرٌ منهم إلى قراهم، وأصدقائي المسيحيّون والدّروز أُصيبوا بالهلع، على الرّغم من أنّ شهرَيْن مرّا فقط على بداية الثّورة، وصديقاتي

الدّرزيّات تحجّبنَ خوفًا وتحسّبًا للآتي، قلنَ لي هذه ثورة إسلاميّة، بخاصّة عندما بدأت تعلو صرخات "الله أكبر" بين المتظاهرين. ذكّرني هذا باليوم الذي مات فيه حافظ الأسد، حيث سافر كُثُرٌ من العَلَويّيْن إلى قراهم عام٢٠٠٠. كانت الطّائفيّة موجودة في المجتمع السّوريّ، لكنّها كانت ضمن النّطاق المقبول، وكان هناك تعايش بين النّاس قبل حكم الأسدَيْن. عندما جاء نظام حافظ الأسد، عزّز الطّائفيّة، وكرّسها، والسّكوت عنها كان بقوّة القَمْع والمخابرات، وتقوقّع البشر على أنفسهم بسبب الخوف، وما بدا لاحقًا أنّه انفجار في المجتمع السّوريّ، كان موجودًا ومَخفيًّا ومُستترًا.

عندما انطلق الحراك الشّعبيّ في "درعا"، التقيتُ بأصدقاء الحزب القدامى، وفكّرنا في كيفيّة المشاركة. كان رأيي منذ البداية أنّ الأسد سيواجه حركة الاحتجاج الشّعبيّ بطريقة دمويّة، ورأيتُ أنّه يجب التّواصل مع الحراك مباشرة، كي نشرح وضع سورية الأكثر تعقيدًا منه في مصر وتونس وغيرهما من بلدان الثّورات العربيّة. راسلتُ شباب الحراك في "درعا"، وهم شباب في بداية العشرينيات، طلبوا كُتُبًا عن "ماركس" وحرب العصابات وحركات التّمرّد في العالم. كانوا متعطّشين للاطّلاع والمعرفة والفكر، لكنّ الوقت والعنف لم يُسعفاهم، إضافة إلى أنّ علاقتهم معنا كجيل سياسيّ قديم لم تكن مُشجّعة. نحن لا نُعدّ نموذجًا ناجحًا لهم، لأنّ المعارضات السّياسيّة قبل ثلاثين عامًا كانت منقسمة، وعلاقتها بالطّبقات الشّعبيّة ضعيفة، والأجيال الجديدة لم تكن على دراية كافية بتجربتنا، بسبب الخوف في المجتمع وانعدام الثّقة والتّجهيل وسطوة الأجهزة الأمنيّة، والشّباب أنفسهم ردّدوا شعارات أنّ هذه الثّورة هي ثورة شبابيّة، ولا يريدون للجيل السّياسيّ القديم التّدخل فيها. نشأت علاقة متشنّجة بين الجيلَيْن، ومعدومة الثّقة، وروح الشّباب كانت منفعلة وثائرة.

شاركتُ في التّظاهرات، ولكنْ، بحذر شديد، لأنّني لا أريد تكرار تجربة الاعتقال عام١٩٩٢. سافرتُ إلى أماكن عدّة، لأفهم ما يحصل، وتوجّهتُ إلى "جسر الشّغور" في "ريف إدلب"، لألتقي بالنّاس، وأحاورهم عمّا حصل في حادثة قتل عناصر الأمن في الشّهر السّادس عام ٢٠١١. كان الكلام في المقابلات التي أجريتُها مع النّاس متناقضًا. لكنْ، بالعموم، وجدتُ بعض الحقائق، أهمّها أنّ الحقد على النّظام كان كبيرًا في "جسر الشّغور" منذ الثّمانينيات وحوادث "الإخوان المسلمين"، حيث اعتُقل كُثُرٌ، وقُتل آخرون، وهربت البقيّة خارج البلد. التقيتُ بنساء، لا يزلنَ ينتظرنَ أزواجهنّ وأولادهنّ المختفين في سجون الأسد الأب منذ ثلاثين سنة.

"جسر الشّغور" مدينة مهمَّشة على الصّعد كافّة مثل غالبيّة الرّيف السّوريّ، وحصلتْ فيها اعتقالات في أثناء التّظاهرات في بداية الثّورة، وقُتل كُثُرٌ من المتظاهرين، فحاصر النّاس مقرّ الشّرطة العسكريّة، وحملوا السّلاح، وكان داخل المقرّ سبعون عنصرًا من الأمن. روى لي الأهالي هذه الحكاية؛ الشّباب الذين حاصروا المقرّ صنعوا برميلًا متفجّرًا، وطلبوا من عناصر الفرع إطلاق سراح المعتقلين، والخروج من "جسر الشّغور"، وأعطوهم مهلة يومَيْن، ليخرجوا. استنجد العناصر بالنّظام، ليرسل لهم قوّات مساندة، لكنّهم تُركوا وحدهم، ولم يُنجدهم أحد، ففجّر الشّباب المقرّ، وأحرقوا المبنى، وقتلوا مَن في داخله من رجال الأمن. كانت النّساء ضدّ ما حصل، وكنّ يصرخنَ أنّ هؤلاء مُجرّد شباب، ولديهم أمّهات، وقد أخبرتْني النّساء أنّهنّ ضدّ السّلاح الذي حمله الثّوّار مبكّرًا، ولكنْ، لم يستجب لهنّ أحدٌ، ولم تُسمع آراؤهنّ.

هذه الحال مثلًا في "جسر الشّغور"، والتي تابعتُها ميدانيًّا على الأرض،

كانت بمثابة إعلان حرب على النّظام، لأنّها حصلتْ تقريبًا بعد شهرَيْن ونصف من بداية الثّورة، وكان النّظام بدأ إعلان حربه على الشّعب قبلًا. الغريب أنّه كان هناك إنكار لوجود السّلاح، مع أنّه كان موجودًا، على الرّغم من اختلاف وجوده بين منطقة وأخرى.

عملتُ في الإغاثة والتّعليم في "صحنايا"، كنّا نتقاسم لقمتنا اليوميّة أنا وكُثُرٌ مع النّازحين، خصوصًا نازحي داريّا، ثمّ بدأ رجال الأمن يسألون عنّي نتيجة نشاطاتي في الإغاثة، وصرتُ مطلوبة لهم. المشكلة أنّني كنتُ مسؤولة عن تدريس مسائيّ لمجموعتَيْن من الفتيات، فأهل "داريّا" رفضوا إرسال بناتهم إلى مدارس مختلطة في "صحنايا"، فاضطُررتُ لأن أدرّسهنّ وحدهنّ بشكل تطوّعيّ، كنتُ مُنهكَة، لأنّني أعمل في الصّحافة وفي التّدريس من أجل الاستمرار في العيش، وأعمل متطوّعة في الإغاثة والتّعليم. كان الغلاء فاحشًا، وأنا مطلوبة لأجهزة الأمن، فغادرتُ بيتي، وعشتُ متنقّلة سرًّا بين بيوت أصدقائي. لم أرِدْ أن أُعيد تجربة السّجن بأيّ ثمن، وقد مات أحد أصدقائنا "مروان الحاصباني" تحت التّعذيب في سجن للنّظام. فقرّرْنا أن نبيع بيتنا، ونذهب إلى "اللّاذقية"، لكنّني لم أكن أملك جواز سفر، لأنّني لم أُمنَح هذا الحقّ بعد الاعتقال.

حاولْنا استئجار بيت في "اللّاذقية" وهي مدينة زوجي. كان أصحاب مكاتب الإيجار عندما يرون هويّتي، ويعرفون أنّني "سُنّيّة" من "حلب"، يعتذرون بتهذيب، ويقولون لزوجي وبشكل غير مباشر إنّنا سنتعرّض لمشكلات كثيرة. وهذا انطبق على المناطق جميعها التي يسكنها السُّنَّة، لأنّ زوجي "عَلَويّ" من قُرى السّاحل. في النّهاية، تظاهرتُ بأنّني شيعيّة، واستطعْنا استئجار بيت. كنّا زوجَيْن من طائفتَيْن مختلفتَيْن، وهذا جعلَنا

مشرَّدَيْن لثلاثة أشهر، نبحث عن بيت. ابنتي بين "حلب" ودمشق، وزوجي بين "اللّاذقية" ودمشق وأنا في "اللّاذقية" أتنقّل بين بيوت الأصدقاء.

شعرتُ أنا وأمثالي بأنّ لا مكان لنا، لقد اضطررتُ للقول إنّني شيعيّة، لأجد مكانًا للسَّكَن! كانت الثّورة تأسلمتْ، وتسلّحتْ، وفسدت مع الطّبقة السّياسيّة المعارضة أيضًا.

منذ بداية الثّورة، كان الجنود يُوقِفون النّاس أمام الحواجز، وعندما كانوا يعرفون أنّني وزوجي من طائفتَيْن مختلفتَيْن يستغربون. كنتُ أحاور بعض الجنود اللّطفاء، لكنّني لم أكن لأجادلَ الفَظّين منهم قطّ. شعرتُ بالشّفقة على الجنود الذي يقفون أمام الحواجز، كانوا من الفقراء ومُجبرين على أداء الخدمة العسكريّة، بخاصّة في الصّيف، وهم يقفون طول النّهار تحت لهيب الشّمس. أنا ضدّ تخوين الجنود من عناصر الجيش، لأنّهم كانوا ضحايا أيضًا، كانوا خائفين من الأطراف جميعهم، خائفين من رجال الأمن ومن الثّوّار.

فَقَدْتُ أملي نهائيًّا، علمًا أنّ ما رأيتُهُ في "اللّاذقية" كان مميّزًا، فأصدقائي من السُّنّة والمسيحيّيْن والعَلَويّيْن اشتغلوا مع النّازحين من "حلب" و"جسر الشغور"، فقد ذهبتُ إلى أماكن وجود النّازحين، وراقبتُ أوضاعهم في "اللّاذقية". النساء اللواتي حاورتهنّ من "حلب" و"إدلب" قلنَ لي إنّهنّ مرتاحات اجتماعيًّا في "اللّاذقية" أكثر، كانت هناك رؤوس أموال حلبيّة وصلت بوفرة إلى المدينة، وظهرتْ نهضة عمرانيّة، والأهالي استقبلوا هذا كلّه بروح إيجابيّة. ضمن بحثي في "اللّاذقية"، تعرّفتُ إلى مجموعات إغاثيّة عدّة، لقد سمعتُ جدًّا عن كراهية العَلَويّيْن وجودَ السُّنّة، وفي الحقيقة لم ألاحظْ هذا، وجيراني في "اللّاذقية" لم يعرفوا كثيرًا عمّا

يحصل في مناطق أخرى، وعن حقيقة ما يحصل. بكت النّساء بحرقة عندما حدّثتهنّ عن أمّهات الشّهداء في حلب وغوطة دمشق. كانت هناك مجموعات ضدّ النظام، لكنّها ليست مع الثّورة، وقد عملتْ بتفانٍ مع النّازحين. كانت صديقتي، وهي عَلَويّة، تذهب يوميًّا إلى القُرى المجاورة بسيّارتها، لتأتي بالطّعام والثّياب، وتُوزِّعها على النّازحين. وافتتحت مدرسة مسائيّة مجّانيّة لأطفالهم. وأيضًا صديق طبيب كرّس نفسه لخدمتهم مجّانًا. وصديقة أخرى مسيحيّة كانت لا تتوقّف ليلاً ولا نهارًا عن العمل معهم ومساعدتهم. كنتُ أنزعج من عدم الحديث عن هذه النّماذج الإيجابيّة في إعلام الثّورة، فهو جزء من صناعة تعايش سِلْميّ بين السّوريّيْن.

التّنميط برؤية الشّعب السّوريّ ذليلاً، وعدم التّفكير في الممكن لصناعة روابط إنسانيّة لا يتحمّل وزرهما النّظام فحسب، بل المعارضة أيضًا. لقد رأيتُ عملاً حقيقيًّا مثل خليّة نحل مع النّازحين، كان النّاس يحاولون إطفاء الحقد الطّائفيّ والمناطقيّ المستعر، على الرّغم من عدم رضا أجهزة الأمن.

كنتُ أعيش بشخصيّة مستعارة، وأنتظر بين لحظة وأخرى أن يقبض عليّ الأمن، ومالنا ينفد، فقرّرتُ الخروج من سورية. كان همّي ألّا أُعاود تجربة الاعتقال، بدأتُ كتابة مذكّراتي، حتّى لا أنسى. وراسلتُ السّفارة الفرنسيّة، فردّتْ على رسالتي في اليوم التّالي، وساعدتني لأخرجَ من بلدي، وأصل إلى الأراضي الفرنسيّة. خرجتُ من دون جواز سَفَر، بشكل غير قانونيّ، وتمّ تهريبي، والآن أنا أعيش في فرنسا لاجئة. وابنتي "ديانا" التي ولدتُها في السّجن، تتابع دراستها الجامعيّة في باريس.

أنا امرأة عشتُ أنواع الحرمان الجسديّ والنّفسيّ جميعها، كما عشتُ

أقلّ بكثير، ولكنْ، بكثافة، أقصى الحبّ والتّضامن والغيريّة، فاجأتْني الحياة مرارًا بيد حانية امتدّت لي من جهة لم أتوقّعها، وغالبًا ما صفعتْني بأيدٍ خُدعتُ بحرير لمساتها، الأمر الذي علّمني أن أتواضع فكريًّا ومعرفيًّا، إذ إنّ وعيي ليس كاملًا، ولن يكون. وبالتّالي، التّعميم في الأحكام وتنميط البشر وحشرهم في قوالب، عدا عن كونها غير مجدية معرفيًّا ولا واقعيًّا، فهي مولّدة الكراهيّة لاستعداءِ الآخر، للشّرّ بتجلّياته القاتلة كلّها. لا يمكن كَسْرُ الشّرّ بالشّرّ، كما لا يمكن كَسْرُهُ بالخير أيضًا. أجد أنّ فكرة كَسْرَ الشّرّ وإنهاءَه فكرة طفليّة. الآن، تشغلُني فكرة تفكيك الشّرّ، عبر فَهْم ترابطات البشر، على الرّغم من خصوصيّاتهم أفرادًا وجماعات، عبر تقدير القضايا والحاجات كلّها، من دون وضع أولويّات، ومن خلال البحث عن ممكنات جديدة للتّعايش مع شرّ أقلّ، وعنف أخفّ وطأة على العالم بأكمله.

الرّاوية السّادسة

اسمي "سعاد". عمري خمس وعشرون سنة. عندما بدأت الثّورة، كنتُ أعيش مع أهلي في "دير الزّور"، وأدرس في الجامعة اختصاص علم نَفْس. أنا ملتزمة دينيًّا ومُحجّبة. في نهاية ٢٠١١، شاركتُ في التّظاهرات، لأنّ أخي كان يعبر في السّوق، وأطلق رجال الأمن الرّصاص على المتظاهرين، وأصابتْهُ طلقة في بطنه، واستشهد في الشّهر السّابع من العام نفسه. كان عمره أربع عشرة سنة، يمرّ بالقرب من التّظاهرة. كانت التّظاهرات سِلْميّة حينذاك، وقُتل بسلاح النّظام.

حصل إضراب عامّ في الشّهر السّادس من ٢٠١٢، لأنّ أهل "دير الزّور" طالبوا بالمعتقلين، ونزح النّاس إلى القرى القريبة، ومنهم أهلي، وتركْنا بيتنا، وبقي بعض الشّباب في المدينة يهجمون بالسّلاح على مخافر الشّرطة لتحرير المعتقلين من أفراد عائلاتهم، وهاجموا المنشآت الحكوميّة.

نزحْنا إلى قرية اسمها "البصيرة"، وعرفنا أن النّظام شنّ هجومًا على جامعتي، لأنّ "الجيش الحُرّ" اختبأ فيها، فَقَصَفَهَا بالمدفعيّة، وأُحرقت أوراق الجامعة كلّها، وذهبتْ امتحاناتنا هباءً. كان النّظام يقصف، والنّاس لا يزالون مُضربين. بقيتْ عوائل فقيرة من النّساء والأطفال في "دير الزّور". جيراننا قُتلُوا جميعًا، عائلة كاملة قُتلتْ بقصف طيران النّظام. ستّة أولاد وأمّهم وأبوهم.

في النّزوح، استأجرْنا غرفة صغيرة خربة، لم نكن نملك المال، والمنطقة التي نزحْنا إليها مناخها صحراويّ قاسٍ. خرجْنا من بيتنا بلا ثياب، لم نحمل شيئًا، كأنّنا سنعود بعد ساعة فقط! عائلتنا مُكوّنة من ستّة أفراد، إضافة إلى أبي وأمّي. الغرفة التي عشْنا فيها عرضها ثلاثة أمتار، وطولها خمسة أمتار، أصغرنا كان عمره عشر سنوات. كان أبي موظّفًا في الدّولة، وتوقّفت الدّوائر الحكوميّة عن العمل. لم نملك حتّى ثمن الطّعام، ولا ثمن الخبز! حُشرنا جميعًا في غرفة صغيرة جدًّا. كنّا نخبز بالتّنّور لنأكل، حتّى المازوت انقطع، وصرنا نُشعل النّار بأغصان الأشجار، ونخبز على الحطب، نأتي بالطّحين، ونعجنه فقط بالماء. بقينا هكذا لأشهر، بالكاد نأكل الخبز على نار الحطب، حتّى فُتحتْ معابر بين المناطق المتحاربة. ما ساعدنا أنّنا ننتمي إلى عشيرة، وكانت العشائر تساعد أفرادَها، لذلك استطعْنا متابعة العيش على المساعدات. عندما فُتح معبر بين مناطق النّظام والمعارضة، عرفتُ أنّ هناك إمكانًا لتقديم الامتحانات.

كان هناك معبر تهريب إلى حَيّ "الجورة"، حيث النّظام، والمعبر خاضع للمهرّبين. ما تبقّى من مدينة "دير الزّور" ما عدا حَيّ "الجورة" كان في بداية ٢٠١٣ تحت سيطرة "الجيش الحُرّ"، والدّوائر الحكوميّة لا تفتح إلّا في مناطق النّظام، ويتمّ تمرير الأكل والطّعام عبر هذا المعبر، وبيتنا في منطقة يسيطر عليها "الجيش الحُرّ"، وعليّ اجتياز المعبر، لأصل إلى منطقة النّظام، حيث جامعتي، كان عناصره يفتّشون النّساء، ويأمرونهنّ بخَلْع النّقاب، فقد خافوا أن تُهرّب أسلحة في ثيابهنّ. كنّا ننتظر دورنا نهارًا كاملًا في صفّ طويل أمام الحاجز للتّفتيش، وكنتُ جهّزتُ نفسي لما هو أسوأ، وتفكيري انحصر بإكمال تعليمي الجامعيّ.

بعد أن انتقلتُ إلى منطقة النّظام، سكنتُ في غرفة مهجورة، لا تتجاوز الثّلاثين مترًا، وقرّرتُ إكمال دراستي. كان أخي معي، وهذه الغرفة المهجورة سكنتْ فيها معنا ثلاث عائلات نازحة، وكنتُ في سَنَتي الدّراسية الثّالثة، كنّا فقراء والعائلات النّازحة بالكاد تأكل، والحصار مطبق، والأسعار مرتفعة. ذهبتُ إلى الجامعة، بينما القذائف تتساقط ونحن في الامتحان. كنّا بضعة طلّاب فقط. قرّرتُ أن لا شيء سيُوقفِني عن إكمال تعليمي سوى الموت.

كانت الجامعة تقع في خطّ مواجهة فاصلة بين منطقة النّظام و"الجيش الحُرّ"، وقدّمنا الامتحان على خطّ جبهة، كنتُ أخرج مبكّرًا، لأعبر الحواجز، كلّ ٢٠٠ متر حاجز للنّظام، كان الأمر فظيعًا! بقيتُ على هذه الحال حتّى أنهيتُ امتحاناتي، ورجعتُ إلى أهلي في قرية النّزوح، وعاودتُ رحلة العبور نفسها.

علمتُ من صديقاتي أنّ هناك تقديمًا للفَصْل الجامعيّ الذي أُحرِق في القصف، فقرّرتُ إعادة تقديم الامتحان حتّى أحصل على شهادتي الجامعيّة. درستُ ليلًا ونهارًا، لكنّني لم أكن أملك أجرة الطّريق، فنحن نعيش على إعانة المنظّمات من سُكّر وطحين. المساعدة التي أتتْنا من أقرباء في العشيرة، وفّرتُها لأجرة الطّريق إلى الجامعة. كنتُ أجوع، ولا أشتري طعامًا، كي أذهب إلى الجامعة.

المنطقة الصّحراويّة بردُها قارس، وصيفها قاتل، لم نكن نملك ثياب الشّتاء، ولا التّدفئة، وفي أثناء هطول الأمطار تنزل المياه من السّقف والجدران. عدتُ إلى منطقة النّظام "الجورة"، لأُكمل تعليمي، وسكنتُ الغرفة نفسها مع العائلات النّازحة. لم نكن نأكل كثيرًا تحت القصف. لقد رافقَني الجوع والبرد والذّلّ بشكل دائم!

في ذلك الوقت، ظهر "داعش"،ولم يكن قد بسط نفوذه على "دير الزّور"، لكنْ، كانت له حواجز كثيرة للعبور إلى منطقة النّظام، حيث جامعتي، وكان نهر الفرات يفصل بين حواجز النّظام وحواجز "داعش"، كان التّشديد قاسيًا من قِبَل "داعش" والنّظام على حدٍّ سواء، لم يُسمَح لي بالذّهاب إلى جامعتي. مرّة، أمام حاجز، قال لي أحد "الدّواعش" إنّ منطقة النّظام منطقة كَفَرَة ومُرتدِّين، وممنوع العبور إليها. صار تنظيم "داعش" دولة تُصدر القوانين والعقوبات. لم يكن هكذا بداية، لكنّه بعد أن سيطر عسكريًّا على المنطقة، اختلف الأمر. بدأ تمامًا في أيلول ٢٠١٣، فصرتُ أتنقّل مُنقَّبة بين حواجز "داعش". كان "الدّواعش" على الرّغم من أنّ لا شيء يظهر من أجسادنا نحن النّساء، حتّى أعيننا، يقولون لنا عندما تمرّ الحافلات: "تحشّمي ... استرّي". كانوا يردّدون هذا الكلام طَوَال الوقت، فصرتُ أرتدي العباءة التي قرّروا أن ترتديها النّساء، لأنّهم ضايقوا أخي الذي يرافقني، وهدّدونا.

في إحدى المرّات، قال لي أحدهم إنّني غير محتشمة، وهو تابع للحسبة (الهيئة الدِّينيّة الشّرعيّة التي حلّتْ مكان القضاء المَدَنيّ) على الرّغم من أنّني كنتُ أرتدي النّقاب والعباءة، كان مطلوبًا أن تكون العباءة واسعة، وأن يكون النّقاب عريضًا جدًّا على شكل مُربّع. النّقاب السّوريّ قطعة صغيرة تغطّي نصف الوجه، وهذا بالنّسبة إلى "داعش" كُفْر، حيث يجب أن يكون شكل المرأة على شكل مربّع من الرّأس إلى القَدَمَيْن، ويجب ألّا تظهر إشارة توحي بكتلة جسد المرأة وشكلِ رأسها، وأن يصل طول النّقاب إلى ركبَتَي المرأة، بالتّالي تلتقي أطراف النّقاب مع أطراف العباءة الواسعة. أنا مسلمة وملتزمة بديني، وكنتُ أرى هذا غريبًا جدًّا، وغير مفهوم، ولا علاقة له بالدِّين، فَمَنَعَني العناصر من العبور، لأنّ لباسي

غير شرعيّ، وكنتُ أنتعل حذاء رياضيًّا مطرّزًا بخرز لامع، فقالوا إنّ الحذاء يجب أن يكون أسود، وحذائي يُعدّ تبرّجًا وزينة، على الرّغم من أنّ عباءتي كانت تُخفي الحذاء، ولا يظهر إلّا نادرًا، فكّرتُ في أنّني أريد فقط أن أُنهي امتحاناتي الجامعيّة، فلبستُ كما يريدون، استعرتُ النّقاب من إحدى الصّديقات، ومع ذلك، خفتُ ألّا يسمحوا لي بالعبور، ويفوتني امتحان في الجامعة، فذهبتُ في طريق تهريب عبر البساتين بعيدًا منهم. كانت معاناة طويلة، بخاصّة عندما كنتُ أتخيّل أن يُمسكَ بي أحد "الدّواعش"، فعقوباتهم المرعبة كانت دائمًا في بالي.

في أثناء العبور، ركضْنا مسافات طويلة بين البساتين، وعندما وصلْنا إلى ضفّة النّهر لنعبر،كانت القوارب مكتظّة بالبشر، لم تكن هناك جسور، والنّاس يعبرون بالقوارب، وينقلون الطّعام والبشر وكلّ شيء عبر قوارب الصّيد هذه، لأنّ قوّات النّظام قصفت جسر دير الزّور. ظللْنا لنهار كامل في القارب، وكان أخي معي، عندما وصلْنا إلى الضّفّة، وجدنا أنفسَنا أمام حاجز للنّظام، لم أتنبّه إلى اللّباس الذي ارتديتُهُ من أجل حواجز "داعش"، ونسيتُ النّقاب، فأوقفَني عناصر النّظام، وحقّقوا معي لأنّني أرتدي النّقاب، وكان النّظام منعه. كنّا ندفع النّقود من أجل أيّ حركة نقوم بها، ولم نملك النّقود لندفع، دفعتُ كلّ ما أملك لصاحب القارب، ثمّ وقفْنا داخل صفّ طويل، ننتظر طوال النّهار، لندخل منطقة النّظام، شرحتُ للعناصر أنّني مضطرّة لارتداء النّقاب للمرور من حواجز "داعش"، وأنّني فقط أريد الوصول إلى جامعتي، وأنّ أخي معي وسوف نعود، كنتُ مصدومة ومقهورة، لقد استطعتُ النّفاذ من "داعش" بصعوبة، وخاطرتُ بحياتي، والآن سيُعيدونني من حيث أتيتُ، بكيتُ بحرقة. أحد عناصر الحاجز تعاطف معنا، فحقّق معي، وسمح لنا بالمرور على الرّغم من عدم

رضا الآخرين. عندما وصلْنا أخيرًا، لم نجد العائلة التي كنّا ننزل في غرفتها، بقينا طوال اللّيل مشرّدين من مكان إلى آخر، حتّى وجدنا غرفة عند امرأة عجوز، سمحتْ لنا بالبقاء عندها، مقابل أن أُنظّف لها بيتها، وأساعدها.

في تلك الأثناء، لم يتوقّف القتال بين "جبهة النّصرة" و"داعش"، ونحن نسمع دَويّ القذائف حولنا، و"داعش" بسط نفوذه، وتمدّد في "دير الزّور". كنّا في الشّهر الرّابع من ٢٠١٤ عندما انتهت الامتحانات، وأردتُ العودة إلى أهلي، بقيتُ لشهرَيْن في مناطق النّظام، لأنّ "داعش" سيطر بالكامل على "دير الزّور"، وانضمّت عشائر في الدّير مثل "عشيرة البكّارة" إلى التّنظيم، وملأتْ حواجزُه الطُّرُقاتِ، وتحوّل الاقتتال بين العشائر معارك طاحنة، كان العنف يكبر بسرعة.

عندما سمعتُ أنّ هناك هدنة بين "جبهة النّصرة" و"داعش"، حاولتُ العبور إلى الطّرف الثّاني، لأعود إلى أهلي، فذهبتُ إلى حاجز النّظام. عندما يريد النّاس الخروج، النظام يسمح لهم بسهولة، لكنّ العودة والدّخول صعبان. خرجتُ، وركبتُ القارب من جديد، وكانت هناك تجمّعات لحافلات تقلّ النّازحين أو النّاس الذين يريدون العبور بين "دير الزّور" و"الرّقّة" في منطقة اسمها "الحسينيّة"، وهي قرية، كلّها بساتين، ومُطلّة على نهر الفرات. لم نعثر على مكان لنا. قال لنا النّاس إنّ الخوف من "داعش" أوقف حركة انتقال النّاس. كنّا أنا وأخي نرتجف من الخوف، لأنّ "داعش" كان يقطع رؤوس النّاس، وحينذاك لم نعرفْ أن معارك طاحنة تدور، وظللْنا نمشي طَوال النّهار في الطُّرُقات حتّى مرّتْ أمامنا إحدى مركبات نقل النّفط. أخبرَنا السّائق بأنّه ذاهب إلى "الميادين"، وأنّ معركة كبيرة تدور بين "داعش" و"جبهة النّصرة" يموت فيها السّوريّون بكثرة، وغيّر

طريقه للابتعاد من حواجز "داعش" الذي سيطر على الطُّرُق، فاتّجهنا إلى الصّحراء، لتجنُّب الحواجز. كانت ساعات مرعبة، لأنّ أزيز الرّصاص ودَويّ القصف القريب لم يتوقّفا حولنا، فأغمضتُ عينَيّ، واعتقدتُ أنّنا سنموت، لكنّنا نجونا ووصلْنا إلى أهلي.

عندما أُعلنتْ نتائج الامتحانات، اتّصلتْ بي إحدى صديقاتي، وأخبرتْني بنجاحي، فقرّرتُ أن أعمل في مكان نزوحنا، وكان هذا في نهاية ٢٠١٣.

كان الوضع فظيعًا، لأن "الدّواعش" سيطروا على المنطقة التي نعيش فيها، وأقفلوا المدارس، وافتتحوا أخرى خاصّة بمناهجهم، لكنّني رفضتُ التّدريس فيها. أعطوا رواتب مغرية للنّاس، وطلبوا منّي حضور دورة شرعيّة لتأهيل معلّمي الطّلّاب للدِّين الخاصّ بهم، فرفضتُ أيضًا. لم يعجبْهم ما فعلتُ، لكنّهم سكتُوا. كرههم النّاسُ، وقاوموهم بطرائق مختلفة. كلّ منّا قاوم بطريقته، وكان الرّفض طريقتي.

توقّف المدرّسون عن التّدريس، وأُغلقت المدارس، فجمعتُ طلّابًا في غرفتنا الصغيرة، ودرّستُهم. لم تعرف الهيئة الشّرعيّة بما كنتُ أقوم به، فقد كنّا نازحين في مكان ناءٍ. حصلتُ على تعاطف شعبيّ، وتستّرنا بداية على الأمر، لأنّ النّاس رفضوا "داعش" وما يقوله. ساعدني الأهالي، ودفعوا مبالغ بسيطة جدًّا، لكنّني لم أهتمّ بالمال، على الرّغم من جوعنا. تابعتُ في المدرسة الصّغيرة ببيتي، واستمرّ الأمر هكذا لأشهر عدّة، حتّى دهمتْنا "الحسبة" في المنزل، لأنّها عرفتْ أنّني أُدرّس الطّلّاب. حقّقتْ معي، وقالتْ إنّ ما أفعله ضدّ الدِّين، قلتُ إنّني أعلّم الأطفال القراءة والكتابة والرّياضيّات، وهذا ليس ضدّ الدِّين، فأصرّتْ جماعة "الحسبة" على أن أكون ضمن برنامجها التّعليميّ، وعرضتْ عليّ مبلغًا كبيرًا، كان

"الدّواعش" يؤسّسون لدولتهم، فرفضتُ عرضهم، فأوقفوني عن التّدريس. كانوا يفتّشون المدارس والبيوت، ليتأكّدوا من أنّ لا أحد يُدرِّس أولاده في البيت. عشنا في جحيم ورعب معهم! قلتُ لهم أنا أعتزل التّدريس نهائيًّا، وأغلقتُ المدرسة البيتيّة، لأنّني خفتُ أن يذبحوني.

لم أعد أعرف ما أفعل. كنتُ مخطوبة، وخطيبي في ألمانيا، فقرّرتُ أن أخرج من المكان، فأنا لا أريد البقاء مع هؤلاء الوحوش في المكان نفسه. كانوا يُروّعون النّاس في الأسواق بالذَّبْح وقَطْع الأعضاء. رفضتُ أن أشاهد عمليات قَطْع الرّؤوس والأعضاء، ولم أكن أخرج لمشاهدة ما يفعلون.

كان عليّ أن أذهب إلى دمشق معقل النّظام، من أجل الحصول على جواز سَفَر. و"الدّواعش" يمنعون المرأة من السّفر وحيدة من دون محرَم. مُنعت النّساء من التّحرّك وحدهنّ، فذهب أخي معي. لقد عشنا في سجن كبير، اسمه الحياة معهم. لم نعد نرى النّساء في الشّوارع، اختفينَ كلّهنّ. كنّ يخرجنَ للضّرورة مع الآباء أو الإخوة أو الأبناء. كان هذا قانونًا، ومَنْ يُخالفه يتعرّض للجَلْد والحَبْس، وأخبار "الرّقّة" كانت تزيدنا رعبًا منهم.

عندما ركبتُ الحافلة المتوجّهة إلى دمشق، حيث سأحصل على جواز سَفَر، رفعتُ النّقابَ لأتنفّس. قال السّائق إنّه يجب أن أُبقي النّقاب وأنا في الحافلة، لأنّ "الدّواعش" على الحواجز لا يريدون رؤية وجوه النّساء. كنتُ أشعر بأنّني أختنق، وأحتاج إلى التّنفس. ثمّ قال إنّهم سيُعيدوننا من حيث أتينا، إذا ظهر وجه امرأة، وهو يفعل ذلك من أجلنا، لأنّه اختبر الأمر قبلًا، كانت الكراسي في أوّل الحافلة للرّجال، وفي آخرها للنّساء، جلس أخي مع الرّجال، ونحن النّساء حُشرنا في المقاعد الخلفيّة.

التّدقيق على حواجز "داعش" مثله على حواجز النّظام وأسوأ، قلتُ لهم إنّني مريضة، كان العناصر من خارج سورية، أظنّهم من تونس وليبيا والجزائر، يتحدّثون العربيّة الفصحى، لم يكن بينهم سوريّ واحد. بعد عبور حاجزهم، أوقفَ السّائقُ الحافلةَ، وقال ارفعنَ النّقاب، أظهرنَ وجوهكنّ، لن نعبرَ حاجزَ النّظام إذا كنتنّ تضعنَ النّقاب، فخلعْنا العباءة والنّقاب، وتنفّستُ، بقي حجابي العادي. كنّا نُبدِّل ثيابنا حسب كلّ حاجز.

في طريق عودتنا في اليوم نفسه، اعتقلَني أحد حواجز "داعش"، كان هذا فقط لأنّ ثوبي ظهر من تحت العباءة عندما نزلتُ من الحافلة. لم يكن ثوبًا أسود، فأخذتْني جماعة "الحسبة"، وفيها سوريّون، حقّقتْ معي لساعات، لتتأكّد أنّ مَنْ معي هو أخي، ثمّ أخذتْنا إلى مبنًى خاصّ بـ "الحسبة". كانت فيه غرف كثيرة، والمحقّق شيخ دِين. قال لي المحقّق التّابع للهيئة الشّرعيّة إنّني أرتدي ثيابًا مخالفة للقوانين، وأعطاني محاضرة في الحشمة والتّستّر والأخلاق. أنا كنتُ فعلاً مغطّاة بالكامل بالأسود كما يريدون، لكنّه أصرّ على أن يعطيني عباءة من عنده وثيابًا قال إنّها قانونيّة وشرعيّة، ونحن النّساء كنّا أصلاً مُلزَمات بارتدائها، وجعلني أدفع ثمنها، ثمّ احتجزَني عناصر التّنظيم حتّى يأتي شيخ آخر من الهيئة الشّرعية يقرّر أمري. لم أجادلهم، كنتُ أعرف أنّ مصيري سيكون قَطْع الرّأس في حال غضبهم. سَكَتُّ. وقلتُ للشّيخ: سمعًا وطاعة. كانوا متشدّدين، وصارمين فيما يتعلّق بقضايا النّساء التي تشغلهم كثيرًا، يصيبهم الجنون فيما يتعلّق بظهورنا ووجودنا. لديهم في "الحسبة" غرفة خاصّة بالعباءات والأحذية السّود، ويجب ألّا تُصدر هذه الأحذية صوتًا. قال لي الشّيخ إنّه إذا مشت المرأة، وأصدر حذاؤها صوتًا، فهذا يعني أنّها تفتنُ الرّجل، وهذه مَعصية، ويجب أن تمرّ المرأة أمام الرّجل بصمت تامّ.

الغرفة التي احتجزوني فيها صغيرة جدًّا، وكانت معي امرأة عجوز، كنتُ أرتعد من الخوف، خفتُ أن يجلدوني عَلَنًا، لأنّ هذا سيجلب العار لأهلي.كانت تهمة المرأة العجوز أنّ ابنها في"الجيش الحُرّ" الذي يعدّون عناصره كفّارًا، وكانوا قتلوا كُثرًا منه. في الغرف الأخرى، نساء محتجزات، لأنّهنّ خرقنَ قانون الالتزام باللّباس والنّقاب، وكانت الغرف حولنا مخصّصة لتأديبهنّ. سجن الرّجال كان في الغالب لعناصر"الجيش الحُرّ"، وغالبًا ما كانوا يقطعون رؤوسهم.

جاء الشّيخ الأعلى مرتبة، وكان يتكلّم الفصحى، ولا أظنّه سوريًّا. حقّق معي في تفاصيل ثيابي كلّها وحجابي، وصرخ بي أني متبرّجة، وغير محتشمة، وأُثير الرّجال حولي، وأعطاني مجموعة كُتُب عن أهمّيّة الالتزام بالدِّين. كنتُ مندهشة لأنّني كنتُ مغطّاة بالأسود فعلًا!

بقيتُ بلا طعام طَوَال الوقت. أعطوني ماء فقط، ثمّ أتوا بامرأة اعتقلوها، لأنّها تسافر وحدها، وعقاب سَفَر المرأة من دون محرَم أربعون جَلْدة على الظّهر. جلدوها، وأخذتْ تئنّ من ألم الجروح في ظهرها. قرّرتُ أن أفعل ما يريدون. لم يكن يناقشهم أحد في تلك الفترة، فالموت وقَطْع الرّؤوس والأعضاء، كان أسهل ما يقومون به. كنتُ أقول لهم: سمعًا وطاعة دائمًا، لأنّني أردتُ النّجاة فقط.

قالت المرأة التي جُلِدَتْ إنّ رجال "داعش" جلدوا نساء قرى "دير الزّور" عندما دخلوها، فاحتجّت النّساء عليهنّ، لأنّهنّ لا يردنَ وَضْع النّقاب. قالتْ لهم إحدى نساء القرى: نحن نخبز الخبز، ومكاننا صحراويّ، ولا نستطيع وَضْع النّقاب، ونحن نعمل في الأرض، فكيف سنضعه؟ لن نستطيع العمل، فجلدوهنّ بقسوة ووحشيّة، ورموهنّ في السّاحات، وكان

أهل "الحسبة" يدورون حول بيوت النّاس، ويراقبونهم من النّوافذ، وإذا رأوا امرأة لا ترتدي الزّيّ المفروض كانوا يعتقلونها في "الحسبة"، ويجلدونها على الملإ. قرّروا أنّ أصابع المرأة يجب ألّا تظهر، وعليها وضع قفّازَيْن سوداوَيْن، وعيناها أيضًا ممنوعتان من الظّهور. أيّ امرأة تُجلَد على الملإ، تجلب العار لأهلها ولعشيرتها حتّى لو أدرك الجميع في قرارة أنفسهم ظلم ما يفعله "الدواعش". جلدوا النّساء في السّوق عَلَنًا. في إحدى المرّات، كانت امرأة تنتعل حذاء، له كعب عالٍ قليلًا! جلدوا قَدَمَيْها في السّوق على الملإ، وكانوا يجمعون النّاس ليشاهدوا الجَلْد وقَطْع الرّؤوس. كانوا يلاحقون النّساء في كلّ مكان. امرأة أخرى ظهرتْ أصابعها من دون قفّازَيْن، جلدوها بشكل وحشيّ على أصابعها حتّى نفرت الدّماء منها. وكذا جلدوا امرأة أخرى، لأنّ حذاءها أصدر صوتًا. فعلوا ذلك كلّه علانية أمام الجميع. ولم يكن يجرؤ أحد على الاعتراض. منعُونا من حمل الحقائب على الكتف، قالوا إنّ حمل المرأة حقيبة الكتف يثير الرّجال، وفيه تبرُّج وإغواء، ومنعونا من دخول محالّ تجاريّة، فيها رجال. كان هناك قانون يسمح للنّساء بالبيع شرط أن يضعنَ النّقاب في المحالّ طَوال النّهار، ويضعنَ القفّازات السّود. كان دخول المرأة متجرًا من دون محرَم جريمة كبيرة، ومُنع عرض الألبسة النّسائيّة في المحالّ، لذلك لم نكن نحن النّساء نذهب إلى السّوق. فضّلنا البقاء في البيوت. فقد كانت السّوقُ المكانَ الذي يقطعون فيه الرّؤوس، لذلك لم أكن أذهب إليها.

لي قريب ترك "الجيش الحُرّ"، كان من قرية "الحجن"، وجاء إلى "داعش"، ففُرضتْ عليه التّوبة عند الشّيخ، فخضع لهم، وذهب ليتوب. لكنّ الشّيخ رفض توبته كما يُقال، فاعتقلوه، وأخذوه إلى السّوق، هو مع شابّ آخر من الميادين، علّقوه على عمود، وقالوا للنّاس المتجمّعين

حوله: هذا مُرتدّ من "الجيش الحُرّ"، فقال لهم: أنا لستُ مرتدًّا، كنتُ مع "الجيش الحُرّ"، لكنّني لستُ مع أحد، ولا أريد القتال. رأيتُ رجلًا من "الدّواعش" يمسك بسيف، ويقطع رأس قريبي، والنّاس يشاهدون. كان أكثرهم من الأطفال، علّقوا رأسه أمام الجميع، وصلبوا جسده، ثمّ تركوه ليومَيْن عبرة للنّاس. منذ ذلك اليوم، توقّفتُ عن الذّهاب إلى السّوق، لأنّني لا أريد أن أرى ذلك مجدّدًا، بعد أن صارت الرّؤوس المعلّقة في ساحة السّوق أمرًا عاديًّا بشكل يوميّ. مرّتْ حياتنا بلا تسوُّق، كُثُرٌ فعلوا مثلنا، وابتعدْنا من التّجمّعات.

كان "الدّواعش" يطلبون من الشّباب الانضمام إليهم للقتال معهم، فهرب إخوتي الشّباب، وبقيتُ أنا وأمّي أبي وأختي الصّغيرة. بقينا هكذا لأشهر، بالكاد نخرج لنأتي بالطّعام، كنّا مثل سجناء، حتّى استطعْنا الهرب إلى تركيا. طريق الهروب واللّجوء كان قاسيًا وصعبًا، لأنّنا احتجْنا إلى وقت طويل، لنهرب من حواجز "داعش" و"الكتائب" الأخرى، والقصف لم يكن يتوقّف طَوَال الوقت.

لقد قرّرتُ وأهلي الخروج، فالموت ونحن نحاول النجاة أهونُ من البقاء. خرجْنا بطريقة التّهريب عبر الجبال، ونجوْنا. عبرْنا البحر وغابات وحدودًا. كان الموت يطاردنا! لكنّنا نجوْنا وعشْنا!

أنا الآن لاجئة مع زوجي في ألمانيا، أتعلّم اللّغة الألمانيّة، وأهلي نجوا أيضًا. قَهْري وحزني لا أستطيع الحديث عنهما ووصفهما الآن. ربّما في المستقبل.

الرّاوية السّابعة

أنا "ليلى" من "حمص" من حَيّ "كرم الزّيتون". عندما بدأت الثّورة، كان عمري سبعًا وعشرين سنة. أعيش بين دمشق و"حمص". عائلتي تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وأهلي قدموا من "الجولان"، نزحوا وتفرّقوا في أنحاء سورية في حرب الأيّام السّتّة عام ١٩٦٧ (*). لجؤوا أوّلاً إلى قرية "شبعا" في لبنان، ثمّ إلى دمشق، ثمّ انتقلوا إلى حَيّ "كرم الزّيتون" منذ عام ١٩٧٢. كان أبي بعثيًّا مُلتزمًا، ومشهودًا له بنظافة اليد والأخلاق، وقد حرص على تعليمنا وجعلنا نُكمل دراساتنا في الجامعة.

عندما بدأت الثّورة، لم يكن لي اهتمام بالسّياسة، لكنّني عرفتُ أنّ هناك تظاهرات ضدّ نظام الأسد. بداية لم أُصدِّق ما أسمعه، بخاصّة أنّني من عائلة موالية. وحافظ الأسد بالنّسبة إلى عائلتي كان مُنقذ سورية والفقراء، وباني سورية الحديثة. تربّيتُ على أنّه أبونا جميعًا.

في دمشق، كان أصدقائي يتحدّثون أمامي عن تفاصيل ما يحصل في التّظاهرات، فدخلتُ إلى عالم "الفايسبوك"، لأتابع بشكل سرّيّ ما يحصل. كنتُ ومجموعة من أصدقائي نراقب الحوادث، وقد أدركتْ هذه المجموعة،ومنذ اللّحظة الأولى - لأنّها من أوساط مختلفة ومعارضة – أنّ شيئًا ما يحصل، وأنّ ما يقوله النّظام وإعلامه غير صحيح. وكان لي أصدقاء

*) هي الحرب المتعارَف عليها باسم نكسة حزيران، ودارتْ بين إسرائيل وسورية ومصر والأردن، عام ١٩٦٧، كان من نتائجها نزوح عدد كبير من السّكّان من مناطق عدّة، استولت عليها إسرائيل، في مصر وفلسطين ولبنان وسورية، منها منطقة الجولان التي تتحدّث عنها الرّاوية.

ومعارف في "الغوطة"، يروون لي رواية مختلفة عن رواية النّظام، وعندما أعود في نهاية الأسبوع إلى بيت أهلي، أسمع النّقيض. لقد شككتُ بداية في ما يقوله أصدقائي، وفي ما يقوله أهلي وجماعة النّظام. لم أُصدِّق الطَّرَفَيْن، وكانت أكثر الأوقات جداليّة وصعوبة بالنّسبة إليّ وقت اعتصام "حمص" عام ٢٠١١ في الشّهر الرّابع(*). بحثتُ في حقيقة تلك الحوادث. كنتُ في دمشق عندما اتّصلتْ أختي فجر يوم في الرّابعة صباحًا بقَصْد إسماعي أصوات التّكبير، وكانت مذعورة، وقالتْ: إنّ النّاس يكبّرون في الجوامع، ويدعون إلى الجهاد، وإنّهم سيقتلوننا. كان التّكبير يخلق رعبًا عند العَلَويّيْن، بخاصّة أنّه ارتبط بذكرياتهم عن الخوف والمجازر(**). كانت تلك اللّحظة فاصلة ومُخيفة، وبداية التّحدّي الوجوديّ بالنّسبة إليهم.

---

*) سُمّي اعتصام السّاحة يوم ٢٠١١/٤/١٨، حيث دعا المتظاهرون ضدّ نظام الأسد إلى اعتصام شعبيّ، بُثّ مباشرة على الهواء عبر القنوات الفضائيّة، في منتصف اللّيل، تم إطلاق النّار على جموع المعتصمين من قِبَل القوّات الموالية لنظام الأسد، وكانت النّتيجة مجزرة مروّعة، راحت ضحيّتها أعداد كبيرة من المَدَنيّين، لم يُعرَف عددهم، لأنّ الأرقام لم تُوثَّق بالدّقّة المطلوبة، حيث إن كُثُرًا من الذين سقطوا في السّاحة، حُمّلت جثثهم في شاحنات، ولم يُعرَف مصيرها.

**) في التّاريخ السّرديّ للعَلَويّيْن، ذكريات عن مجازر وحشيّة ترقى إلى فعل الإبادة عانوا منها عندما تمّ تكفيرهم وهرطقتهم، ولعلّ واحدة من أكبر ذكريات رعبهم هي المجزرة التي قام بها السّلطان العثمانيّ سليم الأوّل عام ١٥١٧، عندما دخل في شهر آب مدينة حلب، وأعطاهم الأمان، وجمع رجالهم، ثمّ قام بمجزرة مُروّعة بهم. هناك اختلاف في دقّة عدد ضحايا تلك المجزرة، ويتراوح بين ٤٠ ألف رجل و١٠٠ ألف، ثمّ استباح السّلطان سليم بعد ذلك مدينة حلب لثلاثة أيّام بلياليها. والتّنكيل الذي عاشه العَلَويّون إبّان حكم صلاح الدّين لا يقلّ ترويعًا عن الذّبح والنّفي والتّفريق بين العائلات، وكان لفتوى ابن تيمية بتكفيرهم والدّعوة إلى قَتْلهم، الأثر البالغ في ملاحقتهم، وارتكاب المجازر بهم. وكانوا يُسمّون حينذاك النُّصيريّيْن. وشُنّتْ عليهم حملة كبيرة قبل مئات السّنوات من مجازر حلب في جبال كسروان في لبنان، أدّتْ إلى تشريدهم وهروبهم إلى مناطق اللاّذقية، وانكفائهم في مناطق بعيدة في الجبال، لا يصل إليها جنود العثمانيّين. نشأت عبر التّاريخ مظلوميّة كبرى لدى هذه الطّائفة نتيجة المجازر المتلاحقة والاضطهاد والتّنكيل التي تعرّضوا لها لمئات السّنوات، وهم يُشكّلون تقريبًا نسبة ١٢٪ من عدد سكّان سورية. والحديث عن الخوف من تكبير الجوامع يتعلّق بالدّعوات المرتبطة بتاريخهم السّرديّ المتوارث شفويًّا وشعبيًّا عن ذكريات المجازر التي كانت تسبقها دعوات وتكبير في المساجد إلى قَتْلهم.

الحقيقة أنّه، وفي اعتصام السّاحة في حمص، كان هناك بين المتظاهرين مسيحيّون وعَلَويّون، وكان الاعتصام مَدَنيًّا، وليس طائفيًّا. لكنّ الإشاعات انتشرتْ بين حارات العَلَويّيْن أنّ هذا الاعتصام هو لمجموعة من المتطرّفين، يحملون السّلاح، ويدّعون السِّلْميّة، لكنّ مقصدهم كان قَتْل العَلَويّيْن، لذلك قَتَلَ النّظام المتظاهرين، ووصل إلى أحيائنا أنّ قَتْلَ النّظامُ النّاسَ كان لأنّهم متطرّفون. والذين قُتلوا هم إرهابيّون. كذب النّظام، فالذين رفضوا فكّ الاعتصام قُتلوا، ولم يكونوا متطرّفين في بداية التّظاهرات، لذلك عندما اتّصلتْ أختي، كان رعبها حقيقيًّا. ولكنْ، في حارات العَلَويّيْن لم يُعرَف أنّ التّكبير كان بعد أن قُتِلَ المتظاهرون، حيث تردّدتْ إشاعة أنّ الجوامع تدعو النّاس إلى الجهاد ضدّ العَلَويّيْن من دون أن يعرف أهل الحارات ما حصل حقيقة في السّاحة.

بعد اعتصام السّاحة ذاك، بدأ المتظاهرون ينتشرون في أماكن عدّة، ويتفرّقون، وكبرت نقاط التّظاهر. وفي نهاية الشّهر الخامس من عام ٢٠١١، كنتُ في "حمص" عند أهلي، وكانت هناك تظاهرة في حَيّ "كرم الزّيتون"، حارتنا يسمّونها حارة النّازحين، وهي عبارة عن شارعَيْن متوازيَيْن، يقطنهما العَلَويّون، حولها تظاهرات كثيرة. في الجهة المقابلة، كان التّطوّر عشوائيًّا في حَيّ "كرم الزّيتون"، وأهله من أرياف "حمص" فقراء ومتديّنون، وفيهم بدو أيضًا. من هناك، خرجت التّظاهرات. رأيتُ المتظاهرين. كانوا مُلثّمين، ويركضون أمام رجال الأمن، ويدعون النّاس إلى التّظاهر، جاؤوا إلى حارتنا، يدعون الأهالي إليها أيضًا، وهم يصرخون: حافظ الأسد باع "الجولان"، وهم يعرفون أنّنا نازحون من "الجولان". كانوا يحاولون استمالتَنا لهذا السّبب، ولكوننا جيرانهم في الحَيّ، وسمعنا هذا جميعًا. كانوا مُجرّد شباب صغار، يخبطون أبواب المخازن، ويستفزّون الّذين لم يخرجوا إلى التّظاهرات. لكن

النّاس في حارتنا لم يعيروهم اهتمامًا، وهنا ظهرتْ أوّل ملامح التّعبير عن انتمائهم إلى طائفتهم عَلَنيّة. أمّا في السّابق، فقد كانوا على خلاف مع عَلَويّي البلد الآخرين، والخلاف لم يكن دِينيًّا تمامًا، إنّما في طريقة الحياة، فلم تكن تُعجبهم مغالاتهم بعَلَويّتهم، واستغلالهم إيّاها أحيانًا، للوصول إلى أهداف خاصّة. وكانوا يشعرون بأنّ عَلَويّي الشمال يرون أنّهم أقلّ شأنًا منهم، حتّى عندما كان أحد منهم يتزوّج بعَلَويّة من الشّمال، كان النّاس يقولون بحسرة لقد تزوّج "شماليّة"، أي قبول على مَضَض مع تغاضٍ عن كونها من الطّائفة نفسها. لم يكونوا أبدًا في الماضي في تماهٍ مع العَلَويّيْن الآخرين، وكانوا يشبهون أكثر أهل الجنوب السّوريّ: أهل السّويداء وحوران بعاداتهم ولباسهم وأغانيهم وطعامهم ومناحي الحياة جميعها.

بعد امتناعهم عن المشاركة في التّظاهرات، سمعْنا إطلاق نار قويًّا، ونحن في بيتنا، تعرّضْنا لإطلاق نار عنيف من ناحية التّظاهرات. انبطحْنا أرضًا، كان هذا حقيقيًّا، وكنتُ على وشك الجنون! فقد بدا أنّ المتظاهرين مسلّحون، وهذا ما كنتُ أنفيه أمام أهلي، وما كنتُ أعرفه من أصدقائي في دمشق! لم نعرف حقيقة مَنْ كان يهاجمنا بالرّصاص الكثيف هذا. كدنا نموت! المرّة الأولى التي كنتُ أشعر فيها بشَلَل من الرّعب كانت في تلك الأثناء. تعرّضْنا لإطلاق نار كثيف على مدى ٢٤ ساعة متواصلة، حتّى إنّنا لم نذقْ طَعْم الأكل ولا الشّرب طوال هذه المدّة. اتّصل بعض من أهل الحارة بالشّرطة وبالمحافظة، بسبب الخوف والذّعر، فقد كانت البيوت تُهاجَم بعنف.واتّصل أبي بمعارفه في الحزب، وبعض المسؤولين، وأبلغهم بالأمر. توقّعْنا أن تأتي الشّرطة، لكن النّظام لم يُرسِلْ أحدًا، والنّاس ينتظرون حماية الدّولة، كانوا يقولون: الدّولة لن تسكتَ، ستُرسل الشّرطة. لكنّنا بقينا وحدنا، ولم يتمّ إرسال أيّ جهة أمنيّة أو عسكريّة لحمايتنا، وتردّدت

الإشاعات أنّ الذين يُطلقون الرّصاص هم من سُنّة حَيّ "كرم الزّيتون"، أي جيراننا الذين يتظاهرون. قال أهالي حَيِّنا إنّ السُّنّة سوف يقتلوننا، ورأيتُهم بعد توقّف إطلاق النّار كيف كانوا هلعين، وجوههم مثل الموتى! في الواقع، نحن محاطون بالسُّنّة في حارة النّازحين. فالعَلَويّون يُشكّلون من مئة ألف، حَواليَ خمسة آلاف فقط. علاقتنا بهم لم تكن جيّدة. أذكر في طفولتنا عندما كنّا نريد اجتياز حاراتهم، كان يرافقنا أحد أقربائنا الشّباب، لأنّهم محافظون ومُتزمّتون، ونحن سافرات، علمًا أنّ أهل حارتنا كانوا محافظين أيضًا، بسبب الجوّ العام للحَيّ، لكنّنا طبعًا لم نرتدِ الحجاب يومًا. ارتدتْهُ أختي لاحقًا بعد بدء التّظاهرات في "حمص" - وبعض العَلَويّات طبعًا - هي تقطن حَيّ "الزّهراء"، لأنّها كانت مضطرّة للذّهاب إلى عملها، والمرور في حارات السُّنّة. كان الأمر مضحكًا بالنّسبة إليّ، لأنّني اعتقدتُ أنّه من السّهل اكتشاف العَلَويّات اللاتي يضعنَ الحجاب حديثًا، وأنّ هذا لن يحميهنّ. كانوا ينظرون إلينا بطريقة غير لائقة، وكان أكثر ما يخيفنا، ونحن صغار، طبيعة أبنيتهم المغلقة. لم تكن لنا صلة عميقة معهم. كانت مُجرّد علاقات بسيطة، تتطلّبها المصلحة المشتركة. كانت علاقتنا مع البدو القاطنين الحارة أفضل، لأنّهم أقلّ تعصّبًا. كانت جارتنا البدويّة تجلس أمام بيتها مع أولادها، ونتجاذب أطراف الحديث. أهل "كرم الزّيتون" ليست لديهم هذه العادات، نساؤهم ربّات منازل، ولديهم كثير من الأطفال، وهم فقراء عمومًا. كان هناك حاجز معنويّ وحاجز فعليّ بيننا وبينهم. لم أفكّر قبلًا في السّؤال عن حقيقة العلاقة السّيّئة هذه. كنتُ أقول مُجرّد عداء طائفيّ، لا قيمة له. لأنّنا في النّهاية سوريّون. هكّذا فكّرتُ دائمًا قبل أن تقع الكارثة!

بعد تلك الحادثة الفاصلة التي هُوجمنا فيها، ولم تتدخّل الدّولة، اجتمع شباب الحارة ورجالها، وفكّروا في اقتناء السّلاح لحماية أنفسهم

من أهل حَيّ "كرم الزّيتون". لم يكن الخطاب المتداوَل بينهم إلّا عن حماية أنفسهم من السُّنّة الذين هاجموهم لأربع وعشرين ساعة بالرّصاص. كانوا على قناعة تامّة بأنّهم يُقتَلُون، كنتُ بينهم، وشهدتُ ما حصل، لقد هُوجمنا بالفعل، وأنا نفسي كدتُ أُقتل! لذلك، تشتّت فكري أكثر، ولم أعد أفهم شيئًا. وشكّك أهل حارتنا في الحكومة للمرّة الأولى، وكانوا غاضبين جدًّا.

انطلقتْ تظاهرة بعد أيّام عدّة، تمّ فيها تبادل إطلاق رصاص عنيف بين الطَّرَفَيْن، لقد رأيتُ السّلاح في أيدي شباب الحارة. أنا أفكّر دائمًا في أنّ استخدام السّلاح يختلف من مكان إلى آخر في سورية. فهناك أماكن خرجتْ فيها تظاهرات سِلْميّة، إلّا أنّ ما حصل في منطقة حسّاسة مثل منطقتنا فيها مواجهة مباشرة بين العَلَويّيْن والسُّنّة، أن السّلاح خرج وانتشر قبل الأوان. كان مضى شهران على بدء الثّورة عندما تعرّضْنا لإطلاق نار كثيف، وعندما سمعتُ إطلاق النّار بين الطَّرَفَيْن، تأكّدتُ أنّ كارثة ما قادمة. كانت المسافة قريبة جدًّا بيننا وبينهم، يفصل شارع واحد بين الجهَتَيْن، وسمعتُ لأوّل مرّة أهل الحارة يقولون: هذه أرض الأسد، اخرجوا منها، فخفتُ أكثر من هذا التّفاخر بنظام الأسد بهذا الشّكل. كان هذا بداية الرّعب الذي سيكبر ويكبر.

أشعل متظاهرو حَيّ "كرم الزّيتون" الإطارات، واختبؤوا وراءها، وكان هناك إطلاق نار مستمرّ علينا. حاولتُ معرفة كيف وصل السّلاح إلى المعارضة، في بلد استخباراته بهذه القوّة والسّطوة، وكيف تمّ إطلاق النّار والاستخدام المُعلَن والمهول للسّلاح، من دون أيّ ردّ فعل من الدّولة. وفي الوقت نفسه، كيف تمكّن لاحقًا شباب حَيّنا من اقتناء السّلاح، ومن أين أتوا به. كنتُ دائمًا أطرح هذه الأسئلة الّتي لم تُعجب أهلي وأهل حارتنا، ما

أدخلَني في جدال شائك وعميق ومضنٍ مع العائلة، لا يخلو من الإهانات والكلام الجارح لي في كثير من الأحيان. انتهى في مرحلة لاحقة عندما قالتْ لي أمّي وهي تبكي، بعد أن استخدم أهلي الوسائل كلّها لإقناعي بما يعتقدون، ولم يتمكّنوا: "إذا رح تضلّي تحكي متل هدول الإرهابيّينْ المسلّحين، فلا إنتِ بنتي، ولا بعرفكْ".

في الأيّام التّالية، نُصب حاجز أمنيّ لأوّل مرّة. رأيتُ دبّابة وعناصر الجيش أمام بيتنا. كان الحاجز على مداخل حارات العَلَويّينْ، وواجهت الدّبابّة إطلاق النّار من حَيّ "كرم الزّيتون" بالقصف، ثمّ بدأ النّاس ينزحون من بيوتهم في حَيّ "كرم الزّيتون". اشتدّت المواجهات، ونُصبت هناك حواجز للنّظام، وحواجز للمعارضة. قُتل كُثُرٌ من أبناء حارتنا، وقُتل ابن عمّي برصاص قنّاصة، قالوا إنّ القنص كان من حاجز قريب من المسلّحين. جاءت الرّصاصة في القلب تمامًا. شمل النّزوح أيضًا أهل حارتنا. تركت النّساء مع أطفالهنّ بيوتهنّ، ونزحنَ إلى حارات أبعد. كانت المواجهات قويّة، والحارة صارت خطّ جبهة. ما حصل جعلني أقرّر أن أنزل إلى الشارع، وأرى ما يحصل حقيقة.

في دمشق، شاركتُ في تظاهرة حيّ "الميدان" بداية عام ٢٠١٢. في تلك التّظاهرة، كان الوضع مختلفًا، إذ كان فيها شباب وفتيات، يحملون أعلام الثّورة. عندما انطلقت التّظاهرة، تحجّبت الفتيات كلّهنّ، وأخفينَ وجوههنّ، وكنّ يمشين في الوسط، والشّباب حولهنّ يحمونهنّ. كان الهتاف "سورية بدها حرّيّة"، وأنا هتفتُ، وصرختُ، وسمعتُ صوتي، خرج عفويًّا منّي. أنا أريد سورية حُرّة فعلًا، وأيقنتُ أنّ هذه التّظاهرة جزء من الثّورة. خلال دقائق، جاء رجال الأمن، فركضْنا، ونحن نسمع أصوات إطلاق النّار.

كان أصدقائي يشاركون في تظاهرات، ويخبرونني بما يحصل. أصبحت الصّورة مكتملة وواضحة لي. إنّ ما يحصل في منطقة مختلف عمّا يحصل في غيرها غالبًا، وإنّ رجال الأمن قَتَلُوا متظاهرين عمدًا. والحواجز التي انتشرت كانت اعترافًا بأنّ هناك غليانًا شعبيًّا ضدّ الأسد. حينذاك، أيقنتُ أنّ النّظام أراد فرض سطوة أمنيّة، وأنّ أجهزة المخابرات تلاعبت فعلاً بالسُّنّة والعَلَويّيْن. وأنّه عندما تُركنا لأربع وعشرين ساعة نتعرّض لإطلاق النّار في حمص، لم يكن عَبَثًا.

لقد تأكّدتْ شكوكي في أنّ الشّعب السّوريّ لا يريد بشّارًا. كانت هناك فئات كبيرة لا تريده، وتظاهرات الاحتجاج السِّلْميّ تُنبئ بذلك. مثل إضراب "الكرامة"، لكنّ النّشاطات السِّلْميّة كانت تبدو تخريبيّة. عندما كنتُ أعود إلى "حمص"، أسمع من أهل حارتنا أنّ المتظاهرين يُخرّبون البلد، وأنّ أماكن تظاهراتهم تتحوّل خرابًا. ورأيتُ بأمّ عيني بعد التّظاهرات كيف كانت حال المحالّ من خراب وتكسير. كان النّظام يردّد أنّ المتظاهرين يريدون تدمير البنية التّحتيّة للدّولة. في كلّ مرّة كنتُ أذهب إلى "حمص"، كنتُ أتعجّب من حجم التّخريب في شوارع التّظاهرات. لم أشاركْ في تظاهرات "حمص"، لكنّني في دمشق لم أرَ المتظاهرين يُخرّبون، فقد كنتُ بينهم.

تغيّرتْ "حمص" بعد شباط ٢٠١٢، فقد قُسم "كراج حمص" للحافلات بين السُّنّة والعَلَويّيْن. حصل هذا بطريقة لاشعوريّة، ولم أعد أستطيع الذّهاب إلى حارات المتظاهرين، وأهلي نزحوا، استأجروا بيتًا جديدًا، بالقرب من بيتنا، فقط للابتعاد من خطورة خطّ الجبهة، لأنّ حارتنا دُمّرتْ، وهُجِّر أهلها. لقد ساندها شباب عَلَويّون من بقيّة الحارات من "النّزهة" و"عكرمة" و"كرم اللّوز". ظلّ إخوتي يحرسون البيت، ويدافعون عنه. في

إحدى المرّات، جاء أحد إخوتي مذعورًا، قبل أن ننزح، وأخبرنا بأنّ الجيران يقولون إنّ أهالي حَيّ "كرم الزّيتون" يريدون سبي نساء حارتنا للمتعة، وإنّهم سيستولون على بيوتنا. حاولتُ معرفة مَنْ يردّد هذه الأقاويل، فكان كلّ شخص يحيلني إلى شخص آخر. هكذا، لم أصل إلى منبع الكلام الذي انتشر بسرعة الرّيح بين عَلَويّي "حمص"، وعندما قلتُ لأخي يجب أن نحقّق فيما نسمعه، غضب، وقال لي إنّ مراهقًا مرّ البارحة من أمام محلّه، وأشار إلى أنّه سيذبحه، ثمّ هرب. هذه تفاصيل عشتُها فعلاً، وتهتُ فيها. ومذّاك أخذ الرّجال يطلبون من نساء حارتنا وَضْعَ الحجاب عند المرور بحارات السُّنّة، حتّى لا يتعرّضنَ للخطف. أنا رفضتُ، وقلت إنّني لا أخاف أحدًا. مرّة، قبض أهل الحارة على أحد الرّجال الذين كانوا يصرخون -يسمّونهم "الجعاريّيْن"(*) - في حارتنا: "السُّنّة يريدون قَتْلَنَا". ركضوا وراءه، ومعهم أخي. ضربوه، ليعرفوا منه مَنْ هو، ومَنْ وراء هذا الكلام، فلم ينطقْ بحرف، فسلّموه إلى رجال الشّرطة، وانتظروا معرفة النّتيجة، لكنهم رأوه بعد أيّام عدّة في حارة أخرى، يركض ويقول الجملة نفسها! وتكرّر هذا في حارات العَلَويّيْن. وفي كلّ مرّة، كان "الجعاريّ" يردّد أنّ أهل السُّنّة في الحارة المجاورة سيأتون لقَتْلهم، حدث هذا في أحياء "الأرمن" و"الزّهراء" و"عكرمة"، سمعتُ الرّواية نفسها من أقاربي ومعارفي. وهذا دليل أيضًا على منهجيّة عمل مُتقن لتهييج هؤلاء ضدّ السُّنّة.

تغيّر مفهومي وإدراكي لما يحصل، ليس بما شاهدتُهُ فقط، ولكنْ، ممّا حصل معنا في عملي، المكان الذي يُعبِّر أكثر عن سطوة النّظام، وعن صورته أمام بقيّة المواطنين، حيث صور الرّئيس في كلّ مكان،

*) نسبة إلى نوع من أنواع الكلاب، وأظنّ أنّ التّسمية هذه جاءت لأنّ هؤلاء الأشخاص كانوا يصرخون بأصوات عالية وخشنة، ويركضون كما تفعل الكلاب الجعاريّة.

وحيث المسؤولون المفصليّون ينتمون بغالبيّتهم إلى شريحة من الموالين والمدافعين عن صورة النّظام.

كان مديري المباشر مشتّتًا، ويخبرني بما يحصل، على الرّغم من أنّه بعثيّ، وله صلات قويّة مع مسؤولي النّظام. وهو نفسه كان مسؤولًا عن تسعين عنصرًا، يُنسِّق بينهم وبين جهة أمنيّة، لنَشْرهم في الجوامع. لم يكن رجل أمن. كان مؤمنًا بالبعث، لكنّه كان خائفًا. أَسَرَّ لي ذات مرّة، بأنّ حزب البعث خرج عن دوره كحزب، وأخذ دور الأمن. قالها لي حَرْفيًّا بخوف وعدم رضًا، ثمّ أضاف أنّ هذه أوامر عليا، ولا يستطيع مخالفتها. كان هذا في نهاية ٢٠١١، والعناصر الذين يتحدّث عنهم مسلّحون وسلاحهم مخبّأ. كانوا يُصلّون بين النّاس، أو يتظاهرون ببَيْع بضائع أمام الجوامع، أو في أيّ مكان يريدون مراقبته. مرّة، جاء مضطربًا. قال لي: العناصر سعداء بقَتْل النّاس، إنّهم سعداء لأنّهم يحملون أسلحة! هؤلاء العناصر لم يكونوا فقط من العَلَويّيْن. كان مهمومًا جدًّا، ويرى أنّ الأمور تسير نحو أسوإ، لكنّه نفّذ الأوامر المطلوبة منه كلّها.

أُجبرنا في عملنا على أن ننزل إلى الشّارع بمسيرات مؤيّدة للنّظام. والأمر الهزليّ في الموضوع هو أنّ هذا السّلوك، هو اعتراف كامل من النّظام ومواليه بأنّ هناك شارعًا معارضًا للأسد، وأنّ النّظام في ورطة، بخاصّة أنّ إعلامه كان يُردّد أنّ كل ما يتمّ تداوُله من صور للتّظاهرات كذب، وأنّه أمر مُلفَّق. كان عدد كبير من الموظّفين يعود أدراجه، ولا يُكمل تلك المسيرات، وكنتُ من هؤلاء، خصوصًا أنّ رؤساء الأقسام في الوظائف كانوا يشرفون بأنفسهم على إنزال الموظّفين إلى المسيرات. ثمّ كان الأمر الأهمّ، وهو كسر هيبة صورة بشّار أمامي وأمام الموظّفين الآخرين. وهو أمر حصل تدريجًا بعد

كلّ خطاب تابعتُهُ، وراقبتُهُ. كُسِرتْ هيبته وصدقيّته رجلاً ورئيس دولة. كنّا بداية نستمع لخطابه في عملنا، وفي أثناء ذلك يسود صمت تام وترقُّب. راقبْنا كلّ حركة يقوم بها، وسمعنا كلّ كلمة يقولها، وتأمّلْنا وانتظرنا منه فعل شيء لإنقاذ الوضع، أو أيّ قول يظهر أنّه على دراية بالحال، وعلى قدر المسؤولية أمام ما يحدث. بعد خطابَيْن، لم يعد أحد يكترث لما يقول، الموظّفون والمراجعون على حدّ سواء. تجاهلْنا ما يقول تمامًا. الأسد لم يقلْ أيّ كلام جدّيّ في خطاباته، ولم يتصرّف كرئيس، شعرتُ بأنّه إمّا أن يكون منفصلاً عن الواقع، أو أنّه لا يريد الاعتراف بالحقيقة، لأنّه ماض في خطّة تخصّه، ويرتاح لها، ونحن فعلاً كنّا آخر مَنْ يفكّر فيهم، أو مُجرّد وسائل مساعدة لتحقيق أهدافه. كان النّاس يموتون وهو يضحك. لقد سقط نهائيًّا في التّاريخ، حتّى لو بقي على رأس الحكم.

المشكلة الأكبر ظهرتْ في خطاب الشّيخ العرعور السَّلَفيّ، وتحوُّله واحدًا من رموز الثّورة السّوريّة، ثمّ اختفائه فجأة، وهو ما جعلني أرتاب أيضًا بطريقة حضوره. لكنّ الحقيقة أنّ المتظاهرين كانوا يتبعون ما يقول. وكان خطابه طائفياً تحريضيًّا ضدّ الأقلّيّات. هذا جعل أهل حارتنا يزدادون غضبًا وخوفًا. وانتشرتْ على شبكات مواقع التّواصل الاجتماعيّ، منشورات وفيديوات تزيد رعب العَلَويّيْن وهلعهم، تقول إنّ المتظاهرين يريدون إقامة دولة إسلاميّة، وسوف يذبحون العَلَوييْن. بدايةً، حاولتُ تفكيك مثل هذه الإشاعات بين السُّنّة والعَلَويّيْن، لكنّني وجدتُ نفسي ضائعة وممزّقة، أدور في حلقة مفرغة من الألم.

قبل المجزرة المعروفة في حَيّ "كرم الزّيتون"، حصلتْ مجازر صغيرة في هذا الحَيّ، لم أذكرها في بداية حكايتي، ارتُكبتْ في الشهر ١١ من عام

٢٠١١، لكنّها كانت مجزرة مفصليّة. حينذاك، ردّد أهل حارتنا أنّ هناك سَلَفيّيْن يفتحون الجدران، وسوف يصلون إلى بيوتنا، وهم ليسوا سوريّيْن. سمعهم أخي، ولم يكن يكذب، قال إنّه سمع رجالًا يتكلّمون الفصحى من وراء الجدران، لقد كانوا قريبين جدًّا من بيوتنا. هم المجاهدون الذين سكنوا البيوت التي هجرها أهل حَيّ "كرم الزّيتون" نتيجة قصف النّظام بالدّبّابات. ولم تكن هذه إشاعة، لأنّهم وصلوا واخترقوا الجدران، أمّا كيف وصل أولئك المجاهدون إلى هناك؟ومَنْ هم؟ فلم نكن نعلم! لكنّ صورهم ارتبطت بالثّورة في أذهان أهل حارتنا. هربت النّساء مع أطفالهنّ والعجائز من الحارة، وبقي الشّباب للدّفاع عن البيوت. عرفتُ بعد يومَيْن، أن هناك عائلة كاملة ذُبحت بالسّكاكين في "كرم الزّيتون"، ولم نعرف التّفاصيل، لأنّنا كنّا خائفين وفارّين. كلّ مجزرة كان يسبقها ترويع وتخويف للعَلَويّيْن، وتهجير من البيوت، لنكتشف في ما بعد أنّ مجزرة حصلت لعائلة من الطَّرَف الآخر. كان هذا يُبقي أهل الحَيّ صامتين ومذعورين، ويدفعهم أكثر إلى حمل السّلاح.

لم أعد أرى إخوتي، بسبب وجود قنّاصة من طَرَف "الكتائب"، فهم ظلّوا في البيت لحراسته. كانت المعركة كبيرة، بخاصّة في "حَيّ باب الدّريب". أُصيب أقربائي في أرجلهم بالقَنْص، وكانت الكهرباء مقطوعة في البيت الذي نزحْنا إليه. في إحدى المرّات، وبينما كنتُ أنا وقريبي نحاول دخول الحارة، تعرّضنا لإطلاق نار، قُتل هو، ونجوتُ أنا. كانت تلك المرحلة هي مرحلة اللّاعودة بالنّسبة إلى العَلَويّيْن بعد أن خسروا أرواحًا كثيرة. كانت حرب وجود، لأنّ ما قاله إعلام الثّورة من تكذيب ما يحصل لهم لم يكن صحيحًا دائمًا، لقد رأيتُ هذا، وسواء فعله النّظام أو فعلتْهُ "الكتائب المسلّحة"، فهو قد حصل.

زرتُ أهلي بعد المجزرة الكبرى في حَيّ "كرم الزّيتون"، وكانت ارتُكبتْ في ١٢ آذار ٢٠١٢، ورأيتُ ما جعلني أقرّر ألّا أعود إلى "حمص". وصلتُ إلى حارتنا، ورأيتُ بيوتًا على مدِّ النّظر مدمّرة ومحترقة. كان الخراب لا يُوصَف. لقد وُلدتُ في تلك الحارة، وكبرتُ فيها، وفجأة رأيتُ الشّارع المقابل مختفيًا تمامًا. دخل الجيش النّظامي، وهناك حصلت المجزرة. لم أستطع السّكوت. غضبتُ، وصرختُ. أصدقائي في دمشق رووا لي تفاصيل المجزرة من وجهة نظرهم. وعرفتُ ما فعله الجيش و"الشّبّيحة"، وأنا في الطَّرَف الثّاني، كنتُ أحاول فَهْم ما حصل. نحن النّساء والأطفال كنّا في الخطوط الخلفيّة، لكنّني بحثتُ، واستقصيتُ، وأجريتُ حوارات كثيرة لمعرفة الحقيقة. عدْنا إلى بيوتنا. لقد كنتُ يائسة تمامًا، لقد اختفى ما يقارب من خمسة وتسعين ألف شخص خلال أشهر من حَيّ "كرم الزّيتون"! الجيش لم يرتكب المجزرة. "الشّبيحة" هم الذين فعلوا ذلك. عرفتُ لاحقًا من أحد أقاربي أنّ هناك مكتبًا، مَهمّته تنظيف الأمكنة التي سيدخلها الجيش، بمعنى أنّ هناك أشخاصًا يرتكبون المجازر، ثمّ يدخل الجيش. هؤلاء لم يكونوا من "الشّبّيحة" التّقليديّيْن، كانوا مُدرّبين على القَتْل. تركتْهم الدّولة من دون حماية، وكان كلّ ما يتعلّق بتنظيم العلاقة بين الأمن وعمليّات التّهجير والتّنظيف، بمعنى القتل، مرتبطًا بذلك المكتب الذي يُنظّم مهمّات أفراده، ويوجّههم. حاولتُ الوصول إلى الأسماء، ومعرفة التّفاصيل أكثر، فنهرني ابن عمّي، وطلب منّي أن أسكت، وأخرج من الحَيّ، لأنّني قد أموت، إذا كرّرتُ محاولتي. الرّجال الذين يرتبطون بالمكتب والمرتبطون بالأجهزة الأمنيّة هم مَنْ ذبحوا الناس، وليس الجيش، أنا واثقة. كانت هناك اجتماعات بين قيادات الأفرع الأمنيّة وبين الشّباب الخائفين، الأجهزة الأمنيّة سيطرتْ ووظّفتْ هذا الرّعب بطريقة ذكيّة جدًّا.

جُرحتُ! انكسرتُ، تحطّم قلبي! ولم أعد كما كنتُ. كنتُ أشعر بأنّ داخلي حفرة سوداء. قرّرتُ ألّا أعود إلى "حمص". قلتُ لأهلي يومًا ما سيحصل لكم ما حصل لهم. وواجهتُ أبي بحقيقة أنّه ما من مبرّر يسمح لهم بفعل ما فعلوه، وبأنّهم لن يهربوا بفعلتهم حتّى ولو بعد حين، وكانت المرّة الوحيدة التي صَمَتَ فيها أبي أمامي، ولم يقلْ أيّ كلمة. هناك أشخاص من أهل الحارة كانوا تعساء وصامتين، وآخرون قالوا، كنّا سنموت في الأحوال جميعها، ونحن لم نفعل شيئًا. فقلتُ لهم لكنّكم سَكَتُّم عن حَرْق البيوت وقَتْل النّساء والأطفال. قال لي أحد شباب الحَيّ وكان مضطربًا ومشوَّشًا: "لقد أمرني ضابط الأمن بأن أحرق السّوبر ماركت، وأنا أحرقتُهُ. أنا أعرف أنّني فقدتُ إنسانيّتي في تلك اللّحظة، لكنّني لم أستطع إلّا أن أفعله ... أعرف أن عناصر النّظام وأجهزته قذرون، لكنّني لا أريد لأهلي أن يموتوا ذَبْحًا بأيدي السُّنّة". وقال شابٌ ثانٍ: "الأمر ليس هذا فقط، فقد قال لنا ضابط الأمن عندما دخلوا الحارة، إنّ الأسد لن يسقط، وإنّ العالم كلّه يقف معه، إذا أردنا أن نكون معهم، فأهلاً وسهلاً بنا، وإذا امتنعْنا، فلن يكون لنا وجود".

شباب حارتنا كانوا مأزومين جدًّا، ومحتقنين دائمًا، وفي بعض الأحيان، لم أعرف أأغضب منهم أم أحزن عليهم؟!

كانت لدى النّظام خطّة واضحة ومنظّمة، ويعرف ما يفعله. لقد ألقى بثقل المحنة على أهالي حَيّ "كرم الزّيتون"، لأنّه كان نقطة حسّاسة، ومواجهة مباشرة بين العَلَويّيْن والسُّنّة، لذلك عمل كثيرًا على الأمر. كان العَلَويّون أصلاً من النّازحين من أربعين سنة، واختيارهم لوَضْعهم في واجهة القتال كان ذكاء كبيرًا من أجهزة الأمن التي كانت تعرف أنّ هؤلاء بالذّات

ليس لديهم أيّ مكان يلجؤون إليه سوى بيوتهم وحارتهم هذه، العَلَويّون الآخرون لديهم قراهم البعيدة والمَحميّة، أمّا هؤلاء، فليس لديهم سوى حَيّ النّازحين.

كُثُرٌ من أقربائي وجيراني ماتوا، وكانت خيم العزاء منصوبة على الدّوام. ذهبتُ إلى دمشق، لم أعدْ أناقش أهلي، لم أقاطعْهم، حافظتُ على الحدّ الأدنى من العلاقة، لم أؤمنْ قطّ بالقطيعة، وأكثر من ذلك، كانت تُريحهم فكرة القطيعة، وتُسهِّل عليهم قول إنّ المعارضين كلّهم خَوَنَة، ويعيشون في الخارج، لم يكونوا مرتاحين لفكرة أن يكون بينهم مَنْ يزعجهم، ويُنغِّص عليهم عيشتهم الجديدة. وتابعتُ عملي في دمشق، كنتُ في غاية الإحباط واليأس والغضب.

كانت القذائف في دمشق تسقط علينا أيضًا. وقعتْ قذيفة في بيتي بدمشق، وقال لي صديقي الذي رآها قبل أن يأتي رجال الأمن مسرعين لأخذها أنّها للجيش السّوريّ. هو خدم في الجيش، ويعرف، ورجال الأمن لم يهتمّوا بغيرها، لا بأصحاب البيت، ولا بوجود ضحايا، قفزوا من على سطح بيت الجيران، أخذوا القذيفة على عجل، ورحلوا. هذا لا يعني أن "كتائب" المعارضة لم تُطلق قذائف، كانت تقصف دمشق بين وقت وآخر! وكنتُ أغضب أيضًا، لأنّ مَدَنيّيْن يُستهدفون، ولا ذنب لهم فيما يحصل. لقد كنتُ في حال رعب بعد موت ابن عمّي الذي كبرتُ معه، وكان صديقي المقرّب اللّطيف، وقد قُتل من قنّاص تابع لـ "الكتائب" المعارضة، لكنّني كنتُ مدركة في الوقت نفسه أن روحه دُفعَتْ قربانًا لخطّة نجهلها، وليس لنا فيها أيّ مصلحة، بل على العكس، قد تكون سببًا لقَبْرنا جميعًا في خانة الاستعباد والإجرام. مازلتُ أذكر رغبتي العارمة في الصّراخ في

وجه أهله وأهالي كلّ شباب حَيّنا في خيام عزائهم، وفي مواجهتهم بحقيقة أنّهم وراء قَتْل أبنائهم، وأنّهم يدفعون ثمنًا مريرًا نتيجة وقوفهم مع الظّالم ... لكنّني لم أفعل هذا، لأنّني قد أصبح أنا القربان ... مرّة، كنّا في كُلّيّة العمارة على طريق المطار، وأطلقتْ "كتائب" المعارضة القذائف علينا، وقُتل طلاب. لقد تحوّلتْ حياتنا جحيمًا!

قرّرتُ مساعدة النّاس المتضرّرين من هذه الكارثة، وأيقنتُ أنّ هذه الحرب ستأكل الجميع، وأنّني سأفعل ما في وسعي لحماية النّاس. طغى عليّ نوع من تكفير الذّنب، وحميتُ عائلة من السُّنّة، وتحمّلتُ مسؤوليّتها، لأنّني قلتُ في نفسي، يومًا ما لا بدّ أن يكون بينهم مَنْ سيحمي أهلي.

عرضتُ على أصدقائي الذين يعملون في المجتمع المَدَنيّ أن أعمل معهم، فلم يثقوا فيّ، وكانوا يتكتّمون أحيانًا أمامي. كنّا نجتمع بين وقت وآخر، ونتحدّث عن الدّستور وشكل الدّولة المقبلة. قلتُ لهم مرّة، إنّهم يستعجلون الأمور، ويستخفّون بها، وعليهم أن يعرفوا واقع الأمر جيّدًا، وألّا يُقلّلوا من أهمّيّة إجرام الأجهزة الأمنيّة. في تلك الفترة، انتابني شعور بأن هؤلاء المعارضين بشكل غير واعٍ يتحضّرون لتقديم البديل، وبذلك يتحضّرون لاحتكار نصر آتٍ، لأنّ المنافسة كانت كبيرة بين فئات المثقّفين والنّخب وغيرهم لتقديم النّموذج الأمثل للمرحلة المقبلة. وهذا ما جعلني ذات يوم أصارح أحدهم بخوفي العارم ممّا يفعلون، ليجيبني: أنتِ خائفة على طائفتكِ. قلتُ لا، أنا خائفة على سورية، وأنتم تستسهلون الأمر. أنا موقفي إلى جانب النّاس، ولكنّني أقول رأيي. كانوا متحفّظين معي، فقد قلتُ لهم رأيي صراحة، وهو أنّني لم أكن موافقة على ما يُعرَض ويُكذَب به على النّاس، وأنّ هؤلاء مِن السُّنّة لا يختلفون عن العَلَوِيّيْن الذين ارتبطوا

بالنّظام في الجهة المقابلة، وأنّ هناك خديعة. السُّنّة الفقراء يخرجون للموت، ويُكذَب عليهم، والعَلَويّون الفقراء أيضًا.

كانت الأحوال الاقتصاديّة تسوء، وتوقّف شغلي بسبب الحرب، أذكر أنّني بقيتُ لأشهر لا آكل سوى بطاطا وخبز ولبن فقط! ولم أعد أطيق العودة إلى "حمص". حاولتُ دخول "الغوطة" المحاصَرَة، لكن أصدقائي لم يتحمّسوا. خافوا عليّ بعد مجزرة الكيماويّ، ومنهم مَنْ كان متحفّظًا معي. رغبتُ في الانخراط في العمل المَدَنيّ في المناطق المحاصَرَة، انتظرتُ لأشهر عدّة، لأُقنع أصدقائي بالدّخول والعمل مع النّاس في "الغوطة" وتعليم الأطفال، لكنّني لم أسمع جوابًا منهم، وفقدتُ أملي نهائيًّا، ثمّ خرجتُ إلى لبنان، بهدف تحسين ظروف معيشتي قليلًا، وفي الوقت نفسه، كي أبقى قريبة من سورية، وعلى دراية بما يحدث فيها.

أكثر ما يؤلمني حتّى هذه اللّحظة وجه الشّابّ الذي أحرق السّوبرماركت وهو ينظر بعينَيْن محتقنَتَيْن مذعورَتَيْن: ويقول: "أنا لم أعد إنسانًا"، وصوتي وهو يقول له: لماذا طلب منكَ ضابط الأمن إحراقَ السّوبر ماركت، وكان ممتلئًا طعامًا ... ونحن ... وهم ... كلّنا جياع؟! ... لماذا يحرقون الطّعام؟!

الرّاوية الثّامنة

أنا أمل في أوائل الأربعينيات. لديّ ابن في السّابعة عشرة، وابنة في الخامسة عشرة. كنتُ موظّفة في إحدى دوائر الدّولة، إضافة إلى عملي مع عدد من دُور النّشر.

نشأتُ في بيئة فقيرة، درستُ حتّى أتممتُ المرحلة الثّانوية وبعد ذلك، توجّهتُ إلى سوق العمل حتّى أساعد أهلي من جهة، ولأنّني أدركتُ مبكّرًا أنّ استقلال المرأة مرتبط بالدّرجة الأولى باستقلالها الاقتصاديّ.

في الواقع، لم أفهم ما حصل في بداية الثّورة، لكنّني كنتُ ضدّ نظام الدّيكتاتور الأسد، فمن خلال عملي في دوائر الدّولة، تعرّفت إلى كيفيّة تمرير الصّفقات التّجاريّة المشبوهة، وإلى الفساد والمحسوبيّات، وإلى تدخّل رجال الأمن بتفاصيل القرارات، وحتّى تعيين الموظّفين العاديّينْ أو المديرين، وتعرّفتُ أيضًا إلى أسماء كبار التّجّار، وشَراكاتهم مع شخصيّات من العائلة الحاكمة، أو كبار الضّبّاط.

تابعتُ بقلق دخول البضائع التّركيّة السّوق السّوريّة، بعدما استلم بشّار الأسد الحُكم، وتأثيرها في الصّناعة الوطنيّة، كالمفروشات والألبسة، وحتّى البوظة التّركيّة، وكان مُفاجِئًا لي أن يُقتَل ما تبقّى من الصّناعات الوطنيّة المزدهرة في البلد، من أجل صفقات هؤلاء. كان الفقر يزداد بعد حُكم

بشّار، والمعامل تُغلَق، والفساد يشمل مجالات الحياة جميعها. حاول أحد أصدقائنا فَتْح معمل زيت، وحتّى سُمح له بذلك، شاركه ضابط أمن في الأرباح، من دون أن يدفع شيئًا! هذا مَثَلٌ بسيط عن الفساد المتفشّي الذي عرفتُهُ، وعاصرتُهُ.

عندما اعتقل الأمنُ أختي عام ٢٠١١، لأنها شاركتْ في تظاهرة سِلْميّة من أجل أطفال درعا، تعرّفتُ إلى عالم المحاكم والسّجن، وتفاجأتُ بالأعداد الهائلة للمعتقلين، من خلال التّعرّف إلى ذويهم، ومن خلال القوائم المكدَّسة في ديوان المحاكم. لقد رأيتُهم بعينَيّ في قصر العدل كيف يسوقون المعتقلين كالحيوانات مع الإهانات والضّرب، حينذاك انضمّ أخي إلى الثورة، وأنا أراقب ما يحصل. كان زوجي مع الثّورة، ويخاف أن يُعلنَ موقفه. هكذا، بدأتُ أشارك في التّظاهرات، ثمّ عملتُ في الإغاثة بأنواعها كافّة. لقد آمنتُ بالثّورة، ورأيتُ ما يفعله النّظام بالنّاس. أعدمُوا صديقي في حَيّ تشرين ميدانيًّا، من دون ذنب، واختفى صديق آخر بعد أن اختطفتْهُ سيّارة أمن، وأُجبرنا نحن الموظّفين على الخروج في مسيرات تأييد للأسد.

أردتُ فقط الوقوف إلى جانب النّاس المظلومين، وفَهْم الدّوافع التي جعلتْهم يحملون السّلاح، ويدافعون عن أنفسهم. عرفتُ "الجيش الحُرّ" في "الغوطَتَيْن الشّرقية والغربيّة"، كان أفراده جميعهم من أهل المنطقة، إضافة إلى بعض الجنود المنشقّين عن جيش النّظام، والذين ينتمون إلى مناطق أخرى ثائرة في سورية كـ "إدلب"، كان هذا حتّى عام ٢٠١٢. عند ذلك، أحكم النّظامُ الحصارَ على "الغوطَتَيْن"، واقتصر التواصل على "السّكايب".

ازداد الأمر سوءًا بعد مجزرة "الغوطة" عام ٢٠١٣ في شهر آب،

واعتُقل أخي قبل المجزرة بأيّام، واستمرّتْ حملة الاعتقالات، وطالتْ بعض الأصدقاء، قرّرتُ حينذاك مع إحدى صديقاتي دخول "الغوطة"، والاستقرار فيها، لكنّ إحدى النّاشطات في "الغوطة" نصحتْنا بألّا نفعل، وقالتْ إنّ "الكتائب الإسلاميّة" لن تقبلَ بوجود امرأة سافرة مثلي.

خرجتُ من سورية، لأنّني لم أعد قادرة على فعل شيء. المناطق التي حرَّرها "الجيش الحُرّ" وخرج منها النّظام، استولتْ عليها "الكتائب الإسلاميّة" المسلّحة. فرّخ "الزّعران" فيها، وبدأتْ تنتشر أخبار السّرقات الكبيرة التي تقوم بها "كتائب معارضة". في مناطق النّظام، لم يكن هناك إمكان للعمل نتيجة التّشديد الأمنيّ، واقتصر عملي على مساعدة النّازحين الذين تزايدتْ أعدادهم بعد مجزرة الكيماويّ. شعرتُ بأنّني ضعيفة ومقيّدة، بخاصّة بعد أن بدأت التّساؤلات حول عملي في مساعدة النّازحين وعلاقتي بهم وانتشار خبر اعتقال أخي، إضافة إلى اعتقال شباب، اشتغلتُ معهم، وقد يعترفون باسمي في أيّ لحظة.

خفتُ على وَلَدَيّ بعد تفجيرَيْن وقعا في محيط مدرستهما وسط دمشق، عدا عن حوادث الخطف والانفلات الأمنيّ وسقوط القذائف، ما ساهم في اتّخاذي قرار الرّحيل.

مغامرة واحدة قمتُ بها في تلك الفترة، وهي مساعدة أحد النّاشطين المطلوبين للحواجز في العبور من شرق دمشق إلى الرّيف الغربيّ، ليستطيع الهروب إلى لبنان. كان النّاشط ذا لكنة ثقيلة، تفضح هوّيته، ومن غير المنطقيّ دخوله الرّيف الغربيّ، إضافة إلى خوفه الشّديد والواضح، فكان عليّ مرافقته وتهدئته وتجنّب أيّ محادثة مع عناصر الحواجز، ليعبر بسلام، واضطُررتُ في مرحلة ما إلى وَضْع الحجاب، كي لا نلفت الأنظار.

قرّرتُ الخروج والوصول إلى أوروبا.

في أيّار ٢٠١٤، اقترضتُ مبلغًا ماليًّا من أخي، وسافرتُ إلى إسطنبول وحدي، وأقمتُ عند إحدى صديقاتي، كانت مخاطرة! تركتُ أطفالي عند أبيهم.

في تركيا، تعرّفت إلى عالم المهرّبين، لم تكن خطّتي تمامًا الذّهاب في البحر، ولكنْ، لم تكن أمامي فرصة أخرى، الجميع حولي نصحوني بأن يرافقني رجل، لأنّني قد أتعرّض للاغتصاب، فتواصلتُ مع شقيق صديقتي، وقرّرْنا المغامرة معًا، تعرّفْنا معًا إلى أوّل مهرّب، واتّفقْنا معه. أرسلَنا إلى مدينة "مرمريس" في الجنوب الغربيّ من تركيا، وهي من مُدُن التّهريب، كان وسيطًا لا مهرّبًا (لا أحد يعرف شخصيّات المهرّبين الحقيقيّيْن). الوسيط هو مَنْ يأتي بالهاربين أمثالي، ويقبض عليهم، وضعتُ مالي في مكتب باسم الوسيط، وكان هذا الاتّفاق: أن أحصل على رَقْم سرّيّ، وهذا الرَّقْم أعطيه بعد دخولي اليونان إلى مكتب معروف، بعد أن يأخذ عمولة. في المرّة الأولى، دفعتُ ألفًا وثمانمئة دولار، أخذتُ الرَّقْم السّرّيّ بعد دَفْع المال، وفي "مرمريس"، كان هناك وسيط آخر في انتظارنا، أخذَنا إلى فندق، وهناك تعرّفْنا إلى سوريّيْن كُثُرٍ أمثالنا. كان معظمهم من مدينة "حلب"، وبعضهم من الطّبقة الميسورة، فوجئتُ بوَضْعهم الاقتصاديّ، وأنّهم سيذهبون معنا في الرّحلة الرّخيصة نفسها، لأكتشفَ لاحقًا أنّ هناك تلاعبًا. ومع أوّل رحلة، طلب المهرّب مزيدًا من النّقود، فبعتُ ما تبقّى معي من ذهب، لأنّني لا أملك المال ولا الوقت، فقد تركتُ ورائي وَلَدَيّ، وأريد أن آتي بهما في أسرع وقت، كان هدفي الأساسيّ هو إنقاذهما.

كنّا ثلاثين شخصًا تقريبًا، ومعنا أطفال صغار وعجوزان، ركبْنا حافلة لقرابة السّاعَتَيْن، ثمّ وصلنا إلى إحدى المُدُن، هرب صاحب الحافلة مباشرة، وتركنا وحدنا. هناك، استلَمَنا المهرّبون الأتراك، مشينا لنصف ساعة باتّجاه البحر، حمل الشّباب العجوزَيْن حتّى وصلنا إلى شاطئ صخريّ، وكان الظّلام دامسًا، لم نرَ أيّ قارب، كانت الساعة تشير إلى الثّانية عشرة ليلًا في أواخر حزيران ٢٠١٤. أعمار الأطفال تراوحتْ بين سنّ الرّضاعة و١٢ سنة. أخذنا نتحدّث ونحن ننتظر. لم أكن أعرف أيّ تفصيل، ولم أفهم شيئًا، وما سيحصل لاحقًا. كلّ مَنْ معي كان مثلي! فجأة، صرخ رَجل، كانت قطعة زجاج شقَّتْ رِجلَهُ، فأضاء الشّباب المكان بمصباح كهربائيّ لمعاينة الرّجل، وكانت المفاجأة! كنّا نقف تمامًا فوق مزبلة كبيرة. رمونا في مزبلة!

بقيْنا هناك لأربع ساعات قبل طلوع الضّوء، ورؤية الأمواج تضرب الصّخور بشدّة، ثمّ ظهر قارب خشبيّ صغير، يتّسع لعشرة أشخاص، فيه رجلان، لم يكونا قادرَيْن على السّيطرة عليه. الموج عالٍ ونحن ثلاثون شخصًا. رفضْنا الصّعود، فالقارب لا يكفي لرُبع عددنا، واكتشفتُ من خلال أحاديثي مع المجموعة، أنّ الوسيط أخذ من كلّ شخص سعرًا مختلفًا. حصل شجار كبير بيننا، لأنّ منّا مَنْ وافق على الإبحار في المركب، ومنّا مَنْ رفض. حاول الوسطاء الأتراك إقناعَنا بالإبحار، وبأنّه لا يوجد حلّ ثانٍ، هم يديرون شبكة تهريب، يُكمل بعضها بعضًا. قلتُ لهم لن أقبلَ بركوب القارب. أخيرًا، وحّدْنا مواقفَنا، وقرّرْنا الرّفض. عند ذاك، هرب الأتراك، وتركونا وحدنا على الشّاطئ، من دون أن نعرف أصلًا أين نحن ... عرفْنا لاحقًا أننا في مدينة "جشمة".

كنتُ مُنهكَة جدًّا، وأتعرّق بشدّة، لأنّني كنتُ مرتدية طبقات عدّة من الثّياب فوق بعضها بعضًا، فقد كان ممنوعًا علينا حَمل حقائب. كانت السّاعة السّادسة والنّصف صباحًا تقريبًا، ونحن فوق المزبلة، حمل الشّباب العجوزَيْن مرّة أخرى، وعدنا معًا مشيًا باتّجاه المدينة، كانت مناظرنا بائسة، مُتعَبين، عطشى وجائعين، وعلى وشك السّقوط أرضًا، إضافة إلى خوفنا من أن تكتشف الشّرطة التّركية أمرنا.

بعد تلك الحادثة، تنقّلتُ بين مُدُن عدّة، منها "مرمريس" و"بودرم" و"إزمير". قمتُ بمحاولات كثيرة لعبور البحر، انتهتْ بالفشل، وتفاصيلها ازدادت بشاعة مرّة بعد مرّة، لكنّني لم أيأس. كان يجب أن أعبر البحر! كانت صورة أولادي أمامي تتحرّك في الهواء الذي أتنفّسه!

إحدى المحاولات وأبشعها كانت من مدينة "إزمير". كنّا اثنَي عشر شخصًا (امرأتان وعشرة شباب)، أخذنا مهرّبون بسيّارة صالون مقفلَة من الجهات كلّها، مثل تابوت، وبقينا لساعَتَيْن فيها. أنزلونا في غابة، وانطلقوا مسرعين. هناك، مشينا لساعة تقريبًا مع أحد المهرّبين حتّى بدا لنا البحر، كان أتراك آخرون في انتظارنا. اختفى المهرّب الذي أوصلنا. كان هو وأمثاله كسلسلة يُسلِّمون النّاس، ويستلمونهم في مواقع عدّة، ويختفون فجأة كما يظهرون. أتوا بقارب خشب، يقوده شابّ ليبيّ صغير (سبع عشرة سنة)، وهو أحد الهاربين، تُوكَل إليه مهمّة قيادة القارب بعد تدريبه لفترة قصيرة، ولا يدفع ثمن عبوره. كان الأمر مُقلِقًا، ولكنْ، تساوتْ بالنّسبة إلينا درجات الخطر. بعد انتظار لنصف ساعة تقريبًا، طُلب منّا الصّعود في القارب، وكان علينا أن نسبح أو نمشي في البحر حَواليَ عشرة أمتار، لنستطيع الوصول إلى القارب. صعدتُ القارب بصعوبة بالغة، لأنّ ملابسي ابتلّتْ،

وأنا أرتدي طبقات عدّة من الثّياب، إضافة إلى سترة الإنقاذ. لم يعمل المحرّك، فطلبوا منّا النّزول، والاختباء في الغابة مرّة أخرى حتّى يتمّ إصلاح المحرّك. عدْنا إلى الغابة، وانتظرْنا لساعَتَيْن تقريبًا، تبادلْنا خلالهما النّكات، وتعارفْنا أكثر، وروى كلّ منّا تجاربه الفاشلة والمؤلمة في عبور البحر. سمعْنا صوت المحرّك يعمل، فركضنا بسرعة إلى القارب. كان البحر هادئًا تمامًا، وبدا كلّ شيء مثاليًّا، لا صوت إلّا صوت المحرّك، دامت الرّحلة خمسًا وعشرين دقيقة. أخيرًا، رأينا جزيرة يونانية.

وصل القارب إلى شاطئ صخريّ، فقفز الشّابّ اللّيبيّ الذي يقود القارب، ليهرب، ويتركنا وحدنا، قفزْنا وراءه، وخلعْنا سِتَرَ النّجاة، ورميناها على الشّاطئ. كان المفترَض أن نصل إلى جزيرة "كيوس" اليونانيّة، ولكنْ، اتّضح أنّنا في جزيرة صغيرة أخرى قريبة منها، فيها ثكنة عسكريّة يونانيّة فقط. كان الشّاطئ صخريًّا على سفح جبل عالٍ، مليء بالأشواك، جُرحتْ أرجل الشّبّان الذين يرتدون سراويل قصيرة. بعد أن صعدْنا تقريبًا نصف الجبل، بدأ إطلاق النّار علينا من جهة البحر، كان من خفر السّواحل اليونانيّة على سفينة، وكنّا مكشوفين لهم، ومُبلَّلين ومجروحين ومُنهَكِين. كنا نسمعهم يضحكون وهم يطلقون النّار، أردتُ الاحتماء من طلقات النّار، لأنّهم لم يتوقّفوا، فتسمّرتُ في مكاني، حيث مرّتْ رصاصة قُرب أذني.

توقّف إطلاق النّار، وتابعْنا الصّعود حتّى وصلنا إلى القمّة تقريبًا. بعد ذلك، رأينا الشّابّ اللّيبيّ مع جنود يونانيّين مُمسكين به. لنكتشفَ أنّنا مُحاصَرون من كتيبة عسكريّة. صعد خفر السّواحل الجزيرة، واستلمونا من الجنود، وضربوا الشّباب بعنف شديد. طلبوا منّا تسليم جوازات السَّفَر والموبايلات، وقالوا إنّهم سيُعيدوننا إلى تركيا. رجوناهم أن يتركونا نمضي في

طريقنا، لكنّهم لم يُغيّروا قرارهم، وجّهوا البنادق نحونا، وأنزلونا إلى الميناء، أعادوا جوازات السَّفَر والموبايلات لنا، سحبوا قاربنا إلى الميناء، وأجبرونا على أن نصعد فيه، لكنّ محرّكه كان فارغًا من البنزين، فربطوا القارب بسفينتهم، وقادونا إلى عُمق البحر، ثمّ تركونا، ورحلوا بسرعة، وإذا بالمياه تتسرّب إلى القارب، لم نعرف متى وكيف ثُقب. كان الأمر مُخيفًا، كيف فعلوا ذلك؟! وهل هم مَنْ ثقب القارب؟ أحد ما فعل هذا! تركونا وسط الماء، لم تكن معنا سترات نجاة، ولا ماء للشرب، ولا شيء، فقط جوازات سَفَرنا وهواتفنا في أكياس نايلون مُلصقَة بإحكام حتّى لا تبتلّ. اتّصل أحد الشّباب بالمهرّب، وحاول الاتّصال بكلّ مَنْ يعرفه لإنقاذنا، ظللْنا على هذه الحال لعشرين دقيقة، والشّباب يُفرغون القارب من المياه، ثمّ بدأ الجميع يتشهّدون على أرواحهم استعدادًا للموت! كنّا على وشك الغَرَق فعلاً، ومن الصّعب السّيطرة على المياه المتسرّبة إلى القارب.

فجأة، ظهر خفر السّواحل التركية، وأنقذونا، ولكنْ، قبل الإنقاذ التقطوا صورًا لنا. بعد ذلك، أخرجونا من القارب، وهم يصرخون في وجوهنا بكلام لم نفهمْه. أنزلُونا على رصيف في ميناء مدينة "جشمة"، وتركونا هناك تحت الحراسة من السّاعة الثّانية ليلاً حتّى السّابعة صباحًا، ونحن نرتجف من البرد، ما فعلوه أنّهم قدّموا لنا الخبز والجُبن والمياه. بعد ذلك، أخذونا إلى مخفر، وأجروا التّحقيق معنا لمعرفة أسماء المهرّبين، كان من المفترض أن يأخذونا إلى أحد السّجون الخاصّة بالهاربين أمثالنا، لكنّهم لم يجدوا لنا مكانًا شاغرًا، بسبب الأعداد الهائلة من السّوريّيْن المقبوض عليهم خلال محاولة عبور البحر، فأطلقوا سراحنا.

في أثناء غرق القارب وابتلال جسدي بالماء، كان لديّ شعور قويّ

بأنّني لن أموت. شعرتُ بهدوء وسكينة غريبَيْن. كانت صورة طفليَّ اللذَيْن تركتُهُما في سورية تجتاح مخيّلتي تارةً، وتارةً أخرى أنظر في وجوه رفاقي، وأتخيّلهم يغرقون أمامي واحدًا تلو الآخر، رأيتُهُم يُغمضون أعينهم، ويتشهّدون، يستسلمون، وينتظرون الموت، كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنّني سأعيش، على الرّغم من إدراكي أن سباحتي رديئة.

بعد هذه الحادثة تحديدًا، والتي سبقها أكثر من عشر محاولات، نجحتُ في عبور البحر بعد أن دفعتُ ضعف المبلغ الأوّل، ليتمّ تهريبي بيخت سياحيّ، كان أخي يمدُّني بالنّقود، وكان مُصرًّا على ألّا أكرّر تلك التّجربة. كان من المفترَض أن أصل إلى جزيرة "كيوس" اليونانيّة من "بودرم"، إلّا أنّ الرّبّان واجه بعض الصّعوبات المتعلّقة بخفر السّواحل، فغيّر مساره إلى جزيرة "سيمي"، كنّا عشرين شخصًا تقريبًا، ثمانية عشر شابًّا وأنا وفتاة أخرى. اختارني القبطان مع شابَّيْن وأحد العجوزَيْن والفتاة، لنجلس على سطح اليخت، أمّا البقيّة، فخبّأهم في الداخل، كانت الفتاة مُحجّبة، لكنّها وضعتْ شَعْرًا مستعارًا، وارتدَيْنا جميعنا ملابس، تساعد في تمثيل دور السّيّاح.

في اليونان، حصلتُ على هوية بلغاريّة، المال يفعل كلّ شيء، فذهبتُ من أثينا إلى ميلانو، ثمّ بروكسيل، ثمّ إلى هولندا، لأنّ إجراءات لَمّ الشّمل في الأخيرة هي الأسرع بين البلدان الأوروبيّة. كانت رحلة شاقّة. سلّمتُ نفسي إلى السّلطات الهولّنديّة، وضعتْني في مخيّم للّاجئين، وبعد ثمانية أشهر، أتيتُ بوَلَدَيّ وزوجي.

أعيش الآن في هولندا مع وَلَدَيّ، تطلّقتُ حديثًا من زوجي، أدرس اللّغة الهولّنديّة، وأعمل متطوّعة في إحدى المنظّمات الإنسانيّة في مخيّم للّاجئين، وسوف أستلم عملًا جديدًا قريبًا.

الرّاوية التّاسعة

أنا آمنة خولاني من "داريّا". عندما بدأت الثّورة كان عمري خمسًا وثلاثين سنة. متزوّجة، وَلَدَيَّ ثلاثة أولاد. درستُ في جامعة دمشق قسم التّاريخ، ثمّ درستُ ديبلوم التّأهيل التّربويّ. كان التّعليم العالي غير مُحبّذ للبنات في "داريّا"، لكنّ أهلي كانوا حريصين على إنهاء تعلّمي.

في عام ١٩٩١، دخلتُ معهد "أنس بن مالك"، وهو معهد لتعليم القرآن، مديره الأستاذ الشّيخ "عبد الأكرم السّقّا"(*)، وكنّا تلامذته، عُرفنا كتجمّع باسم "الأكرميّيْن" نسبة إليه. كنتُ أدرس بالتّوازي مع دراستي الجامعيّة علوم القرآن والشّريعة في المسجد، ثمّ أخذتُ أُدرِّس طلّابًا العلوم الشّرعية وتفسير القرآن، كان النّاس حولي ينظرون بعين الشّكّ إلى البنات اللواتي يذهبنَ إلى الجامعة. ونحن أردْنا كسر هذه الصّورة النّمطيّة السّلبيّة. كنّا بعيدين من دوائر الشّيوخ الرّسميّيْن، ونقوم بنشاطاتنا وحدنا مستقلّين. هذه النّشاطات خلقتْ حركة انفتاح في "داريّا"، فاتّهمَنا شيوخ الدِّين بالانحراف، لأنّنا في نظرهم نُشكِّل خطرًا على التّقاليد والأعراف بإدخالنا التّلفزيون والكمبيوتر والهاتف المسجدَ، ثمّ عرضنا أفلامًا علميّة وتربويّة

---

*) الأستاذ الشّيخ عبد الأكرم السّقّا هو مؤسّس مدرسة فقهيّة- فكريّة. خرّجتْ شبابًا كُثُرًا معروفين باسم "الأكرميّيْن" نسبة إليه. وهو من تيّار إسلامويّ حداثويّ متنوّر. كان له الدّور الأكبر في تأسيس مشاريع تنمويّة وتعليميّة وخيريّة في داريّا، اعتُقل مرّات عدّة من أجهزة الأمن، وهو لا يزال حتّى اللّحظة مُغيّبًا في سجون نظام بشّار الأسد.

ووثائقيّة فيه. كنّا نعقد جلسات حوار في المسجد، وكان الأستاذ "جودت سعيد"(*) يزورنا.

الأستاذ "عبد الأكرم" شيخ في الدِّين. أسّس عام ١٩٩٠، الثّانوية الشّرعيّة في "داريّا" ومعهد "أنس بن مالك". كان ذا نظرة دينيّة منفتحة، وغير مَعني بقضيّة التّكفير والمذهبيّة والتّقليد التي كانت تسيطر على الجوّ الدِّينيّ، ويعدّ أنّ قضيّة الوعي والأخلاق ومحاربة الفساد في الدّولة هي ما يجب التّفكير فيه، ونشره بين النّاس. نادى بالفكر الذي يرفض قَتْل المرتدّ، لأنّ لا إكراه في الدِّين، فوقف شيوخ "داريّا" وشيوخ الشّام ضدّه. كنتُ إحدى طالباته منذ التّسعينات، وكنّا نجتمع عَلَنًا، ويقول ما يعتقده مجاهرة.

منذ عام ١٩٩٠ وحتّى عام ٢٠٠٠، أسّسنا حلقات للتّعليم في المسجد، قسّمنا الأسبوع ثلاثة أيّام، لنتعلّم فيها من الأستاذ، وثلاثة أيّام، نُعلّم الطّلّاب الصّغار. أدركْنا أنّنا نحتاج إلى الوقت، لنبني مشروعنا الفكريّ والحضاريّ في المجتمع. حوّلْنا المسجد مركزَ تعليم وفقه وفكر، لا يقتصر على مُجرّد تحفيظ القرآن، ومع مرور الوقت، بدأت تظهر ملامح المدرسة التّجديديّة التّنويريّة في الإسلام التي تعتمد على أدوات العلم والبحث التي عملْنا بها، وقد وقف بعض شيوخ الدِّين وكُثُرٌ من النّاس في "داريّا" ضدّ هذا، لكنّ ثلاثة أجيال كانت ظهرت من مجموعتنا. الجيل الأوّل كان مُؤلّفًا من بضعة أشخاص، والجيل الثّاني من العشرات، أما الجيل الثّالث من الطّلّاب الأطفال، فأصبح حَواليَ ٥٠٠، وأسّسْنا للجيل الثّالث مناهج خاصّة بنا، وطبعْناها، ثمّ أسّسْنا مدرسة خاصّة بالمناهج، وكانت على نفقة الأستاذ الذي كان يقول بضرورة بناء المؤسّسات التي لا تتعلّق بشخص أو

(*) جودت سعيد: مفكّر إسلاميّ معاصر وداعية لا عنفي، عُرف باسم غاندي العرب، وهو يُعدّ من شيوخ الإسلام المتنوّرين في سورية.

فرد، كنّا نأخذ قراراتنا غالبًا بالتّصويت، وهو ضدّ فكرة أن المرأة الحائض هي امرأة نجسة، وأفتى بالسّماح بدخولها المسجد، ومَسْك القرآن وهي حائض، وهنا اشتدّت النّقمة عليه،لأنّ شيوخ الدِّين كانوا يمنعون النّساء من دخول المسجد وهنّ حائضات. دخلنا نحن طالبات الأستاذ المسجد بأحوالنا كافّة، وأمسكْنا القرآن، فاحتجّ الجميع علينا. كان الأستاذ يقول إنّ القرآن هو دستور للحياة، يجب ألّا نبتعد منه في أيّ حال، وقد رفض ذلك مشايخ الدِّين. طرح أفكارًا جريئة ضدّ الفكر الدِّينيّ التّقليديّ، ثمّ تطوّر الصّدام حين أصدر أحد طلّاب الأستاذ وهو الدّكتور هيثم الحمويّ كتابه "إلّا أيّامًا معدودة" الذي ينسف فكرة أنّ الرّسول سوف يشفع للمجرمين يوم القيامة، ويُنجّيهم من النّار، لمُجرّد أنّهم مسلمون. وهذا يعني أنّه يكفي أن تكون مسلمًا بالاسم، وتقول "لا إله إلّا الله" حتّى تخرج من جهنّم إلى الجنّة. وهذه الفكرة وجدها الدّكتور الحمويّ أنّها ضدّ العدالة الإلهيّة، وأنّها انتهازيّة في الدِّين. ثمّ أصدر الأستاذ فتوى أنّ الموسيقى ليست حرامًا.

كان تردّد الفتيات والنّساء يزداد بشكل لافت على حلقات العلم عند الشّيخ، فانزعج النّاس، وقالوا هذا حرام، لم نأبه لهم، وتابعْنا اجتماعاتنا ونشاطاتنا.

بعد موت حافظ الأسد، أرسلت المخابرات طلبًا إلى الأستاذ عبد الأكرم، أن تصدح مأذنة الجامع بالقرآن لثلاثة أيّام حِدادًا، وأن تكون خطبة الجمعة مديحًا للرّئيس الرّاحل. اجتمعْنا نساء ورجالًا في المسجد، من أجل هذا الأمر، قال لنا الأستاذ إنّه في حال الرّفض سيُعتَقَل، ويُغلَق المعهد، وطلب التّصويت الديموقراطيّ. كنّا نعرف أنّ حافظ الأسد طاغية، ونحن تعلّمنا ألّا نكذب، ولا نسكت عن الخطإ، ونحن سِلْميُّون ضدّ العنف،

ولا نملك إلّا أصواتنا وأفكارنا. كنّا عرضْنا فيلمًا عن غاندي في المسجد، فاعترض الشّيوخ، وقالوا إنّ غاندي مجوسيّ، والسّينما حرام، لذلك كنّا نفكّر في أثناء التّصويت بالمقاومة السِّلْميّة مثل غاندي، كانت نتيجة التّصويت في المسجد رَفْض طلب الحكومة، فرفض الأستاذ، على الرّغم من أنّ الجوامع كلّها فعلتْ ما طلبتْه الحكومة والمخابرات، ودُعيَ في الجوامع لبشّار، وكُرِّم. بعد انتهاء الخطبة، وامتناع الأستاذ عن الدّعاء لبشّار، اعتُقل مباشرة من قِبَل المخابرات، وبقي ستّة أشهر في المعتقل.

ركّزْنا اهتمامنا أيضًا في المسجد على النّساء اللواتي لا يقرأنَ، ولا يكتبنَ، وعلّمناهنّ. ظللتُ أعلّم الطّلّاب لستّ سنوات. كنتُ استلمتُ إدارة قسم البنات في المعهد في أثناء اعتقال الأستاذ، وبعد خروجه، تابعْنا نشاطنا. كانت لدينا في المسجد مكتبة كبيرة للعموم. نظّمْنا مسابقات وجوائز لأفضل القرّاء والحَفَظة والمتفوّقين في العلوم الشّرعيّة والعلوم المدرسيّة، ووضعْنا شاشات في المسجد، وعرضْنا أفلامًا بعد الصّلوات، وركّزْنا على التّعليم الحكوميّ لطلّابنا. كانوا من المتفوّقين، لأنّنا أردناهم أن يكونوا قدوة في المجتمع. عملنا تطوعيًّا، ومن دون أجر، كان همُّنا الأساس القضاء على الجهل والتّقليد الأعمى والتّطرّف، لكنّ الأستاذ مُنع من التّدريس بعد خروجه من السّجن، وأُغلقَت دار النّشر التي يملكها، وأصدرت المخابرات أمرًا بطَرْدنا من المسجد. وحرَّض المشايخُ النّاسَ علينا، ثمّ أحضروا بدلًا منّا "القُبيسيّات"(*) إلى المسجد الذي فُرّغ من دوره التّنويريّ الذي دعونا إليه، واستولوا على المعهد وتجهيزاته.

---

*) القُبيسيّات: جماعة إسلاميّة نسائيّة دعويّة، أسّستها سيّدة سوريّة، تُدعى منيرة القُبيسيّ، سُمّيت المجموعة باسمها، ثمّ انتشرت لاحقًا في دول عدّة. تعتمد في طقوسها على المذهب النّقشبنديّ في الإسلام، وتختصّ بالنّساء فقط، وحلقاتها مغلقة، ولها طقوس وتراتبيّة في المقام الدِّينيّ عند الفتيات. وتعتمد مبدأ تقديس الفرد، والمتمثّل بالآنسة منيرة التي لا تزال تعيش في دمشق، لكنّها لا تلتقي النّاس، ولا يعرف مكانها سوى قلّة قليلة.

كان خلافي مع "القُبيسيّات"، أنهنّ كنّ يروننا خارجين عن مسار الدِّين نحن الأكرميّيْن، وكنّا نراهنّ يُساهمنَ في تجهيل النّاس، وإخضاعهم للاستبداد، كان نظام الأسد يُشجِّع مَنْ يُقدِّس الأشخاص، ويُفهمهم أنّ الدِّين مُجرّد طقوس، ولا يصحّ أن نتكلّم في الوعي الاجتماعيّ والسّياسيّ، وهذا ما كانت تفعله "القُبيسيّات". أمّا نحن ومشايخ كُثُر، فأردْنا بناء مجتمع، ورفضنا تقديس الأفراد، آمنّا بضرورة إعمال العقل والفكر والبحث عن الحقيقة أينما كانت.

تابعْنا لقاءاتنا وجلسات تعليم الطّالبات والطّلّاب المتفهّمين مواقفنا وأفكارنا، في بيوتنا. عاد الضّغط علينا من قِبَل المجتمع، لأنّنا نجتمع رجالًا ونساء، ولأنّنا صُنِّفنا معارضين. رفضنا الاختباء، واستمررْنا في حلقاتنا الفكريّة والبحثيّة، وتعرّفنا إلى مجموعات من خارج "داريّا"، وبدأنا ننتشر خارجها، ونتواصل مع مجموعات ناشطة من الأكراد والمثقّفين الدِّينيّيْن والعلمانيّين وجماعة ربيع دمشق وغيرهم. اجتمعنا لإحداث تغيير في الفكر الإسلاميّ والمجتمع، وأخذ نشاطنا طابعًا إصلاحيًّا تنويريًّا. توسّعتْ حركتنا، وقرّرْنا فَتْح مركز ثقافيّ خاصّ بنا في "داريّا"، وهو مشروع جماعي بعيدًا من مركزيّة الأستاذ، بعنا نحن النّساء بعض ما نملك من حلي، لنفتح المركز، أنشأنا فيه صالة كمبيوتر ومكتبة وسينما، وسمَّينا المركز "سُبُل السّلام"، وافتتحناه، ودعونا النّاس إلى فاعليّات ثقافيّة وعلميّة.لكنّ الأمن السّياسيّ أقفلَ المركزَ بالشَّمْع الأحمر، وصادر الممتلكات، واعتُقل الأستاذ من جديد لفترة، وضُرب الشّباب.

مع احتلال العراق، استطاع شيوخ الدِّين الذين صنعهم النّظام وبالتّنسيق مع المخابرات حشد الشّباب لتحويلهم انتحاريّيْن في العراق،

وانتشرت الدعوات إلى الجهاد. هذا كلّه حصل بمباركة المخابرات. نحن نعرف أنّ شيوخ الجوامع لن يجرؤوا على الدّعوة إلى الجهاد، لولا موافقة الأمن، وفعلاً حصل هذا، وذهب شبابٌ إلى العراق للجهاد. كانت هذه لعبة سياسيّة قذرة من النّظام، فدعونا نحن طلّاب الأستاذ عبد الأكرم، إلى تظاهرة ضدّ الحرب على العراق، وزجّ الشّباب فيها، وقرّرْنا إطلاق حملة للتّغيير الاجتماعيّ "حتّى يُغيِّروا ما بأنفسهم". تزعّم الحملة يحيى الشّربجي وهيثم الحمويّ، كنّا ضدّ القتل والتّفجير، وضدّ تحويل الشّباب السّوريّيْن لانتحاريّيْن، وضدّ أسلوب العنف في التّغيير. أردْنا التّغيير عبر المقاومة السِّلْميّة المَدَنيّة بتفاصيل صغيرة، لكنّها جوهريّة، فبدأنا بسلسة نشاطات سِلْميّة، ووزّعْنا عَلَنًا منشورات ضدّ الفساد والرّشوة، وقرّرْنا كنس شوارع مدينتنا. كنّا نريد أن نقول للشّباب لا تذهبوا لتفجير أنفسكم في العراق، بل اهتمّوا بأنفسكم وبحياتكم في سورية، فإصلاحها مسؤوليّتنا، إنّ التّغيير يبدأ من أنفسنا ومن الدّاخل، والدّولة هي دولة الشّعب، وليست ملكًا لعائلة الأسد والمخابرات، وكان نشاطنا في ضواحي دمشق أيضًا. تأثّر كُثُرٌ بنا، وانضمّوا إلينا، وغذّيْنا روح الالتزام بالقوانين عند النّاس، وطرحْنا شعار في حال كان القانون ظالمًا، سوف ندعو إلى تغييره سِلْميًّا.

بعد ذلك، اقتحم الأمن بيوتنا، واعتقل الأستاذ للمرّة الثّالثة، واعتقل زوجي وخمسة وعشرين شابًّا، منهم أخي، وحُقِّق معي ومع عدد من صديقاتي، منهم المهندسة حنان اللّكود وأخريات في فروع الأمن، ثمّ أُحيل الشّباب إلى محكمة عسكريّة، وأُودعوا سجن صيدنايا (السّيّئ الصّيت). كنّا كلّنا (الشّباب والفتيات) من الجامعيّيْن والفاعلين في المجتمع.

سخط النّاس علينا في "داريّا"، لأنّ أولادهم اعتُقلوا، وطلب الأمن أن نتعاونَ معهم، فرفضْنا.

بقينا على نشاطاتنا حتّى بدأت الثّورات في العالم العربيّ، ثمّ كانت حادثة أطفال "درعا"، كنتُ أدرك أن المجتمع السّوريّ غير جاهز للثّورة، لكنّ أصدقاءنا اعتُقلوا وقُتلوا في التّظاهرات، فقرّرتُ التّظاهر ضدّ النّظام. صديقات لي خفنَ، لأنّ قصص الاغتصاب داخل السّجون كانت تُرعبنا. قلتُ لهنّ إنّنا كنساء يجب أن نكون فاعلات، ولنا دور في عملية التّغيير. وخرجْنا في تظاهرة في "داريّا" يوم ٢٥ آذار ٢٠١١، ولم يقترب منّا رجال الأمن، كنّا نهتف:"سِلْميّة سِلْميّة ... إسلام ومسيحيّة بدنا وحدة وطنيّة". سكّان "داريّا"ثمانون في المئة من المسلمين، وعشرون في المئة من المسيحيّيْن.

حمينا الممتلكات العامّة من الأذى. كانت التّظاهرات تعمّ مُدُن "درعا" و"بانياس" ... ويسقط الشّهداء. خرجتُ مرّة ثانية في تظاهرة، نظّمها غيّاث مطر وأخي مجد ويحيى شربجي وإسلام دبّاس وغيرهم من خيرة شباب "داريّا". يومذاك، ضُربنا بعصيّ الكهرباء، وكان هناك قنّاصون على الأبنية، واعتُقل كُثرٌ منّا. طلب المتظاهرون ألّا نخرج نحن النّساء، كي لا نُعتَقَل، فصرنا نخرج مع مجموعة من نساء "داريّا" نُنظّم تظاهرات واعتصامات نسائيّة، وأسّسنا تجمّع حرائر "داريّا".

في "الجمعة العظيمة" في ٢٢ نيسان ٢٠١١، سقط شهداء "داريّا" في تظاهرة تضمّ عشرة آلاف متظاهر، منهم متعلّمون كُثُرٌ، كانوا خلعوا ثيابهم، وخرجوا يواجهون الأمن والرّصاص بصدور عارية. وحمى المتظاهرون المراكز الحكوميّة بدروع بشريّة حتّى لا تُدمّر بأيدي الغاضبين، وقالوا إنّ الجنود أهلنا، والتّعرّض لهم ممنوع.

في تشييع الشّهداء الذين سقطوا في الجمعة العظيمة، خرج أربعون

ألف متظاهر، ومرّوا أمام الكنائس التي قرعت الأجراس لأجلهم، ورمت النّساء من الكنيسة الأرزّ على المتظاهرين الذين بادلوهنّ بالورود، وتحوّل الهتاف هديرًا يقول: "إسلام ومسيحيّة بدنا وحدة وطنية". وشارك معارضون من المناطق والطّوائف والأديان كلّها، وعزّوا في شهدائنا. كان الثّوار يُطعمون النّاس في العزاء، ويُطعمون حتّى العناصر على الحواجز العسكريّة التّابعة للنّظام.كان عليهم أن يعرفوا أنّ معركتنا ليست معهم.

طلب رجال الأمن من مشايخ "داريّا" دعوتنا إلى التّوقّف عن التّظاهرات، فلم نستجبْ لهم. رفض بعض المشايخ مطالبَ الأمن، وشاركوا في التّظاهرات، فاعتُقلوا، ومات منهم الشّيخ نبيل الأحمر تحت التّعذيب.

أرسل النّظام ضابطًا، ليُفاوض الثّوّار في "داريّا"، فقالوا له إنّهم يريدون إلغاء قانون الطّوارئ. كان المتظاهرون يحملون الورود وزجاجات الماء. قال غيّاث مطر لجنود النّظام الذين واجهوا التّظاهرات، نحن إخوة، لماذا تقتلوننا؟ وزّع المتظاهرون الورود والماء على الجنود. بعض الجنود أخذوا الورود، ومنهم مَنْ داسَهَا بقدَمَيْه.

في الشّهر السّابع ٢٠١١، اعتُقل أخي "عبد السّتّار". وفي ٨ آب من العام نفسه، اعتُقل أخي الصّغير "مجد" النّاشط السِّلْميّ. كان اعتقاله تحدّيًا كبيرًا بالنّسبة إلى الثّوّار كلّهم، فهو من رموز الحراك السِّلْميّ في "داريّا"، فأكملْنا نشاطنا السِّلْميّ، وبدأنا نُوزّع جريدة "عنب بلدي"، وهي جريدة معارضة، ظهرت خلال الثّورة. وزّعتُ مع زوجي الأعداد ليلًا مع علم الثّورة في الأحياء الدّمشقيّة كلّها، أردتُ أن يعرف النّاس بأمر الثّورة!

قُتل خمسة عشر شابًّا من "داريّا"، ورُميت جثثهم في "صحنايا"، حيث

كُثُرٌ من الدّروز والمسيحيّيْن والعَلَويّين. عرفنا أنّ هذا من عمل النّظام الذي أراد إشعال فتنة طائفيّة. لكنّ الثّوار كانوا واعين لمخطّط النّظام.

كنتُ مع صديقاتي نعتني بأهالي المعتقلين والشّهداء، ورعينا حتّى أطفال أعوان النّظام وجواسيسه الذين قُتلوا ثأرًا من قِبَل بعض أهالي "داريّا"، قرّرنا بناء لحمة وطنيّة، والحفاظ على السِّلْم الأهليّ، لأنّ عائلات أعوان النّظام لا ذنب لهم فيما يحصل. كان هذا جزءًا من استراتيجيّة بناء السّلام بين السّوريّيْن.

نقلني المسؤولون في التّربية إلى مدرسة أقلّ شأنًا نتيجة نشاطاتي، فكتبتُ على جدران المدرسة شعارات ضدّ الأسد، ومزّقتُ الصّور، وقد فعلتْ لاحقًا الطّالبات ذلك، ثمّ أوقفوني عن التّعليم بشكل نهائيّ، وكانت تهتمي الإرهاب، ونشر الأفكار الهدّامة في المدرسة. في أيلول ٢٠١١، اعتُقل يحيى شربجي وغيّاث مطر من قِبَل أجهزة الأمن، وهما من رموز الحراك السِّلْميّ في "داريّا"، وبعد فترة، استلم أهل غيّاث مطر جثّته، وقد قُتل تحت التّعذيب. كانت جثّته مشوّهة، فثار الشّباب لهول ما فعل رجال الأمن من تشويه في جثّة غيّاث، ثمّ تشكّل "الجيش الحُرّ"، وأخذ يحمي التّظاهرات. حمل النّاس السّلاح، وحموا أنفسهم وتظاهراتهم. خرجْنا نحن النّساء في تظاهرة أمام المحكمة في "داريّا" للمطالبة بالمعتقلين، فأطلق الأمن النّار علينا. بقينا على هذه الحال حتّى خرج النّظام من "داريّا" في تمّوز عام ٢٠١٢، وتحرّرتْ "داريّا"، وتحوّلت كتلة نشاط.

بعد التّحرير، أطلق ثوّار "داريّا" حملة "إذا البلدية ما اشتغلت البركة بالشّباب"، وهدفت إلى تنظيف شوارع "داريّا" وتنظيم أمور السّير بعد تخلّي الدّولة عن واجباتها تجاه المناطق المعارضة. كانت عائلات نازحة

تتدفّق من "حمص" من حَيّ "باب عمرو" وحَيّ "القَدَم" في دمشق. كبرتْ مسؤوليّاتنا في تأمين الطّعام والمأوى. أمّنتْ تنسيقيّة "داريّا" لنا قوائم المحتاجين وأسماءهم، كان هذا في ٢٠١٢.ظللْنا لشهرَيْن من دون سلطة نظام، وشعرْنا بأنّنا نبني إدارتنا المحلّيّة، ثمّ حصلتْ مجزرة في ٢٤ آب ٢٠١٢. قُصِفْنا بالهاون بشكل عنيف، فانتشر "الجيش الحُرّ" بشكل واضح حينذاك. بعد تلك المرحلة، وصل السّلاح بشكل كبير، وصار صوته أقوى من صوت السِّلْميّة والفكر، خاصّة بعد اعتقال قادة الحراك السِّلْميّ وقَتْلهم وتعذيبهم.

نزلْنا إلى الملاجئ، وانتشر "الجيش الحُرّ" بين الحارات والطُّرُقات، وصار الشّارع كلّه مُعسكرًا. قُصفنا بالطّائرات والرّاجمات، وبقينا في الملاجئ، وولدتْ في أثناء ذلك امرأة معنا، من دون أدوات طبّيّة، وكنّا جوعى فعلاً، ولا يوجد طعام.

عرفْنا أنّ عناصر النّظام استولوا على "داريّا الشّرقية"، وهي منطقة "البساتين"، ودخلوا مع ميليشيّات طائفيّة، وذَبَحُوا النّاس في بعض أحياء المدينة، فأصابت النّاس حال من الهستيريا والخوف، وانهاروا تمامًا في الملاجئ. كانت مسؤوليّتي الحفاظ على الهدوء بينهم، وترتيب ما يجب فعله. كان معنا بعض الرّجال، فاستطعْنا تشغيل مُولّد كهربائيّ. عُرفت هذه المذبحة بالمجزرة الكبرى في "داريّا"، أو مجزرة العنب والدّم ("داريّا" مشهورة جدًّا بكروم العنب). دخلت الفرقة الرّابعة والحَرَس الجمهوريّ وميليشيات إيرانيّة، واقتلعتْ كروم العنب من جذورها، وقتلتْ كُثُرًا من "الجيش الحُرّ" والمَدَنيّيْن على حدّ سواء، واختلط الدّم بالعنب، وانقطعنا عن العالم من جديد لأربعة أيّام بلا كهرباء ولا بنزين، ثمّ بدأ اقتحام المدينة

من جهة الغرب والبساتين. طبيب المشفى الميدانيّ شهد المجزرة، وروى لنا ما حصل، كانت هناك إعدامات ميدانيّة من الميليشيّات الإيرانية. نجا الطّبيب، لأنّ إحدى النّساء قالتْ إنّه زوجها كي لا يُعدَم. لكنّ عسكريًّا سوريًّا أنقذ الجميع، وطلب منهم أن يهربوا. لقد تعاطف معنا بعض الجنود. ثمّ بدأ تدفّق الجرحى وجثث الشّهداء من المَدَنيّيْن و"الجيش الحُرّ"، تظاهرْنا بصلابة أمام قصص الذَّبْح، على الرّغم من القصف الذي لم يكن يتوقّف. لم ننمْ يوم المذبحة. أولادي معي وزوجي يخرج مع رجال الحَيّ، ويعودون بالجثث والجرحى. ماتتْ صديقتي وأولادها جميعًا بالقصف. لاح ضوء النّهار، وبدأت قوافل النّاس الهاربين تظهر، لأنّ أخبار الإعدامات الجماعيّة الميدانيّة كانت تصلُنا. فقرّرْنا الخروج من "داريّا".

عندما خرجْنا، رأيتُ الدّمار الهائل، كانت الجثث على جوانب الطّريق، من المَدَنيّيْن و"الجيش الحُرّ". مشهد النّزوح الكبير مؤلم. كنا نتجاوز الجثث، ونمضي. خرجْنا من بين البساتين. هربْنا متفرّقين، رأينا الشّجر المُقتلَع والدّماء والجثث المَرميّة في البساتين. أغمضتُ عيون أولادي، وتجاوزْنا هذا كلّه. عندما صرْنا خارج "داريّا"، اختلفت الحياة. كان هذا مُفجِعًا، بالنّسبة إليّ. كانت دمشق هادئة، والبشر يتابعون حياتهم بشكل طبيعيّ، كأنّنا لم نُذبَح أمامهم، اكتشفتُ حجم المجزرة وفظاعتها بعد أن وصلتُ إلى بيت صديقتي في دمشق. في اليوم نفسه، حصلتْ مجازر متفرّقة منها مجزرة عائلة السّقّا التي اختبأتْ في قبو البيت. قُتل خمسة وعشرون منها، واحد فقط نجا، بسبب تراكم الجثث فوقه، وروى الحكاية.

العدد الكامل لضحايا مجزرة "داريّا" الكبرى غير معروف، وُثّقتْ أسماء سبعمئة وستّة وثمانين. كانت هناك جثث مجهولة الهويّة، محروقة، لم

يتمّ التّعرّف إليها، ومَرميّة بين البساتين، فضلًا عن اختفاء كُثُرٍ. مع ذلك، خرجتْ "داريّا" كلّها في تظاهرة الجمعة تحت اسم "داريّا مدينة العنب والدّم"، واتّضح في ما بعد أن هناك أكثر من ألف شهيد، يجب الاعتناء بعوائلهم.

بعد المجزرة، تأسّس المجلس المحليّ في شهر أيلول. كنّا قد عدْنا إلى "داريّا". حمّل النّاس عناصرَ "الجيش الحُرّ" المسؤوليّة، وكان السّؤال: إذا لم تكونوا على قَدْر المسؤوليّة، فلماذا فتحتُم المعركة مع الجيش النّظاميّ؟

هرب بعض القادة العسكريّيْن في "الجيش الحُرّ"، وظهرتْ سلبيّات عَسْكَرة الثّورة. هنا، عاد الصّوت المَدَنيّ، وتمّت الدّعوة إلى تأسيس جسم سياسيّ مَدَنيّ. قال الشّباب الثّوّار إنّ النّظام مجرم، ولكنْ، نحن نتشارك مسؤوليّة ما حصل. وعندما انبثق المجلس المحليّ، كان القرار أن يكون العسكر أحد أطرافه، وأن يخضع لقرار مَدَنيّ من رئاسة المجلس المحليّ، ورئاسته تعود إلى المكتب التّنفيذيّ، وفيه ستّة أشخاص يمُثّلون المكتب الإعلاميّ والقضائيّ والإغاثيّ والطّبّيّ والعسكريّ. وكانت الفكرة أن يكون القرار ديموقراطيًّا. تأسّس المجلس المحليّ من قِبَل خيرة شباب "داريّا" والثّوّار الواعين، ومنهم أخي وبعض أصدقائي.

ألغى المجلس المحليّ "الكتائب" الثّلاث الموجودة في "داريّا"، وأنشأ كتيبة، اسمها كتيبة "شهداء داريّا"، فلم يوافق كُثُرٌ على تحجيم الدّور العسكريّ تحت إدارة المَدَنيّيْن. لم أفكّر في عدم وجود النّساء في المجلس المحليّ، لم يكن الوقت متاحًا لأيّ سؤال. أردْنا فقط إيقاف الموت.

في يوم ٨ تشرين الثاني ٢٠١٢، اقتحم النّظام "داريّا" من جديد، وانتشر

القنّاصة على مداخل المدينة ومخارجها، وأحرقوا بعض البيوت، وأعدموا عددًا من الشّباب، ونشروا الحواجز على مداخل "داريّا". رأينا الدّبّابات تحيط بالمدينة، وهكذا فُصل ريف "داريّا" عن قَلْب البلدة. بدأت الحرب بين "الجيش الحُرّ" والنّظام. كان "الجيش الحُرّ" قصف حواجز للنّظام، كانوا ثلاثة وعشرين عنصرًا، بين ضابط وجنديّ مع أسلحتهم الثّقيلة، وأُسر بعضهم. عرفنا أن ردّ النّظام سيكون عنيفًا، فهربْنا من "داريّا" بعد أن حوصرتْ، وقُصفتْ بعنف، وقُتل كُثُرٌ. عاد صوت العَسْكَرة ليعلو من جديد مع استمرار القصف والحصار.

بقيتُ في دمشق مع أهلي، وصرتُ أتابع نشاطي من خارج "داريّا". لم أتوقّف حتّى يوم اعتقالي، عملتُ في الإغاثة الطّبّيّة والغذائيّة. كنتُ أذهب خلسة بين وقت وآخر إلى "داريّا" لإيصال الموادّ الطّبّيّة والغذائيّة، كان هذا في الفترة الأولى من الحصار. كنتُ مطلوبة للنّظام، وأتحرّك بشكل سرّيّ في دمشق. دهم الأمن بيت أهلي، واعتقل اثنَيْن من إخوتي. صار إخوتي الأربعة في السّجن، وواحد محاصرًا في "داريّا". كبرتْ همومي بين أولادي الصّغار وإخوتي المعتقلين، وأرملة أخي وبين واجباتي في الإغاثة وإعانة عوائل المعتقلين والشّهداء، لكنّني رأيتُ أنّ هذا الظّلم لا يحتاج سوى للاستمرار.

اعتُقلتُ من بيتي في الشّهر العاشر عام ٢٠١٣. عندما رأتْ ابنتي ذات الأربع سنوات رجال الأمن تبوّلتْ في ثيابها، خوفًا منهم. اعتقدتُ أنّهم سيأخذونني إلى حيث أخي في فرع ٢١٥ التّابع لسرّيّة مداهمة الأمن السّياسيّ في المزّة، والذي يُسمّونه فرع الموت. صور سيزر بمعظمها التي خرجتْ كانت في هذا الفرع. غطّوا عينَيّ، وشتموني ببذاءة. اعتقلوا زوجي

معي. عندما وصلْنا إلى الفرع، ضربوا زوجي بعنف أمامي، أداروا وجهَيْنا إلى الحائط، ثمّ سمعْنا "خرطشة" البندقيّة، اعتقدتُ أنّنا سنُعدَم جماعيًّا، لكنّهم فقط كانوا يُعذّبوننا نفسيًّا. كانوا يعيدون "خرطشة" الكلاشينكوف مرّات عدّة، وفي كلّ مرّة، كنتُ أُغمض عينَيّ، معتقدة أنّني سأموت. سجنوني في غرفة منفردة في ساحة مطار المزّة، لم تكن صغيرة، عرفتُ أنّهم وضعوني في وَضْع استثنائيّ، وأنّني محظوظة، لأنّ الغرفة كانت فوق الأرض. قرّرتُ أن أكون قويّة، وأحافظ على ثباتي. العسكريّ الذي كان مسؤولًا عنّي كان من "حلب"، وكان فظًّا، ثمّ بدأ التّحقيق معي.

المحقّق هَرَسَ رأسي بالحائط، وقال: أنتم ستقتلون العَلَويّيْن؟ أنتِ من جماعة غاندي؟ ضحكوا عليكم، وقالوا اطلعوا تظاهرات؟ أخبرتُهُ بأنّني سِلْميّة، وأنا ضدّ الظّلم فقط، وأنّني سوريّة، لا أُفرّق بين الأديان والطّوائف. فضربني، وقال إنّهم يعرفون عنّي كلّ شيء، وإنّني فعلتُ كلّ شيء ما عدا حمل السّلاح، ثمّ لوى أصابعي.

ذات مرّة، أتوا بزوجي لابسًا سرواله الدّاخليّ، وكان نحل كثيرًا بعد الاعتقال. كان جسمه مليئًا بالكدمات الزّرق والدّماء. عندما رأيتُهُ طلبتُ منهم أن يُخرجوه، ووقّعتُ الأوراق التي يريدونها.

ضربوني في أثناء التّحقيق، ثمّ جاؤوا بامرأة في السّتّينيّات، وهي تعمل في تنظيف البيوت. عذّبوها، واحتفظوا بها رهينة، لأنّ إخوتها مطلوبون للنّظام. كانت رائحتها نتنة، وجسمها مليء بالقيح والبثور، وهم يركلونها. صرنا خلال أيّام ثلاث عشرة معتقلة. كانت الغرفة عبارة عن صندوق حديد صغير، لا تتّسع لنا كلّنا. اعترضتُ. طلبتُ صابونًا. صرختُ ليفتحوا لنا نافذة. اعتقدتُ أنّهم سيعدمونني، ففتحوا لنا نافذة في الغرفة، أظنّ أنّهم

كانوا مثلنا خائفين، وأتوا لنا بالفوط النّسائيّة. اللواتي كنّ معي كلّهن رهائن، كانت إحداهنّ جميلة وصلبة في منتصف العشرينيّات، برتبة ضابط ملازم، وهي سُنّيّة منشقّة مع خطيبها الضّابط العَلَويّ. كانا عاشقَيْن، وانضمّا معًا إلى "الجيش الحُرّ". كانت على الجبهة في "داريّا". كان وَضْعها مأساويًّا، عذّبوها بعنف. لم تكن تستطيع المشي من التّعذيب. كانوا يريدون منها استدراج خطيبها، لأنّهم يعدّونه خائنًا، لأنّه عَلَويّ، وانضمّ إلى "الجيش الحُرّ". ما رأيتُهُ في فرع الجوّيّة أنّه لم يكن هناك تحرُّش جنسيّ. لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، ولكنْ، هذه تجربتي.

كانت معنا بنت صغيرة من "حلب"، عمرها ثماني عشرة سنة، كانت تبكي باستمرار. كان جمالها مخيفًا، فأخذتُ أحميها طوال الوقت، وجهها الملائكيّ الطّفوليّ عذّبني وهي في السّجن، كانت تحبّ القراءة، وتريد أن تكون كاتبة. أمّا تُهمتها، فكانت جهاد النّكاح(*)، عذّبوها كثيرًا. أرادوا أن تقول إنّها تمارس جهاد النّكاح. قلتُ لها، اطلبي طبيبًا شرعيًّا ليفحصَكِ. كنتُ أعرف أنّها عذراء، وهذا سيُحرجهم. فعلاً طلبتْ طبيبًا شرعيًّا، يُثبت عذريّتها، فتوقّفوا عن هذه التّهمة، واتّهموها بالطّبخ لـ "الجيش الحُرّ"، لكنّهم لم يتحرّشوا بها.

أخذونا إلى فرع "كفرسوسة"، حيث تتعرّض المعتقلات هناك لابتزاز جنسيّ. كان العناصر هناك فظّين، يفتحون علينا الأبواب، في أيّ وقت، لا حدود لتصرّفاتهم الوحشيّة. دخلتْ علينا شابّة ترتدي فستان عرس أبيضَ، قالوا إنّ عريسها قُتل، فجُنَّتْ، وأخذتْ تخلع ثيابها، تضحك والنّاس

---

*) جهاد النّكاح: إشاعة أُطلقتْ من قِبَل وسائل إعلام النّظام السّوريّ والقنوات الموالية له، تقول إنّ هناك دعوة من أحد الشيّوخ للنّساء للذّهاب إلى سورية، من أجل ممارسة الجنس مع المقاتلين، وإمتاعهم. لم تثبتْ صحّة هذه الإشاعة. لكنّ المؤكّد أن تعدُّد الزّوجات وزواج الطّفلات كان من المشكلات التي ظهرت أثناء الحرب السّوريّة.

يتفرّجون عليها. كانت هناك فتاتان صغيرتان اعتُقلتا أيضًا بتهمة جهاد النّكاح، وهما لا تعرفان ما يدور. قالتا إنّهما تعملان في ملهى ليليّ.

نقلونا إلى سجن "عدرا". كانت روائحنا نتنة والسّيّارة التي نقلونا بها مليئة دماء وروائح كريهة. تكوَّم بعضنا فوق بعض. بقيتُ هناك لأشهر، فعلّمتُ معتقلات القراءة والكتابة. كان وضعُنا أفضل، لأنّ السّجن مَدَنيّ، ومَنْ يدفع المال فيه تتحسّن ظروفه. كان هذا أحد أشكال التّجارة في المعتقلات، وهو جزء من فساد كامل، رأيناه حولنا. كانت هناك بنات يدفعنَ عن طريق الجنس.

إضافة إلى تعليم القراءة والكتابة، شكّلتُ فريقًا رياضيًّا، لنهتمّ بأجسادنا. تعلّمتُ من النساء أيضًا شغل الصّوف والخرز والصّنّارة.

كان السّجن عبارة عن عشر غرف، تحوي ثلاثمئة وخمسين سجينة. لم يكنْ فيه ماء ساخن، ولا تدفئة. كانت نسبة الأمّيّات فيه عشرة في المئة، غالبيّتهنّ من الجيل الجديد، وهنّ من أطراف "الحسكة" و"الرّقّة" و"ديرالزّور". كنتُ أشتري من السّجينات ما يصنعنَهُ، وكانت الفقيرات يخدمنَ الغنيّات، ويحصلنَ حتّى داخل السّجن على أجر، كما خارجه. تقاسمتُ وبعض النّساء ما يأتينا من أهلنا مع الفقيرات.

لم أخرجْ بشكل عاديّ من السّجن، بل خرجتُ بصفقة تبادُل أسرى بين النّظام و"جبهة النّصرة" و"الجيش الحُرّ"، وهي صفقة تبادُل الرّاهبات(*). كنّا خمسًا وعشرين معتقلة وشابَّيْن، وأسيرات الجهة الأخرى كنّ سبع

---

*) هي عمليّة تبادُل أسرى، تمّتْ يوم الاثنَيْن في العاشر من آذار ٢٠١٤ بين النّظام السّوريّ وكتائب المعارضة المسلّحة، تبادل فيها الطّرفان الأسيرات، أُطلقَ فيها سراح معتقلات لدى النّظام، مقابل مجموعة من الرّاهبات كنّ معتقلات لدى الكتائب المعارضة، ترأسهنّ الرّاهبة الأمّ بيلاجيا سيّاف رئيسة الدّير التّابع للرّوم الأرثوذكس في معلولا.

عشرة. أخذونا إلى الحدود اللّبنانيّة في ١٠ آذار ٢٠١٤. كان وزير المصالحة في الحكومة السّوريّة موجودًا. رأينا الرّاهبات واثنَتَيْن منهنّ محمولَتَيْن على الأكتاف، لأنّهما كبيرتان في السّنّ. تبادلنا التّحيّات معهنّ، كان المشهد مؤلمًا. قالت الرّاهبات إنّ تعامل "الجيش الحُرّ" معهنّ كان جيّدًا، ورأينا ذلك على وجوههنّ، نظرْنا إلى أنفسنا وحالنا المتهالكة. لم نندمْ أبدًا على ما قمْنا به بخروجنا ضدّ النّظام، لكنّ الأوان فات على هذا القول. لقد كنّا مُجرّد أسيرات نحن والراهبات، تتبادلنا جهتان عسكريّتان.

قال محافظ ريف دمشق إن بشّار الأسد سيسمح لنا بالعودة والاحتفاظ بحقوقنا كافّة، إذا أردْنا البقاء في سورية، فقرّرتُ البقاء، ورفضتُ الذّهاب إلى لبنان.

حاولتُ العودة إلى وظيفتي بحسب ما صرّح محافظ ريف دمشق لوكالات الأنباء، لكنّني كنتُ ممنوعة ومحرومة من حقوقي المَدَنيّة. كنتُ أعرف أنّ النّظام يكذب، لكنّني حاولتُ حتّى الرّمق الأخير. إحدى صديقاتي خرجتْ معي في صفقة التّبادل، استدعاها الأمن من جديد، واتّصل بي محامٍ، وقال لي إنّني مطلوبة للأمن. كانت الصّفقة مسرحيّة، وصار خروجي من سورية مُلِحًّا، وإلّا فإنّني سأُعتقل في أيّ لحظة. هربتُ من سورية، واستغرقتْ رحلتي منذ لحظة انطلاقي من بيتي في دمشق حتّى وصلتُ إلى خارج سورية، شهرًا. اجتزْنا صحراء وجبالًا، وركبْنا البغال، ومشينا من دون كلام بين القنّاصة. كان معنا جرحى، وَضْعهم خطر. وكنتُ حزينة، وأعرف أنّ عودتي ليست قريبة.

أعيش الآن مع زوجي وأولادي في لبنان، وأعمل مع شبكة نسويّة في تعليم النّساء وتوعيتهنّ لحقوقهنّ.

لولا دَعْم أهلي وزوجي ووقوفهم جانبي، لم أكن لأستطيع المتابعة في نشاطاتي إلى الآن ... أريد العودة إلى سورية، وحتّى ذلك الوقت، لن أتوقّف عن النّضال من أجل قضيّتي. لكنّني أعيش في مرارة، لأنّ كلّ ما فعلناه أنّنا طالبنا بقليل من العدالة والكرامة، وكانت النّتيجة أن حصدْنا الذّلّ.

الرّاوية العاشرة

أنا "رنا" من مدينة دمشق "حَيّ الميدان"، كان عمري خمسًا وعشرين سنة عندما بدأت الثّورة. درستُ "صحافة وإعلام" في جامعة دمشق، وحصلتُ على الماجيستر في الإعلام عام ٢٠١٥. أنا من طبقة متوسطّة وعائلة ميسورة ومعروفة. مذ تفتّحتْ عيناي على الدّنيا وأنا أتابع حلقات دِينيّة، وأتابع بانتظام دروس الدِّين. عندما كبرتُ قليلاً، عرفتُ أنّ حلقات الدِّين هذه يُسمّونها "القُبيسيّات". لم تكن هذه التّسمية تتكرّر أمامي، كنتُ داخلها، وجزءًا منها، وكانت زوجة عمّي "قُبيسيّة"، وقد نظّمتْنا ونحن في عمر السّابعة، ووضعتْ لنا منهاجًا دِينيًّا للدّراسة. في الوقت نفسه، كنتُ أذهب إلى المدرسة الرّسميّة، أتابع دراستي.

لم أكن أُصدِّق أن تحصل ثورة في سورية، فنحن نعرف قوّة النّظام الأمنيّ الذي نعيش في ظلِّهِ، ولكنْ، هناك لحظة لن أنساها ما حييتُ، وكانت في شهر نيسان من ٢٠١١، يوم "الجمعة العظيمة" كما سمّاها المتظاهرون. كنّا أنا وأمّي في بيتنا في حَيّ "الميدان"، فسمعْنا هتافًا عاليًا: "الشّعب يريد إسقاط النّظام"، ركضتُ إلى الشّرفة، فلم تُصدِّق عيناي ما رأتا. خرج المتظاهرون من جامع "الحَسَن" في "الميدان" بعد صلاة الجمعة، وتأكّدتُ من اندلاع الثّورة.

لم أشارك في الثّورة حتّى ٢٠١٢. كان لديّ خوف كبير، لكنْ في ٢٠١٢

بدأتُ أعمل في منطقة "التّلّ" في الإغاثة الغذائيّة، حيث كانت عائلات نازحة من القَتْل والقصف في "حمص". تعرّفتُ إلى مجموعة شباب وفتيات هناك، وعملْنا معًا. العائلات النّازحة محافظة، ومن الواجب وجود فتاة تدخل على النّساء، فقمتُ أنا بهذا الدّور، ثمّ قرّرتُ العودة إلى العمل الصّحافيّ، وعملتُ في موقع إلكترونيّ، وفي إذاعة، أبثّ التّقارير الإذاعيّة الميدانيّة من قلب الحصار، وأكتب قصص النّاس باسم مستعار، كتبتُ عن النّساء والأطفال في الحصار، وعن المعتقلين. دخلت "داريّا" و"المعضّميّة" سرًّا، على الرّغم من الحواجز الأمنيّة، والتقيتُ بالنّاس والمقاتلين، ثمّ ذهبتُ إلى مخيّم "اليرموك" الذي كان خطّ جبهة محاصرًا، فتسلّلتُ إلى هناك. مرّة، في أثناء دخولي "المعضّميّة"، في الحصار الثّاني، حيث يوجد عدد هائل من قنّاصي النّظام، كان عليّ اجتياز أحد الأزقّة بحذر، كان الزّقاق ممتلئًا بالدّماء، وكان هناك رجل يصرخ بي أن ألتصق بالحائط، وعندما اجتزتُ الزّقاق الذي لم يتجاوز المئة وخمسين مترًا، عرفتُ أنّنا كنّا نجتاز حقلًا من القنّاصين، خفتُ كثيرًا. كنتُ أعمل سرًّا عن أهلي. في إحدى المرّات في "المعضّميّة"، التقيتُ امرأة، كان يجب أن أكتب قصّتها، لكنّني لم أستطع، لقد أجريتُ حواراتٍ كثيرةً، لم أستطع تحويلها قصصًا، كانت مخيفة وقاسية تلك القصص، إلى درجة أنّني عجزتُ عن تركيب جملة واحدة فيها. المعتقل الذي أراني ظهره المتفسّخ، لم أكتب عنه، والمرأة التي أخبرتْني باغتصابها على الحاجز، ولم يكن مضى على ولادتها خمسة أيّام. قالتْ إنّهم اغتصبوا حماتها معها، وهي امرأة في السّتّين. لم أستطع تصديق هذه الفظاعة، وبدلًا من أن أكتب القصّة، صرتُ أواسيها وأبكي، فقدت اللّغة معناها! لا تعترف النّساء عادة بقصص الاغتصاب، لكنها كانت تروي ذلك أمام زوجها. لقد انهرتُ تمامًا

عندما روتْ لي القصّة. كنتُ داخل "المعضّميّة"، ويجب أن أعود وأجتازَ حاجز الأربعين الذي قالتْ إنّ عناصره اغتصبوها. عندما مررْنا أمام الحاجز، تجمّدتُ من الخوف، لكنّني عبرتُ بسلام، ونجوتُ.

استمرّ عملي على هذه النّحو، حتّى هُدِّد أهلي في أحد الأيّام من أحد الضّبّاط، لأنّ ابنتهم تدخل المناطق المنتفضة والمحاصَرَة. قال لهم إنّني أدخل إلى مناطق الإرهابيّيْن. لو كنتُ من عائلة أخرى، لاعتقلوني. أرغمني أهلي على السّفر، وكانت أجهزة الأمن بطريقة ما حريصة على عدم الدّخول في مشكلات مع العائلات العريقة في دمشق.

قرّرتُ العودة إلى الشّمال، إلى المناطق التي خرج منها نظام الأسد عام ٢٠١٢. عدتُ مرّتَيْن، وكنتُ أنوي البقاء، لكنّني لم أفعل! لقد طُلب منّي لبس العباءة والحجاب، ومُنعتُ من الحركة. كنتُ أريد رؤية النّساء والأطفال، من أجل الكتابة والموادّ الصّحافيّة، فقال لي أحد أصدقائي إنّه لا يمكنني التّحرّك وحدي، لأنّ "جبهة النّصرة" هي المسيطرة هناك، ولا أستطيع حتّى المشي في الطُّرُقات. كنتُ مصدومة، لقد خرجْنا من أجل ثورة الكرامة، ولم نخرج ليأتي هؤلاء المتطرّفون وأصحاب اللّحى إلى بلادنا!

لقد يئستُ تمامًا! لأنّ هذا يعني أنّنا سنكون في سجن كبير، ومن المستحيل أن أوافق على لبس الحجاب، فأنا حاربتُ من أجل سفوري، وخضتُ معارك قاسية في المجتمع، ومع "القُبيسيّات" من أجل هذا الحقّ.

كانت "القُبيسيّات" جزءًا من عائلتي، وحلقاتنا الدِّينيّة تنشط في الصّيف، ونرتبط بحلقات أخرى، وهذه الحلقات ترتبط بمركز. وتجتمع الفتيات في نشاطات مشتركة، بخاصّة في أثناء الاحتفال بذكرى المولد

النّبويّ وحفْظ القرآن، أو تكريم فتاة تحجّبتْ. كانت الآنسات "القُبيسيّات" يجمعنَنا، ونُنشد الأناشيد الدِّينيّة، ونتلو القرآن. بقيتُ هكذا حتّى سنّ الثّانية عشرة، حيث تمّ الاتفاق على تحجيبي، لأنّني بلغتُ. جاؤوا بي فجأة، وقالوا إنّه يجب أن أتحجّب، فرفضتُ، في حين أصرّت العائلة الكبيرة على ذلك. وقف أبي وأمّي إلى جانبي. لكنّ سطوة العائلة لدينا قويّة، فتحجّبتُ، واحتُفل بي.

كان أصدقائي في تلك الفترة غير متديّنين، وكنتُ أرى الفارق بيني وبين غيري من الطّفلات غير المحجّبات. وعندما دخلتُ المدرسة الإعداديّة، بدأتُ أبتعد من حلقات "القُبيسيّات". صرتُ أباعد زياراتهنّ، مع أنّني كنتُ أحبّ صلاة الجماعة معهنّ، لكنّني بشكل لاشعوري ابتعدتُ. "القُبيسيّات" يعملنَ في أماكن متفرّقة عدّة، وحلقات كثيرة، لكنّهنّ مرتبطات بمركز واحد، هو الذي ينسّق لهنّ النّشاطات كلّها. نحن الصّغار، لم نرَ الآنسة الكبيرة منيرة "القُبيسيّة"، ولم نعرفها، لأنّها معتكفة في بيتها غير المعروف مكانه، ولا أحد يراها سوى قلّة غير معروفة، وهناك تكتّم حولها، هي التي أسّست "القُبيسيّات"، ولم تعد ترى إلّا حلقتها الأولى.

خلعتُ الحجاب وأنا في السّابعة عشرة، وكان هذا بعد معارك وصراع طويل مع عائلة أبي، كان الحجاب أمرًا مفروضًا عليّ، وكنتُ أكره أن تُفرَض عليّ الأوامر. لكنّ مجتمعي كان ضيّقًا، وتعرّضتُ وعائلتي لضغط اجتماعيّ كبير، لكنّني أصررتُ على موقفي، ورفضتُ التّحجّب.

تابعتُ دراستي، وأردتُ تحدّي مَن حولي، لأنّهم عدّوني ناقصة بلا حجاب، وبسبب عدم تقبّل المجتمع لي نتيجة ترسّخ العادات والتّقاليد التي ترفض خروج المرأة من دون حجاب. تفوّقتُ في المدرسة، وحصلت

على المرتبة الأولى في صفّي، ودخلتُ الجامعة. في تلك الأثناء، كانت صديقة لي من "القُبيسيّات" قريبة منّي جدًّا، وألحّتْ على أن أحضر دروس الدِّين من جديد، فاشترطتُ ألّا أتحجّب. فعلاً، بقيتُ لثلاث سنوات معهنّ من دون حجاب.

لم يكن صحيحًا ما يُشاع عن أنّ "القُبيسيّات" لهنّ طريقة مختلفة في اتّباع الدِّين الإسلاميّ. كنّ يستقطبنَ بنات العائلات المعروفات، واجتماعاتنا كانت تتمّ في بيوت ثريّة وباذخة. كان لديهنّ توجُّه كبير نحو استقطاب الأغنياء. قالتْ لنا آنسة، إنّه يجب ألّا نتزوّج من طبقة اجتماعيّة متدنّية، وإنّه يجب أن نتزوّج مَنْ يناسبنا اقتصاديًّا واجتماعيًّا، كنتُ ضدّ هذه الفكرة، ووجدتُها عنصريّة. ناقشتُ الأمر معها، وقلتُ لها إنّ الرّسول كان فقيرًا وخديجة من وجهاء القوم. مرّة، أتيتُ بإحدى صديقاتي معي في رحلة أقمنَها لنا، وكانت من عائلة عاديّة غير معروفة، فلم يكنّ مرتاحات لوجودها. ومرّة أخرى، أتيتُ بصديقة من عائلة ثريّة جدًّا، فاهتممنَ بها، وأحطنَها برعايتهنّ. كنتُ أسأل لماذا لا يتقبّلنَ الطّبقات الفقيرة والنّساء العاديّات؟ فلم أجد لديهنّ جوابًا. كنّ يفعلنَ ما يفعله أهل الشّام في طقوسهم الدِّينيّة في الموالد النّبويّة من رَقْص على الأغاني الدِّينيّة، وضرب على الدّفوف. وأهل الشّام لم يستهجنوا طقوسهنّ، لأنّها جزء من تراثهم الدِّينيّ. كنّ كلّهنّ من دمشق، وواحدة فقط كانت من خارج دمشق. تجمُّعهنّ كان محكومًا بعوامل اقتصاديّة، كان هناك بذخ كبير، وزيجات بأثرياء، وكنتُ أطلب أن يُتبرّع بالأموال للنّاس المحتاجين، فلم يكنّ يُلقينَ بالًا لما أقول. اعتمدنَ منهجيّة عنصريّة، واستهداف النّساء لم يكن وراءه أيّ سرّ. كان فقط لأنّ تجمّعًا كهذا يعزل بين الجنسَيْن، وهي من طبيعة المجتمع الدّمشقيّ، القديم المحافظ. الأعراس لم تكن مختلطة. كان وجود

النّساء وحدهنّ أمرًا طبيعيًّا، وأكثر أمانًا. كانت منيرة "القُبيسيّ" تابعة للشّيخ "كفتاور" مفتي الجمهوريّة السّابق، هو في جامع "أبو النّور" يتوجّه إلى الرّجال، وهي إلى النّساء. كانت عائلات دمشقيّة كثيرة تُفضّل إرسال بناتها إلى حلقات الدِّين ضمن البيوت، ما يُوفّر الأمان لهنّ أكثر حسب اعتقادها. لم تأتِ "القُبيسيّات" بأيّ بدعة على الدِّين، وعلاقة الآنسات بعائلات البنات كانت ذات أهمّيّة كبيرة، وقد استطاعت الآنسات كَسْبَ ودّ الأهالي. وهذا ما جعل مكانتهنّ في المجتمع عالية ومؤثّرة. وكان الأهالي يعودون إليهنّ في أمور تقرير مصير بناتهنّ، بخاصّة فيما يخصّ زواجهنّ.

كانت لفتيات حلقتنا معتقدات غريبة، حيث ينظرنَ إلى الآنسة المسؤولة عنهنّ نظرة تقديس، إذ كنّ يعتقدنَ أنّها تستطيع قراءة أفكارهنّ. كانت سطوتها رهيبة. في نهاية كلّ فصل دراسيّ، تأتي الآنسة بطالبات المدارس والجامعات، فتضع يدها على كتاب كلّ طالبة، وتتمتم ببعض الآيات، وتدلّ الفتيات على الأسئلة، واتبعتْ ما يشبه الشّعوذة والدَّجَل في تغذية عقولنا، ومنعتْنا من إدخال موبايلاتنا إلى الجلسات. كان هذا قانونًا ضمن الحلقات الدِّينيّة. أظنّ أنّ "القُبيسيّات" كنّ يخفنَ التّسجيل والتّصوير، وربّما أجهزة الأمن، مع أنّ علاقتهنّ بنظام الأسد تحسّنت كثيرًا، ورُخّص لهنّ قانونيًّا لممارسة نشاطهنّ العَلَني منذ عام ٢٠٠٥، وقد كان سرّيًّا في بداية التّسعينيّات.

نمط العلاقات الاجتماعيّة الذي ساد بين بنات الحلقات، قام على مبدأ الأخويّة، أي أنّهنّ جميعًا "أخوات في الله"، ومن واجبهنّ الدِّينيّ أن يعامل بعضهنّ بعضًا باحترام، ويدعم بعضهنّ بعضًا. انعكس هذا النّمط الاجتماعيّ أيضًا على التّعامل بين "الآنسات" والطالبات. كان لون الحجاب دلالة على المكانة والقيمة، وهو إمّا أبيض أو أزرق فاتح، أو غامق، للتّمييز

بين الطّالبات والمريدات حسب ترتيب مكانتهنّ في التّجمّع، حيث تضع الفتاة الجديدة الحجابَ الأبيض، وتضع "الآنسة" الحجابَ الأزرق الفاتح، و"الخالة الكبيرة"، حجابًا أزرق غامقًا.

اكتشفتُ أنّ "القُبيسيّات" تجمُّع لاستقطاب الأثرياء، ولكنّني بقيتُ معهنّ حتّى قرّرنَ مرّة ثانية أن أتحجّب. كان ذلك اليوم في رمضان، وقد انتهينا من صلاة التّراويح. وعلى الرّغم من أنّني لم أكن محجّبة، إلّا أنّني كنتُ أصلّي وأصوم، ولديّ إيماني العميق بالله. بعد صلاة التّراويح، وكنّا في بيت الآنسة، نادتْني، وقالتْ بصرامة: "بدّي حجبكْ"! وكنتُ أرتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا، وقالتْ: "إذا لم تتحجّبي اليوم، فلن تفعلي طوال حياتكِ". وكان كلام الآنسة عندنا مقدّسًا، ثمّ صرختْ: "هيّا"، ودعت البنات إلى الالتفاف حولي. كنّا حينذاك حَواليَ مئتَي فتاة وامرأة نجتمع للصّلاة. طلبتُ منها ألّا تحجّبني، لكنّ الموجودات تجمّعنَ حولي، وأتينَ برداء طويل، ألبسنَني إيّاه فوق بنطالي، ووضعنَ الحجاب على رأسي، على وَقْع صوت الأغاني الدِّينيّة وقَرْع الدّفوف. كنتُ أبكي وأضحك، لأنّ في داخلي صراعًا عنيفًا بين أن أكسر كلمة الآنسة أمام الموجودات، أو ألتزم. كنتُ حينذاك في الثّانية والعشرين، وقد أنهيتُ دراستي الجامعيّة بتفوّق. فوجئ أهلي عندما رجعتُ إلى البيت، ورأوا الحجاب. سألني أبي ما إذا كنتُ مقتنعة به، فقلتُ: لا. قال: افعلي ما ترينه مناسبًا. في اليوم التّالي، جاءت البنات من حلقتنا الدِّينيّة، ليتأكّدن من أنّني لم أخلع الحجاب، فرأينني سافرة. فعبنَ عليّ ذلك، وقلنَ كسرتِ كلمة الخالة. وهذا يعني خروجكِ من حلقة الدِّين. قلتُ لهنّ: لا أريدها، ولن أتحجّب. وكان فراق بيني وبينهنّ، لولا أبي وأمّي لما استطعتُ مواجهة المجتمع وقوّة الآنسات "القُبيسيّات" بهذه الجرأة.

كان لـ "القُبيسيّات" نشاط اقتصاديّ واسع من خلال افتتاح الجمعيّات الإغاثيّة والمدارس، ولم يكن دائمًا بغطاء الدِّين. هناك فتيات أصبحنَ "قُبيسيّات" عن قناعة، لا في سبيل تحقيق منفعة مادّيّة. لم أفهم سبب ثراء رجال الدِّين والنّساء المتدينّات أيضًا. كان بذخهم يخيفني، فمن أين تأتي أموالهم؟! كنتُ أعرف أنّ جزءًا من هذه الأموال كان يأتي من تبرّعات تجّار دمشق، وهو جزء من فريضة الزّكاة وحركة هذه الأموال التي تتأسّس بها جمعيّات دِينيّة.

من النّاحية السّياسيّة، كانوا في ذعر دائم من رجال الأمن. علّمتنا الآنسات ألّا نتحدّث عَلَنيّة عن اجتماعاتنا.كنّا نتحدّث بشكل مشفّر. الآنسة الكبيرة التي كانت تعلّمنا كانت معتقلة سابقة عند النّظام. مُنعنا من الحديث في السّياسة. كنّ في هذا يشبهن أهل الشّام من طبقة التّجّار عمومًا الذين لا يريدون الخوض في غمار السّياسة. وهذا لم يكن جديدًا في المجتمع السّوريّ. كان عملهنّ الاجتماعيّ مناطًا بمكانتهنّ الدِّينيّة، وهذا مُرضٍ للعائلات، لأنّ عائلات دمشقيّة كثيرة معروفة كانت تتسابق لحفظ القرآن، ولديها حبّ ورغبة في أنّ تتحوّل بناتهنّ آنسات "قُبيسيّات" أشبه بقائدات رأي في مجتمعنا الشّاميّ، لهنّ تأثير في قرارات العائلات الكبيرة، لأنهنّ يتعلّمن مكارم الأخلاق والدِّين وأحاديث النّبيّ والقرآن.

اليوم، لا أستطيعُ أن أتّخذ موقفًا واضحًا من جماعة "القُبيسيّات"، على الرّغم ممّا أظهره إعلام النّظام السّوريّ عن تأييدها إيّاه، بخاصّة أنّ تأثيرها في السّنوات التي سبقت الثّورة امتدّ إلى طبقات اجتماعيّة مختلفة ولم تعد مقتصرة على الأغنياء. أنا راضية فقط لأنّ أفعالي نمَّتْ عن إرادتي وحدي، وأنتمي إلى عائلة تحترم قراراتي.

الهالة والضّجّة المثارة حول "القُبيسيّات" أكبر كثيرًا من حقيقتهنّ، وعلى الرّغم من أنّ نظام الأسد سمح ورخّص لهنّ ودعمهنّ، إلّا أنّهن استمررن في الاجتماع في البيوت، لأنّ العائلات الدّمشقيّة الكبيرة المتديّنة، بغالبيّتها تفضّل وجود بناتها في البيوت التي تقام فيها حلقات الدِّين عوضًا عن الجوامع.

لقد تمرّدتُ على ذلك الواقع، وخلعتُ الحجاب مرَّتَيْن، وأنا مؤمنة جدًّا بالله. بعد ذلك، تابعتُ دراستي، وكنتُ أعمل، ومستقلّة اقتصاديًّا. ظللتُ على هذه الحال حتّى بدأت الثّورة التي غيّرتْ حياتي. لذلك، عندما عدتُ إلى الشّمال حيث المناطق التي خرجتْ منها قوّات الأسد، وفُرض عليّ الحجاب بالقوّة، إذ تحوّل الأمر قانونًا، ولم يعد في وسع النّساء الخروج من دون حجاب، خرجتُ مباشرة من سورية، وقرّرتُ العمل على الحدود في المخيّمات مع النّساء والأطفال، وما زلتُ أتابع كتابة قصص النّساء، وأتابع عملي في منظمة نسويّة ضمن المجتمع المدنيّ، وأعيش في تركيا، على أمل العودة.

لا أنوي الذّهاب إلى أوروبا، لأنّ الحدود السّورية قريبة منّي، ولكنّني لا أعرف مصيري حقيقة.

الرّاوية الحادية عشرة

أنا لينا محمّد. كان عمري تسعًا وعشرين سنة عندما بدأت الثّورة. وكنت صحافيّة، انخرطت في العمل السّياسيّ منذ عام ٢٠١١، وشاركت في التّظاهرات منذ بداية الحراك الشّعبيّ.[١]

شاركت في تظاهرة نسائيّة في ساحة "عرنوس"، وسط دمشق، احتجاجًا على قمع المتظاهرين بعنف في مدينة "درعا". بقينا لعشر دقائق فقط في التّظاهرة لأنّ رجال الأمن كانوا بين النّاس، وانقضّوا علينا. اعتقلوني وضربوني بعصًا كهربائيّة على رقبتي. تعرّضتُ لتعذيب عنيف. كان هناك جلّاد اسمه أبو شملة، لم يتوقّف عن ضربي بعنف على جسدي كلّه، وخاطبني بصيغة المذكّر، وضعوني بمنفردة، يبلغ طولها تقريبًا ثمانين سم وعرضها سبعين سم. وبقوا لأيّام يحقّقون معي،ولم يسمحوا لي بالنّوم، ونقّلوني بين أفرع عدّة للأمن.

أُصبتُ بانهيار من التّعذيب، وكان هناك عنصر أمن حاول مساعدتي معنويًّا. كدتُ أبول في ثيابي أكثر من مرّة، لأنّنا لم نكن نخرج سوى مرّة واحدة إلى الحمّام في اليوم. كنّا نسمّي عمليّة الخروج "الجحيم"، ففي أثناء مرورنا، كانوا ينهالون علينا ضربًا ذهابًا وإيابًا. عندما نقلوني إلى فرع "كفرسوسة"، تعرّضتُ لتحرّش جنسيّ من قِبَل ضابط التّحقيق، وكان برتبة عميد.

بين الاعتقالَيْن الأوّل والثاني، جرّبْنا أن نجتمع، ونشكّل مجموعة سياسيّة، اسمها "سوريّون"، حيث فكّرنا في تنظيم عمل سياسيّ جديد خارج الأحزاب والمعارضة التّقليديّة، كنّا مجموعة من الشّباب والفتيات، وقمنا بتظاهرات عدّة. اكتشفنا أنّ المجموعة مُخترقة من قبل رجال الأمن، واعتُقل أفرادها بمعظمهم بين شهرَي تمّوز وكانون الأوّل عام ٢٠١١، وانتهى المشروع. كانت هناك مجموعات يساريّة أخرى حاولتْ أن تفعل الشّيء ذاته، لكنّ أفرادها اعتُقلوا أيضًا.

تابعتُ التّظاهر والعمل بشكل فرديّ، وظهرتْ مجموعة "الشّباب السّوريّ الثّائر" وهي من شيوعيّين اعتقلهم الأمن جميعًا، وانتهى نشاطها نهاية ٢٠١٣، وقُتل منهم تحت التّعذيب: "رودين عجك، عامر ظاظا، عماد غنم، فائز أيّوبي، والأخوان معاذ وقصي برهان".

قرّرت دخول "الغوطة" بشكل مستقلّ ومنفرد، لتنسيق العمل بين التّظاهرات والجلسات السّياسيّة، ثمّ وجّهتُ نشاطي أكثر إلى "الغوطة الشّرقيّة". كانت قبضة الأمن محكمة في دمشق، والاعتقالات تتضاعف، وأصدقاؤنا يموتون تحت التّعذيب. في "الغوطة"، لم تكن التّظاهرات هي الشّكل الوحيد للانخراط في الثّورة.

صرتُ أدخل "الغوطة المحاصرة، وأخرج منها، إلى أن اعتُقلت ثانية في وسط دمشق، لأنّني كنتُ في الوقت نفسه أشارك في التّظاهر. حدث ذلك في ١٢ نيسان ٢٠١٢، عندما دعتْ مجموعة "أوقفِوا القَتْل، نريد أن نبني وطنًا لكلّ السّوريّيْن"، إلى تظاهرة وسط دمشق، وهي مجموعة وقفتْ على الحياد من الأطراف المتقاتلة كلّها، وطلبتْ إيقاف القَتْل. أردتُ الاعتصام معها. كنّا حَواليَ أربعمئة متظاهر ومتظاهرة أمام البرلمان، وكعادة

التّظاهرات وسط دمشق، وقفْنا لعشر دقائق فقط، وكان رجال الأمن هناك، رفعْنا الشّموع والورود، وأنا رفعتُ لافتة، كتبتُ عليها "أوقفُوا القَتْل، لا نريد أن نموت". انهالوا ضربًا بالهراوات على رؤوسنا، داسونا دوسًا. كانوا يخبطون أجساد بعضنا ببعض، وأمسكني أحدهم، ورفعني عن الأرض، حملني وصار يخبط جسدي بجدار، وكنتُ أصرخ في وجهه: أريد دولة قانون ... أريد دولة قانون. في الطَّرَف الثّاني رأيتهم يخبطون امرأة بطريقة وحشيّة. المرأة وقفتْ في منتصف الشّارع، وأوقفت السّيّارات، وقالتْ: الشّعب يريد إسقاط النظام. كانت سوريّة فلسطينيّة. اختفى النّاس من الشّارع، واعتقلوا منّا أربعين شخصًا، ورموني مع خمسة وعشرين شخصًا في حافلة صغيرة. خرجتُ بعد أسبوع، لم يُعذِّبوني. كان المحقّق في فرع "الخطيب" لطيفًا معي، ولم يُؤذِني. وانشقَّ لاحقًا.

بعد خروجي من المعتقل للمرّة الثّانية، عرفتُ أن دورنا كديموقراطيّيْن وسياسيّيْن وناشطين تقدّميّيْن، قد ضعف أمام عنف النّظام وحركة تمويل السّلاح من جهة المعارضة. لذلك، تفرّغتُ للعمل الميدانيّ في المناطق المحاصرة. رأيتُ أنّ المناطق التي خرج منها نظام الأسد، تخلّتْ عنها الطّبقات الوسطى والنّخبويّة، وتركت الفقراء لـ "الكتائب" المعارضة، فأردتُ العمل مع الطّبقات المسحوقة التي لم تستطع مغادرة البلد. كنتُ حاورتُ مَدَنيّيْن وعسكريّيْن في الدّولة المَدَنيّة والشّريعة والدّستور، وعقدتُ حلقات حوار سياسيّ مع النّاس العاديّيْن حول شكل الدّولة المَرجُوَّة. لم أكن أنام تقريبًا، وأتنقّل بين الحواجز، وأنا مطلوبة لأجهزة الأمن، وأذهب خلسة إلى المناطق المحاصَرة في "الغوطة".

في الشّهر الخامس، قصف النّظام حَيّ "برزة"، وكان الاقتتال بين الجيش

النّظامي و"كتائب الجيش الحُرّ" حاميًا، قبل دخول "الكتائب الإسلاميّة" "برزة". اختبأنا في سيّارة بيك أب، لنخرج منها. أنشأ النّظام حواجز رمليّة وسط الشّوارع، وكان الظّلام دامسًا، والقصف بالهاون والمدفع قويًّا. كنتُ أنا وامرأتان وطبيب، دخلْنا لإسعاف النّاس، وحُوصرنا من قنّاص، يرصدنا. أُطلِق الرّصاص على سيّارتنا التي تحوّلت خردة. أكملْنا طريقنا مشيًا باتّجاه الجامع الذي تحوَّل مشفًى ميدانيًّا. نسير قرب الجدران والقذائف تسقط قُربنا. كان يجب أن نجتاز خمسين مترًا في مَرمى القنّاص. مات ناس كُثُرٌ وهم يعبرون هذه المسافة. صرنا نتحرّك مثل كائنات من الغبار، لأنّ قذيفة سقطتْ على مقربة منّا، وتناثرتْ شظاياها وغبارها فوقنا، واستطعْنا النّجاة من القنّاص. عندما وصلْنا إلى الجامع، رأينا الأهوال. انتزعْنا من جسد امرأة شظايا في أنحائه جميعها مثل نقاط سود مَرسومة. سقطتْ قذيفة في بيتها، فمات زوجها وأمّها وأولادها، وهي نَجَتْ. حينذاك، مات أربعة رجال وامرأتان وشابّ عمره ستّ عشرة سنة. كفّنّا النّساء بمساعدة نساء "برزة" اللواتي كنّ ذوات قوّة وصلابة، كانت منهنّ محافظات، رفضنَ أن يقترب الرّجال من عملهنّ، ومنهنّ لم يهتممنَ، فعملنَ مع الرّجال. كنّ قائدات في المكان، يتحرّكنَ بقوّة وثبات. حمل الرّجال الجثث تحت نيران القَنْص، وركضوا، وركضنا معهم، حتّى استطعْنا الخروج والنّجاة. كنتُ في كلّ مرّة أخرج مُنهكَة، لكنّني كنتُ أشعر بالسّعادة، لأنّني على قيد الحياة.كان أمرًا يشبه الجنون، لأنّني لم أتوقّف. كنتُ مؤمنة بحقّ النّاس بالكرامة والعدالة، لذلك كنتُ أُلبّي ما يطلبونه منّي عندما كانوا يتعرّضون للقصف والقتل.

في نهاية الشّهر السّادس، اتّصل بي أحد شباب "الغوطة" في أثناء "مجزرة زملكا"، وكان اسمي الحركي "زينة". قال لي إنّهم بحاجة إلى أدوية وأدوات إسعاف بسرعة قصوى، ذهبتُ إلى "زملكا"، وعندما وصلتُ، رأيتُ

الجحيم في موقع المجزرة. النّار في كلّ مكان، والجثث مُوزَّعة. الشّارع كلّه بقايا أشلاء بشريّة، اللّحم ملتصق على جدران البيوت، وأمعاء القَتْلى في الطُّرُقات. ارتُكِبَت المجزرة عندما كان أهل المنطقة يُشيّعون قتلى التّظاهرات، فانفجرت سيّارة بينهم. كانت لحظة لا تُنسى، لأنّني لأوّل مرّة، كنتُ أرى هذا الكَمَّ من الفظاعة. أُصبتُ بصدمة، وتخشّب جسمي، ولم أعد أقوى على التّحرّك. اعتقدتُ أنّ قلبي سيتوقّف، وسأموت. كان النّاس حولي يلمُّون الأشلاء. كانوا بلا أدوات إسعاف، وبلا سيّارات ومحاصرين، وتائهين! حاولتُ سَحْبَ أحد القتلى إلى جانب الطّريق، فإذا بنصف جسده فقط بين يَدَي، لم أجد نصفه الثّاني. كان نصف جثّة ممزّقة! انهرتُ تمامًا، وتقيّأتُ، فطلب المسعفون منّي المغادرة. ما كان يُدمي القلب هو سماع الصّراخ من الذين ما زالوا على قيد الحياة وأجسادهم مُقطّعة. كانوا ينادون أمّهاتهم، وهذا أثّر فيّ كثيرًا. كان أحدهم صغيرًا يصرخ: أخ، يا أمّي ... كدتُ أقع، لولا أن رأيتُ امرأة تُنقذ جريحًا، خلعتْ حجابها، وربطتْ جرحه، فركضتُ، وأخذتُ أفعل ما يفعلون، ألمّ الأشلاء والأعضاء. وعندما ذهبْنا إلى المشفى، وجدْنا فيه ثلاثة وستّون قتيلاً. كان أشبه بمدينة رُعب منه بمشفى، لكثرة الأعضاء البشريّة المقطّعة، وفيه خمسة عشر طبيبًا للاهتمام بالجرحى الذين وصل عددهم إلى مئة وخمسين. كان القَهْر يجتاحني عندما يتّصل أحد أصدقائي، ويسألني عن البقيّة في "زملكا"، فأنظر في لوائح الموتى، وأقرأ الأسماء! أنظر حولي في المشفى، وأرى الجثث في كلّ مكان، على الأَسِرَّة ... في الممرّات ... في الغرف!

بعد المجزرة، شعرتُ بغضب عارم، فقرّرتُ ألّا أتخلّى عن موقفي في معارضة الأسد، وسوف أفعل المستحيل من أجل ذلك، لم أخشَ الموت! لذلك، عندما بدأتْ "معركة دمشق" ودخلتْ "كتيبة شهداء دوما" إليها بقيادة

"أبوعلي خبّيّة"، قرّرتُ المشاركة فيها. في الواقع، لم نكن نفكّر في جدوى هذه المعركة. أنا أستغرب ممّنْ يظنّ أنّه كان يُفكّر. كان العنف لا يُحتَمَل، ولا يترك مجالًا للتّفكير! ونحن ننشط بآليّة غير مَدروسة. لذلك، لم أفكّر فعلًا في التّحرّكات العسكريّة، كلّ ما فكّرتُ فيه هو أنّه يجب أن أكون على خطّ المواجهة الأوّل، لأنّ هذا واجبي. دخلتُ حَيّ "الميدان"، حيث وصل "الجيش الحُرّ"، وحيث كان هناك مشفًى ميدانيّ، بقيتُ فيه. طلبتُ من قائد "الكتيبة" نَقْلَ المشفى إلى القبو، اعتقدتُ أنّ النّظام سيسقط. كان الغليان كبيرًا ضدّ الأسد، والأجواء مهيّأة لذلك، وساد اعتقاد بأنّ "الكتائب المعارضة" الأخرى ستنضمّ إلى "كتيبة شهداء دوما"، وستكون هناك حرب عصابات مع النّظام، وهذا كفيل بإسقاطه! كنّا حالمين فعلًا! كانت معي ثلاث نساء في المشفى الميدانيّ، وإعلاميّة واحدة من غير حجاب، احترمَنا المقاتلون، وأحاطونا بالتّقدير، لأنّنا دخلنا معهم أرض المعركة، ووقفْنا معهم أمام الموت وجهًا لوجه، استمعوا لنا، وأصغوا لمشورتنا. قدّموا لي مسدّسًا، لأنّني على خطّ الجبهة، فرفضتُ. فقال لي أحد المقاتلين: هذا المسدّس لا لتقتلي أحدًا، بل لتدافعي عن نفسك، إذا أراد أحد قتلكِ أو أسْرَكِ. دافعي عن نفسكِ بطريقتكِ، اقتلي نفسكِ، أو افعلي ما تريدين!

في تلك المعركة، كانت دبّابة للنّظام تقف آخر الشّارع الذي نحن فيه. المقاتلون لا يملكون سوى قنابل يدويّة ورشّاشًا، والدّبّابة مطلّة على شارع رئيس في "الميدان"، وكانوا يتوزّعون في الحارات، ويستفزّون عناصر الدّبّابة، فيقفزون أمامها، ثمّ يختفون، كانت الخطّة أن مقاتلًا آخر ينتظر حتّى تقصف الدّبّابة عليهم، ليُوجّه الـ "آر بي جي" نحوها، ويطلق النّار عليها، وهو ما حصل. لقد أعطبوها. كان الموت قريبًا إلى هذه الدّرجة، لكنّي لم أخشه، خفتُ فقط رؤية مَنْ يقتلني وجهًا لوجه.

في اللّيل وبعد انتظار، قال قائد "الكتيبة" لن يأتي أحدٌ لمساندتنا، فالجميع تخلّى عنّا. كان يجب أن تصل "كتائب الجيش الحُرّ" الأخرى منذ أربع وعشرين ساعة، ولكنْ، لم يصلْ أحد، فانسحب المقاتلون إلى الحجر الأسود، ونحن هرّبونا، وعدنا إلى إحدى ضواحي دمشق.

غيّرتْ هذه التّجربة في دخولي قلبَ المعركة، علاقتي بالموت. قال لنا قائد "الكتيبة"، قبل الانسحاب، هذه معركة موت، ونحن سنموت، إن بقينا، لذلك أخرَجونا. لقد كان الموت أسهل بكثير ممّا كنتُ أتخيّل، إنّه أسهل ما في الحياة! لقد خرجتُ من معركة دمشق امرأة أخرى. صرتُ أكثر جرأة وقدرة على مكاشفة نفسي بالحقائق. أدركتُ أن تهوّري في دخول خطّ الجبهة في معركة خاسرة هو نوع من اليأس، حاولتُ ألّا أيأس. لقد رأيتُ خذلان هؤلاء الشّباب من قِبَل رفاقهم في الثّورة، كان بينهم وبين جماعة النّظام حائط واحد. كانت معركة عنيفة، شجاعة ومتهوّرة في منتصف الشّهر السّابع عام ٢٠١٢. مات خلالها عشرون شابًّا. (ثمانية عشر منهم استُشهدوا في اللّيلة الأخيرة قبل الانسحاب، بسبب نقص الدّواء، لأنّ حَيّ "الميدان" صغير ومُحاصَر من الجهات كلّها، وقتذاك كنتُ خرجتُ من "الميدان"، وبقي صديقي الطّبيب الذي دخل معي، فاتّصلتُ به، فقال إنّ أمامه الآن ثمانية عشر شهيدًا، وإنّ الموت آتٍ لا محالة، لأنّ الانسحاب من "الميدان" أصبح شبه مستحيل، لكنهم استطاعوا النجاة).

قرّرتُ التّفرّغ للعمل الإعلاميّ بعد الهزيمة في معركة دمشق، كنتُ أشعر بالخذلان والخيانة، فبدأتُ العمل في الشّهر الحادي عشر من عام ٢٠١٢ مع "شبكة الإعلام الحُرّ" التي تأسّستْ قبل ذلك بأشهر، من شباب

"عربين" و"سقبا" و"حمّوريّة"(*)، بينهم "عبد الكريم إسماعيل" المعروف بأبو المجد، وهو واحد من أنبل رجال سورية، وأكثرهم نزاهة وديموقراطيّة، استُشهد لاحقًا مع الكادر الإعلاميّ كلّه بقذيفة في أثناء قصف النّظام في نهاية الشّهر الأوّل من عام ٢٠١٣، أُصبتُ بصدمة عندما قُتل الشّباب! كنتُ قد تركتُهم قبل يومَيْن، وعدتُ إلى بيتي في دمشق، لأستحمّ وأُبدّل ثيابي، ماتوا في أثناء غيابي، لكنّني قبل ذلك عملتُ معهم، واشترطتُ عليهم ألّا يتدخّلوا بلبسي، لأنّني سافرة، فوافقوا. لم يكن موضوع الحجاب مشكلة لديهم. حاضرتُ فيهم حول الإعلام، ودرّبتُهم على كتابة التّقارير الصّحافيّة، كنتُ مصرّة على ألّا يستخدموا الشّعارات الدِّينيّة، ألّا يقولوا عن قَتْلى النّظام كلمات مثل "فطايس". كانت تدريباتي لهم عن الخطاب الإنسانيّ السّياسيّ قبل أن يطلقوا الشّبكة الإعلاميّة، كنّا نعمل على خطّ جبهة "عربين"في ظروف مأساويّة.

في تلك الفترة، في أثناء عملي مع شبكة الإعلام الحُرّ في "عربين"، بدأت "الكتائب" تتكاثر، وحلّت فوضى عارمة، واشتدّ القصف من قِبَل النّظام، وتدفّقتْ أموالٌ هائلةٌ إلى "الكتائب"، حصل هذا تدريجًا، وبشكل غير واضح، بخاصّة بعد معركة دمشق! أظنّ أنّ النّاس لم يفهموا ما يحصل حولهم، وصدمة العنف الوحشيّ من قِبَل النّظام، وبحسب تجربتي معهم في "الغوطة"، دُفعوا دَفْعًا إلى التّديّن. كانت المجازر الطّائفيّة قد فعلتْ فعلها مثل مجزرة "داريّا" وجديدة الفضل، فغادر جزء كبير من ناشطي الطبقة الوسطى "الغوطة" ومثقّفيها، مَنْ بقي من ناشطي الطبقة الوسطى أسّسوا "تجمّع القوى الثّوريّة في الغوطة الشّرقيّة"، وهم من شخصيّات محلّيّة ذات نفوذ، من أرياف وطوائف عدّة. واستمرّوا لسنة تقريبًا. صُفّي

---

*) من بلدات غوطة دمشق.

هذا التّجمّع بعد اعتقال النّظام بعضَ عناصره، واغتال "جيش الإسلام" بعض الاشتراكيّيْن، والقلّة الباقية اختلفتْ لاحقًا فيما بينها، خصوصًا أنّ "الإخوان المسلمين" أرادوا فرض شعارات دينيّة، وهي واحدة من نقاط الاختلاف، ثمّ ظهر خلاف أكثر وضوحًا بين مَنْ قال إنّ أموال الإغاثة يجب أن تذهب إلى هيئات مَدَنيّة، وبين مَنْ قال إنّ الأموال يجب أن تذهب إلى العسكر.

كانت واحدة من خلافاتي مع ناشطات الطبقة الوسطى اللواتي دخلنَ "الغوطة" للمساعدة، أنّهن قبلنَ التّحجّب. شعرتُ بأنّ فعلهنّ هذا يُضيّق عليّ عملي، ويضعني في موقف ضعف. رأيتُ أنّ هذا موقف مهادن لـ "الكتائب الإسلاميّة" وللعقليّة السّائدة، على الرّغم من أنّ نصف مَن في المشافي في "الغوطة" من النّساء. في المكاتب الإعلاميّة، لم تكن هناك نساء، كنّ قليلات جدًّا. مرّة، هدّدت "الكتائب الإسلاميّة" إحدى النّساء بالقصاص، لأنّها كانت تقود سيّارة، وتُوزّع الطّعام على المحتاجين، وهذا كان من تأثير التّمويل الإسلاميّ. صار المنهج كلّه في المدارس دينيًّا، بسبب التّمويل أيضًا. المموّلون فرضوا مناهج التّعليم، وكان النّاس محاصَرون، ويُقصفون باستمرار، فقبلوا شروط المموّلين. فصلوا البنات عن الذُّكُور في التّعليم، وقالوا هذا حرام، وهم مُجرّد أطفال. بحثتُ عن مصدر تمويل هذه المدارس، فاكتشفتُ فعلًا أنّ هناك شيخًا سعوديًّا ثريًّا، يُموّلها، إضافة إلى مشايخ من قَطَر أيضًا. كان التّنافس بين شيوخ السّعوديّة وشيوخ قَطَر على تأسيس الهيئات الشّرعيّة والمدارس، لا يتوقّف.

عندما بدأت الأمور تخرج عن سياقها الوطنيّ حزنتُ، لأنّني كنتُ شاهدة على هذه التّحوّلات. كان شعار "كتيبة شهداء عربين" هو النَّسْر

السّوريّ، وداخله عَلَم الثّورة مع ثلاث نجوم حمر، وتحته جملة: الشّعب يريد إسقاط النّظام، وفي أعلى الشّعار "قوّة، كرامة، مَدَنيّة". في بداية ٢٠١٣، نُزع عَلَم الثّورة، ورُفع محلّه عَلَم أبيض، عليه عبارة "لا إله إلا الله"، وحُذفتْ شعارات المَدَنيّة والكرامة. كنتُ في المكتب الإعلامي، وصُعقتُ ممّا حصل، وكنتُ موجودة أيضًا عندما أجرى أحد القادة العسكريّيْن حوارًا عبر السّكايب مع شيخ خليجيّ، لم أستطع تحديد هويّته، لقد رأيتُ ذلك بعيني. كانت المعركة حامية قرب "حرستا"، والقائد العسكريّ يطلب مساعدة من الشّيخ. قال القائد إنّه يريد صواريخ وذخيرة ومضادًّا للدّبّابات وطعامًا بمبلغ عشرة ملايين دولار، فسأله الشّيخ عن اسم المعركة، فقال له لم تُسمَّ بعد، فطلب الشّيخ تسميتها باسمه، فرفض القائد، وقال له: نحن عندنا مجرم، ونريد محاكمته، ونريد تحرير بلدنا منه، ولا نستطيع تسمية المعركة باسمكَ. أصرّ الشّيخ، ورفضَ القائد، ولم تحصل المعركة. كان واحدًا من قلّة قليلة نظيفة، لكنّها قلّتْ جدًّا لاحقًا، لأن"الكتائب" قبلتْ لاحقًا برَفْع شعار "لا إله إلّا الله" وغيره من الشّعارات الإسلاميّة. لقد قاومت "الكتائب" بداية التّطرّف الدِّيني، وانساقتْ له لاحقًا.

كان "جيش الإسلام" عبارة عن كتيبة اسمها "سرّيّة الإسلام"، ثمّ تحوّل جيشًا بدَعْم من السّعوديّة. القَطَريّون دعموا كتائب "أجناد الشّام"، حين عملتُ في المشفى الميدانيّ عرفتُهم، كانوا من "الإخوان المسلمين".

راقبتُ هذه التّحوّلات، ولم أفكّر للحظة واحدة في الخروج من سورية، قرّرتُ البقاء لأواجه مصير النّاس، لكنّ أخي اعتُقل في ٢٠١٣/٨/١٠، فذهبتُ إلى دمشق لمتابعة قضيّة اعتقاله، والاتّصال بالمحامين ومنظّمات حقوق الإنسان، كنتُ أتحرّك بشكل سرّيّ، ولم أستطع أن أفعل شيئًا.

حاولتُ العودة إلى "الغوطة" بعد أسبوع، ففشلتُ مرّات عدّة في عبور الحواجز. وعندما حصلتْ مجزرة الكيماويّ في ٢١ آب ٢٠١٣، قيل لي أن أنتظر ريثما تتحسّن الأمور.

في أثناء انتظاري، اقتحم الأمن بيتي السّرّيّ في نهاية آب، حيث اتّصل صديقي الذي اعتقلوه مساء من بيتي، وحاولتْ أجهزة المخابرات ترتيب كمين معه لاعتقالي، انهرتُ تمامًا، تخيّلتُهُ تحت التّعذيب من أجل أن يأتي بي. قرّر أهلي أنّه يجب أن أغادر دمشق، هربتُ من بيت إلى بيت. الخطّة كانت أن أبقى في "السّويداء"، لكنّ رجال الأمن اعتقلوا الشّابّ الذي هرّبني من دمشق، ثمّ اعتقلوا ثلاثة شباب من أحد البيوت التي لجأتُ إليها في أثناء هروبي، فلم يعد أمامي إلّا الخروج من سورية. كنتُ أعبر عشرات الكيلومترات بدرّاجة مع الشّباب، طُلب منّي أن أتحجّب، لأعبر حواجز "جبهة النّصرة" في "درعا"، فرفضتُ.

في أثناء هروبي باتّجاه "درعا"، تفاجأنا بحاجز لـ "النّصرة" أمامنا، كان عناصره ستّة، أربعة أردنيّيْن واثنَيْن سوريَّيْن، أوقفونا، وأرادوا توقيفي، وأخذي إلى "الهيئة الشّرعيّة" لمحاسبتي، لأنّني غير مُحجَّبة، فصرختُ، ولم أسكت. كان الشّباب الذين معي من "الجيش الحُرّ"، وعندما صرختُ في العناصر، وجَّهوا أسلحتهم نحوي، فشهر شباب "الجيش الحُرّ" أسلحتهم أيضًا، وصارت أسلحة الكلّ مُوجَّهة إلى الكلّ. قلتُ للعناصر حينذاك إنّني سأذهب مع الشّباب، كنتُ مستعدّة لأن أفعل أيّ شيء ولا يتضرّر مزيد من الأشخاص بسببي، فأجرى مقاتل من العناصر اتّصالاته، وسمح لنا بالمرور.

لم أستطع البقاء في "درعا"، لأنّني رفضتُ أن أتحجّب. كانت رحلة

طويلة وشاقّة، وجدتُ نفسي أخيرًا قرب نقطة حدود غير رسميّة، سيطرت عليها "جبهة النّصرة"، وخرجتُ من سورية في تشرين الثاني ٢٠١٢. وأنا الآن لاجئة في فرنسا.

لا توجد كلمات تصف مرارتي، وكلّ يوم أفكّر في العودة إلى سورية.

الزّاوية الثّانية عشرة

أنا منى فريج. عمري اثنتان وأربعون سنة. كنتُ مدرّسة لغة إنكليزيّة عندما بدأت الثّورة. تشكَّل وعيي السّياسيّ من خلال إخوتي وأصدقائهم المعارضين، حيث كنتُ أقرأ وأبحث وأعيش بين مجموعة مثقّفين. منذ البداية، انخرطتُ في تظاهرات الرّقّة،وكان الرّجال يعترضون على خروج النّساء في التّظاهرات. كان هذا في الشّهر الخامس من ٢٠١١، قال أحدهم إنّه إذا خرجت النّساء في التّظاهرة، فلن يخرج الرجال معهنّ. قلتُ له: ابقَ أنتَ في بيتك، أنا سأخرج للتّظاهر، وهذا من حقّي. كنّا فقط امرأتَين، شاركنا في التّظاهرات لاحقًا، ثمّ انتسبتُ إلى "تنسيقيّة الرّقّة"، وكنتُ أعدّ اللّافتات، وأبثّ الأخبار، وأُصوّر التّظاهرات، وأتابع الموضوعات الإعلاميّة. كان وجود النّساء قليلًا في "تنسيقيّات الرّقّة"، وفي النّشاطات كافّة.

فُصلتُ من التّدريس عام ٢٠١٢، لأنّني شاركتُ في التّظاهرات. وفُصلتْ ثماني نساء من عملهنّ أيضًا. حرّضْنا على الإضراب بوسائل سِلْميّة، وكان أهلي خائفين من المجتمع، بخاصّة فيما يتعلّق بمسألة الاعتقال. كنتُ حينذاك أعود متأخّرة إلى البيت، وكان معي في العمل شباب، ما شكَّل ضغطًا على عائلتي، فعاداتنا تمنع النّساء من الاختلاط بالرّجال، على الرّغم من أنّ الأمر اختلف في الثّورة، وتغيّرتْ تقاليد كانت مُتّبعة، نظرًا إلى حالات الطّوارئ.

في إحدى التّظاهرات التي خرجتْ من حَيّ "البياطرة" في آذار عام ٢٠١٢، نقلتُ أحد الجرحى وهو "عصام المبروك" إلى بيتنا، وجئتُ بأطبّاء لمعالجته، لأنّ القنبلة المسيّلة للدّموع التي ألقاها علينا رجال الأمن، أصابتْهُ في رجله، وهنا اشتدّ الضّغط عليّ من أهلي والمجتمع، نظروا إلى ما أفعله بريبة، لأنّني أختلط بالرّجال. لم يعتقل رجال الأمن نساء الرّقّة، لأنّ العُرْف سيجعل العشائر كلّها تنتفض، إذا اعتُقلت فتاة منها. لذلك، لم يخاطر النّظام بهذا الأمر. في تلك التّظاهرة، كان عناصر الأمن يملؤون الشّوارع، وأطلقوا الرّصاص الحيّ على المتظاهرين، أصابتْني رصاصة، وجُرحتُ جرحًا طفيفًا، وأُصيب شابّ اسمه "عليّ البابنسي"، وقد توفيّ لاحقًا متأثّرًا بجروحه، وهو الشّهيد الأوّل في "الرّقّة". خرجت المدينة كلّها في عزائه، على الرّغم من أنّه ليس من أهل "الرّقّة"، وعائلته لا تدخل ضمن التّوازنات العشائريّة التي تسند الفرد، إلّا أنّ النّاس كلّهم خرجوا لتشييعه. كانت تظاهرة هائلة، وذهب المشيّعون في اتّجاه السّاحة عند تمثال حافظ الأسد، وأرادوا إسقاط التّمثال، فتدخّلتْ قوّات من الفرقة ١٧، وأطلقت النّار بشكل كثيف، وقُتل من المتظاهرين حَواليَ سبعة عشر، وسُمّيت تلك الحادثة بمجزرة "البابنسي" في ١٥/ ٣/ ٢٠١٢.

عملتُ في الإغاثة الطّبّيّة والإنسانيّة، كنّا قلّة، عملنا في المجالات كلّها لعَدَم وجود الكوادر، استقبلْنا النّازحين من "إدلب" و"دير الزّور"، ووقعتْ على عاتقنا مسؤوليّة إطعامهم. اشتغلتُ بلا توقّف حتّى خروج النّظام من "الرّقّة"، ترشّحتُ في انتخابات المجلس المحلّيّ في الثّورة، واستلمتُ المكتب الإغاثيّ. كنتُ المرأة الوحيدة فيه. وعندما تحرّرت "الرّقّة"، أو كما اعتقدنا عندما خرج نظام الأسد، عُيّنتُ مديرة الإغاثة. كانت مستودعات الطّحين من مسؤوليّتي، لأنّ النّظام منعه. وزّعْنا الطّحين على القرى مجّانًا، وعلى الأفران بثمن بخس.

عندما خرج النّظام من "الرّقّة" في الشّهر الثّالث، كان تعاوُن "الكتائب" معنا جيّدًا، وكان "الجيش الحُرّ" ومن ضمنه كتائب "أحرار الشّام"، يسيطر على المدينة، نظّمْنا نحن النّساء معارض ونشاطات، حدث ذلك كلّه والنّظام لا يتوقّف عن قصفنا باستمرار. مرّة، قصف سيّارة أمامنا، وكانت فيها أسلحة وذخائر، فحدث انفجار كبير، وتفحّم مَنْ في السّيّارة.

عندما قويتْ شوكة "أحرار الشّام"، وضعفتْ بقيّة كتائب "الجيش الحُرّ"، بدأت التّدخّل في حياتنا، واختلفت الأمور، ليس في حركتنا وحياتنا ونشاطاتنا نحن النّساء فحسب، بل حتّى في نشاط الشّباب العلمانيّيْن. اعتقلتْ كتائب "أحرار الشّام" اثنَيْن من النّاشطين العلمانيّيْن، اعتصمنا احتجاجًا أمام مقرّ "الأحرار"، كنّا ستّ نساء،وطالبنا بإطلاق سراح الشّابّيْن في الشّهر السّادس من ٢٠١٣. وقفنا أمام الهيئة الشّرعيّة، ورفعْنا لافتة مكتوبًا عليها "الهيئة الشّرعيّة، فرع الجويّة". لم أخفْ، بقينا حتّى أُطلق سراح الشّابّيْن، ثمّ سيطرت "جبهة النّصرة" على "الرّقّة". كان أمراء الجبهة من أهلها، ولاحقًا اغتالهم "داعش". أبو لقمان واحد منهم، كان معتَقَلًا في سجن "صيدنايا" لدى النّظام، وهو الآن أمير عند "داعش".

ضيّقتْ "جبهة النّصرة" عليّ كثيرًا. أنا محجّبة بحكم التّقليد والعادات، علمًا أنّني ألبس بنطالًا من الجينز، وسترة قصيرة، فمُنِعتُ من دخول المجلس، لأنّني لا أرتدي عباءة سوداء. رفضتُ ارتداءها، واستمررتُ في عملي من بُعد، وعبر الإنترنت. فُرضت العباءة على النّساء كلّهنّ. كان العناصر يُوقِفُونني في الشّارع، ويطلبون منّي ارتداء اللّباس الشّرعيّ. وفي أثناء العمل، كانوا يعترضون السّيّارة التي أكون فيها، وإذا لم يكن الرّجل الذي معي محرمًا، أقع في مشكلة. كنتُ أوصل الموادّ الغذائيّة

إلى النّازحين، كان عناصر "الجبهة" على الحواجز يرفضون أن أعبر، لأنّني لا أضع الحجاب الشّرعيّ، وكانوا يمتنعون عن الحديث معي، لأنّني امرأة، فأُضطرّ لارتداء العباءة، كي أُوصلَ الطّعام إلى النّاس.

عندما خرج النّظام من "الرّقّة"، خفْنا على المركز الثّقافيّ ومحتوياته من كُتُب وأجهزة ... فطلبتُ الإذن من "جبهة النّصرة" بدخوله، حيث كانت تحرس المركز، وتراقبه، فقال الحارس إنّه لن يسمح لي بالدّخول من دون إذن أمير "الجبهة". طلبتُ مقابلته، فقيل لي إنّ الأمير لا يقابل النساء، فانفجرتُ غضبًا في وجوه الذين رفضوا. فقالوا لي: اتسترّي ... واتغطّي، علمًا أنّني كنتُ محجّبة. فقلتُ لهم: أنا مستورة. فقالوا: اذهبي، وأرسلي الرّجال، لنتحدّث معهم. فقلتُ لهم إنّني المسؤولة عن الرّجال في عملي. تجادلْنا طويلًا، فخرج الأمير، وقابلني، لكنّه لم ينظر في عينَيّ، كلّمني مُعرِضًا وجهه عنّي. قلتُ أريد دخول المركز، وكانت فيه أغطية للنّازحين أيضًا، فطلب الأمير أن يأخذ من الأغطية للمجاهدين. فرفضتُ، وقلتُ له هذه للنّاس المَدَنيّيْن والمحتاجين، وأخذتُ الموافقة منه للمرور.

دخل "داعش" "الرّقّة" عام ٢٠١٤، وكانت "جبهة النّصرة" قبلًا مسيطرة على "الرّقّة" من الشّهر السّابع وحتّى نهاية ٢٠١٣، وقد أنزل عناصرها الصليب عن كنيسة "سيّدة البشارة"، فخرجنا نحن المَدَنيّيْن في تظاهرة، وأَعَدْنا الصّليب إلى مكانه. أرادوا اعتقالنا، فتدخّل النّاس لإنقاذنا. بعد ذلك، اعتقلوا شبابًا من "أحرار الشّام"، فاعتصمْنا، وطالبْنا بإخراجهم، وقفوا أمامنا ونحن معتصمون أمام "الهيئة الشّرعيّة"، قلتُ لهم أنتم أسوأ من نظام الأسد، ولقد فعلتُم أسوأ منه، وقلتُ لحارس مُلثّم: أنتَ تخفي وجهكَ عنّا، ونحن وجوهنا سافرة، تُسمّون أنفسكم مجاهدين، وتُغطُّون

وجوهكم بيننا؟ الإسلام بريء منكم، أَخرِجُوا أولادنا من سجونكم! لم يُطلقوا سراح الشّباب.

احتلّ "داعش" "الرّقّة" في الشّهر الأوّل من ٢٠١٤، وكانت له خلايا نائمة فلاحقت "الكتائب" الأخرى "لواء ثوّار الرّقّة، جبهة النّصرة، أحرار الشّام". انسحبت "أحرار الشّام" باتّجاه إدلب. حصل قتال بين "جبهة النّصرة" و"داعش". قاتل عناصر "لواء ثوّار الرّقّة" حتّى نفدت ذخيرتهم، وقُتل كُثُرٌ منهم، ومَنْ بقي انسحب.

منع "الدّواعش" النّساء من العمل، إلّا ضمن رؤيتهم، وتحت حُكمهم. أوقِفُوني عن العمل، حصل هذا بشكل تدريجيّ. بداية، كنّا نتظاهر ضدّ قوانينهم في فَرض لباسهم والتّدخّل في أمورنا نحن النّساء. عندما اختطفوا بعض الشّباب المَدَنيّيْن، خرجْنا في تظاهرة ضدّهم، ورفعتُ لافتة، كتبتُ عليها "تسقط دولة العراق والشّام الإسلاميّة". كنّا خمسين شخصًا في التّظاهرة، وكان هذا في نهاية ٢٠١٣.كانت سعاد نوفل معنا. لكنْ، في بداية ٢٠١٤، مُنعْنا تمامًا من الحركة. الجرائم التي ارتكبوها بقَطْع الرّؤوس في السّاحات العامّة كانت كفيلة بشَلِّنا وترويعنا.

التزمتُ البيت. كنتُ ناشطة مجتمع مَدَنيّ، وأعرف أنّني سأكون مُلاحَقَة من قِبَل "داعش"، ولم أعدْ أستطيع الحركة، والقصف يشتدّ، والسّفر صعب.

عندما توفّيت ابنة عمّي، ذهبتُ إلى العزاء. كان ذلك في ١٢ أيلول ٢٠١٤، علمًا أنّني لم أعد أخرج من بيتي منذ دخول "داعش". عندما رآني النّاس، خافوا وقالوا لي إنّ "تنظيم داعش" يبحث عنّي، وأنا مطلوبة له،

لأنّني شاركتُ في تظاهرة ضدّه. لم أستطع الرّحيل، لأنّ أمّي مريضة، ولا أريد أن أتركها وحدها.

في ١٣ أيلول، كنّا في البيت، دهم رجال "داعش" المنزل، وكنتُ مع أمّي وزوجة أخي. كنّا معتادين أن نترك أبواب بيوتنا مفتوحة، لأنّ الباحات في الوسط كانت مَضافة. النّاس في "الرّقّة" كرماء، وبيوتهم مفتوحة.

هجم "الدّواعش"، تتقدّمهم امرأة، تتحدّث اللّغة العربيّة الفصحى، كانت فرنسيّة من أصل مغربيّ. لم أعرف تمامًا من أيّ منطقة، لكنّها كانت تتحدّث العربيّة الفصحى بصعوبة، كانت تُكنّى بأمّ محمّد الفرنسيّة، جاءت من فرنسا، وانضمّت إلى "داعش". سألتني ما إذا كنتُ أنا منى فريج. كنّا مصدومين من الاقتحام، والكهرباء مقطوعة، وبالكاد نرى. أجابتْها زوجة أخي، وقد أدركتْ ما يحصل: لا، هذه ليست منى. انتبهتُ في تلك اللّحظة إلى أنّ وراءها رجالًا، فكسرتُ جهاز كمبيوتري فورًا، ودخلتُ غرفة أمّي مسرعة، فانتشر الرّجال في باحة الدّار، وأخذوا الكمبيوتر المكسور، ثمّ أمسكني أحدهم من شَعْري، وسَحَلَني على الأرض، وضع رِجلَهُ فوق صدري، وصوّب البارودة إلى رأسي، فصرختْ أمّي: هذه ليست منى، هذه أختها، فصرخ "الدّاعشيّ" مَنْ يفتح فمه أضع طلقة في رأسه! كان تُونُسيًّا، ثمّ أطلق في الهواء طلقات عدّة، فجاء الجيران بسرعة، وتجمّعوا في الباحة. كان مع "الدّاعشيّيْن" رجالٌ مُلثّمون، وعادة عندما يغطّي "الدّواعش" وجوههم، هذا يعني أنّهم من أهل "الرّقّة"، أمّا الغرباء، فلا يغطّون وجوههم، ولا يُخفون هويّاتهم.كان وجه التُّونُسيّ مكشوفًا. تعاطف معنا الجيران، فألهوا "الدّواعش"، وأخذني ابن عمّي إلى السّطح، وقال لي: اهربي بسرعة، فقفزتُ إلى سطح الجيران، ثمّ إلى الأرض، ودخلتُ

بيوتًا عدّة، وقد ساعدني أهلها لأتحاشى الحواجز، عبر المرور في بيوتهم. ثمّ أوقفتُ سيّارة، وذهبت إلى بيت صديقة لي. في صباح اليوم التّالي، أخذتُ هويّة إحدى صديقاتي، وهربتُ إلى خارج سورية.

كان غضبي على النّساء اللواتي يعملنَ مع "داعش" عارمًا، منهنّ من "الرّقّة"، ومنهنّ من الخارج. كانت من مهمّاتهنّ الخطبة، وهذه وظيفة النّساء في إيجاد زوجات لـ "الدّواعش". طلبات الزّواج غالبًا من فتيات صغيرات. كنّ يفعلنَ ذلك بالنّرهيب والتّرغيب. إحدى البنات واسمها فاطمة من قرية "اللّحبية"، انضمّ أحد أولاد عمّها إلى "داعش"، كان عمرها عشرين سنة، وتدرس في الجامعة بكُلّيّة التّربية، وهي جميلة جدًّا، خطبها "داعشيّ" رغمًا عنها، فقد أراد ابن عمّها تزويجها. هناك أشخاص في "الرّقّة" انضمّوا إلى "داعش" من أجل السّلطة، وليس المال فحسب، وابن عمّ الفتاة أراد توطيد العلاقة مع التّنظيم، فقدّمها زوجةً إلى أحد عناصره. حصل هذا كثيرًا بين أهالي "الرّقّة". رفضت الفتاة، وعندما فُرض الأمر عليها، تجرّعتِ السّمَّ، وقتلتْ نفسها، ولم تقبل بالزّواج بـ "داعشيّ". عرفتُ زيجات تمّتْ لتُونُسيّيْن في الغالب، ولسعوديّيْن، وأيضًا لبعض من أهالي "الرّقّة" الذين تسلّموا سلطة في "داعش"، كانوا يتزوّجون أكثر من مرّة، وأصبح تعدّد الزّوجات أمرًا شائعًا ومقبولًا أكثر من أيّ وقت مضى. كانت للنّساء أيضًا مَهمّة أخرى مع "داعش"، وهي العمل في "الحسبة" لملاحقة النّساء اللواتي يضعنَ الماكياج، ويتبرّجنَ، أو اللواتي تفوح من أفواههنّ رائحة السّجائر، أو اللواتي تحت عباءاتهنّ ثياب مزركشة. وكلّ مَنْ كانت تخالف قواعد التّنظيم في اللّباس، تُؤخَذ إلى السّجن، حيث تدفع غرامة، وتُجبَر على شراء اللّباس الشّرعيّ، الذي أصبح فرضًا، في المرّة الأولى التي تُضبط فيها مخالِفة. ولكنْ، إذا كرّرت المخالفة، تُجلَد في

ساحة عامّة.وإذا رفعتْ أيّ امرأة نقابها، وبان وجهها، تُجلَد مباشرة. في إحدى المرّات، اعتُقلتْ جارتنا، لأنّها خرجتْ فقط من باب بيتها إلى باب بيت الجيران الملاصق، من دون نقاب، وجُلِدَت أمام النّاس. كان في قلب مدينة "الرّقّة" سجن معروف للنّساء قرب الملعب البلديّ، يديره رجال ونساء. كانت مَهمّة الرجال فيه التّحقيق، ومَهمّة النّساء تنفيذ العقوبات. كانت فيه جلّادات مختصّات بالتّعذيب، منهنّ كنّ من "الرّقّة". أوّل امرأة عملتْ في الشّرطة الخاصّة بـ "داعش"، كانت من "حمص". كانت قَبْلًا مع "أحرار الشّام" و"جبهة النّصرة"، ثمّ انضمّتْ إلى التّنظيم.

اعتقل "الدّواعش" أختي وزوجة أخي. أخذوا زوجة أخي بدلًا منّي، سجنوها مع أطفالها.كانت امرأة ستّينيّة معها في السّجن، وهي أمّ لأربعة خُرسٍ ومُعوّقين عقليًّا. سجنوها بتهمة التّعامل مع النّظام. كانت امرأة فقيرة، تخبز، وتبيع الخبز، وهي مريضة بالرّبو، إضافة إلى سجينات اعتُقلنَ لمخالفة قانون ارتداء اللّباس الشّرعيّ. كان هذا الأمر من أكثر الأمور تشدّدًا لديهم، والذي فرضوه بقوّة السّلاح. اعتقلوا أختي، لأنّهم اكتشفوا أنّها تستخدم الإنترنت، وبقيَتْ أسيرة هي وزوجة أخي لخمسة وأربعين يومًا.

أسوأ ما في الأمر، أنّني قبل الثّورة كنتُ حُرّة على الصّعيد الشّخصيّ. درستُ في جامعة "حمص"، وكان لي أصدقاء من المُدُن كلّها، رجالًا ونساء، يزورونني وأزورهم. كنتُ أعمل أيضًا. فجأة تغيّر العالم من حولي، من عالم واسع إلى عالم مُغلَق. مُنعْنا من التّعليم، ومن العمل، مُنعْنا حتّى من الجلوس أمام بيوتنا، وكانت هذه عادة تقليديّة في "الرّقّة"، حيث يجلس النّاس أمام بيوتهم نساء ورجالًا. خرجْنا من أجل الحُرّيّة، فعدنا مئات السّنين إلى الوراء.

مشاعري مختلطة، وأفهم تعقيدات الوضع السّوريّ، لكنّني أعيش في تركيا الآن، وأمّي ماتتْ وحيدة في "الرّقّة". أنا فخورة بأنّني بنت مدينة "الرّقّة"، وأريد للعالم كلّه أن يسمع حكايتنا. أهل "الرّقّة" لم يكونوا متطرّفين ومتشدّدين، وبيئتهم ليست حاضنة لـ "داعش"، لقد فُرضت علينا العبوديّة بقوّة سلاح التّنظيم و"الكتائب" المتشدّدة الأخرى. تعرّضْنا للاحتلال. هذه العذابات والدّماء كلّها التي كنّا نظنّ أنّها ثمن للحُرّيّة، انتهتْ بنا إلى العبودية.

الرّاوية الثّالثة عشرة

أنا رولا، كنتُ في نهاية العشرينيات عندما بدأت الثّورة. وكنتُ أعيش بين مدينتَي "اللّاذقية" و"طرطوس". كان أبي يستقبل في بيتنا سوريّيْن كُثرًا. يجمع "الدّيريّ" و"الرّقّاويّ" و"الحلبيّ" و"الحمصيّ"، ولم يدعُ أبي أحدًا منهم بمسمّاه الطّائفيّ، هكذا نشأتُ، ولن أستطيع البوح بتفاصيل حياتي الشّخصية لأسباب أمنيّة.

لم أكن موافقة على الحلّ الأمنيّ العنيف الذي انتهجَهُ النّظام في مواجهة الحراك الشّعبيّ، لكنّني لستُ مع ما طرحتْهُ شعارات الثّورة الطّائفيّة والدِّينيّة لاحقًا بعد الشّهور الأولى من الثّورة.

عندما بدأ النّازحون يتوافدون إلينا من "حلب" و"إدلب" و"حمص" نتيجة قصف بيوتهم، كرّستُ نفسي للعمل معهم ومساعدتهم وتعليم أطفالهم، فعلتُ ذلك بطريقة سرّيّة أوّلًا، ثمّ عَلَنًا بعد ذلك. كان العنف الطّائفيّ يكبر، ولم يعد ممكنًا تفاديه. كان هناك نازحون، ينظرون إليّ كغريبة، وخافوا منّي، لأنّي عَلَويّة، وجيراني وأهلي وأصدقائي، بغالبيّتهم، قاطعوني، وكنتُ عرضة للتّحقيق بشكل مستمرّ. الرّفض الاجتماعيّ والضّغط من البيئة المحلّيّة حَدَّا من قدرتي على العمل بحُرّيّة بين النّازحين. لم أنظرْ إليهم إلّا كسُوريّيْن وأناس فقدوا بيوتهم وعائلاتهم، وهم ضحايا لنظام الأسد وتواطؤ إقليميّ دوليّ. هناك فتيات وشباب كُثُرٌ مثلي في مدينتي، وهم من أديان

وطوائف عدّة، لكن الضّغط الأمنيّ كان يشلّ حركتنا. لم ترغب أجهزة الأمن في نشوء أيّ حركة تضامن إنسانيّ بين السّوريّيْن.

لقد وجدتُ عبر العمل الإنسانيّ والتّنمويّ أنّنا نستطيع خَلْق شكل من أشكال السِّلْم الأهليّ، إذا كان هناك تكافل اجتماعيّ بيننا. أكثر ما كان يضايقني أنّه كان في منطقة السّاحل كُثُرٌ ممّنْ قاموا بأعمال إنسانيّة جبّارة للوقوف مع السّوريّيْن النّازحين في كارثتهم، لكنّ اعتبار المناطق التي لم يخرج منها نظام الأسد، هي منطقة عَدُوّة بالنّسبة إلى جماعة الثّورة، والتّحريض على قَتْلهم، وطائفيّة خطاب الثّورة لاحقًا، أثّرتْ في معنويّاتنا جميعًا، وأفقدتْنا متعاطفين كُثُرًا مع النّازحين، ومع قضيّة الثّورة التي آمنتُ بها، والتي ما زلتُ أُردّد أنّها كانت ثورة من أجل مطالب الحُرّيّة والدّيموقراطية والعدالة. هناك امرأة كنتُ أزورها في "الرّمل الشّماليّ"، اعتُقل أولادها، وماتوا تحت التّعذيب، لا تزال حتّى الآن تقول إنّها ثورة، وتقول لي: نريد سورية حُرّة! قلائل الآن الذين لا يزالون يحتفظون بالخطّ الوطنيّ للثّورة، لكنّهم موجودون.

كنتُ أطرح أسئلة كثيرة على نفسي، عن ضرورة أن أجهرَ بموقفي السّياسيّ، لكنّني فضّلتُ السّكوت والعمل الميدانيّ. أنا متطوّعة في عملي، وأؤمن بضرورة حفْظ كرامة النّازحين، لأنّهم أبناء بلدي. الآن، وبعد مرور ستّ سنوات، نرى أننا اعتدْنا الموت والقَتْل. هذا فظيع! كيف وصلنا إلى هذه الحال المتوحّشة في دواخلنا؟ أفكّر الآن وسط هذه الجنون في أولاد النّازحين، وكيفيّة تعليمهم. التّعليم عمومًا تراجع في سورية، فكيف بتعليم أولاد النّازحين الفقراء؟ لذلك ركّزتُ في عملي معهم على التّعليم ومناهج التّدريس بشكل مكثّف، لا أُدرّسهم مادّتَي الدّيانة والقوميّة، وأحاول جَعْل الصّفوف مختلطة بين الفتيات والصّبيان.

عندما سمعتُ بمجزرة "اشتبرق"(*)، لم أقفْ على الحياد، بل قمتُ بزيارات ميدانيّة إلى العائلات التي نزحتْ، وأجريتُ معها حوارات، وطالبتُ المسؤولين بالوقوف إلى جانبها. لم يكن يعنيني دِين أو طائفة، وثّقتُ مجزرة "اشتبرق"، رأيتُ النّاجين مباشرة عندما وصلوا إلى اللّاذقية. استقبلهم مسؤولون في الدّولة، التُقِطَتْ صور لهم معهم، وتركوهم لمصيرهم البائس. كان هناك مئتان وأربعة عشر شخصًا مفقودًا من العائلات، ولا يُعرَف عنهم شيء. دخلتْ "جبهة النّصرة" القرية، وذبحت النّساء والأطفال والرّجال، واعتقلت كُثُرًا. التقيتُ لاحقًا مع مُفرَج عنهم، وأجريتُ حوارات مسجَّلة ومطوَّلة معهم. سألتُ امرأة كانت تبكي وتشرح كيف ذُبِح أهلها: لماذا لم يخرجوا قبل المجزرة؟ قالتْ إنّهم حاولوا، ومنعهم عناصر حاجز للجيش، قال الضّابط إنّ هذه أوامر عليا، ولا يستطيع مخالفتها. هذا السّيناريو تكرّر في القرى العَلَويّة التي حصلت فيها مجازر. المشكلة أنّ إعلام الثّورة لم يتبنَّ هذه الرّوايات، كان السّيناريو واحدًا يتكرّر في قرى عَلَويّة عدّة. في الصّباح، وبينما الأهالي نيام، يبدأ القصف وهجوم "الكتائب المسلّحة" المعارضة المتطرّفة. في قرية "اشتبرق"، كانت "جبهة النّصرة" التي ظهرتْ على تخوم القرية، فهربتْ مئة وأربعون عائلة، من مئة وخمسين. قُتلتْ عشر عائلات، ذَبحًا وبالرّصاص، كان النّاس تواصلوا مع ضابط الحاجز في القرية، وكانوا يحتفظون برَقْمه، لأنّهم كانوا خائفين، بعد أن فرّوا من بيوتهم عندما انهالت القذائف عليهم. قال الضّابط لهم إنّ الأوامر تقضي بعدم خروجهم، أحد الرّجال الذين نجوا، أخبرني وكان يبكي بعد فَقْد عائلته، بأنّهم يعرفون تضاريس المنطقة، وأنّهم هربوا في الوديان، ومشوا حفاة هائمين،

---

*) مجزرة اشتبرق ارتكبها مقاتلو جبهة النّصرة في قرية اشتبرق بريف جسر الشّغور التّابع لإدلب، وهي قرية عَلَويّة، قُتل فيها حَوالَي ٢٠٠ شخص، ذُبحوا بالسّكاكين، بينهم نساء وأطفال، وأُسر عدد كبير من أهالي القرية، بينهم نساء وأطفال أيضًا.

وناموا في العراء. أهالي "اشتبرق" هم من الفقراء والبسطاء عمومًا، وهم إمّا يزرعون ليُطعموا أولادهم، أو من مجنّدي الجيش. عندما التقيتُهم فور وصولهم إلى اللّاذقية، كانت أشكالهم مزرية، شبه موتى، كانوا حَواليَ خمسة آلاف، هاربين يركضون في العراء، سألتُ الرّجل النّاجي الذي قال لي إنّه سيعود، ويقاتل، وينتقم لأهله الذين ذبحتْهم "جبهة النّصرة": إلى متى سيقتل بعضنا بعضًا؟ أنتم ستُترَكون للموت فقط، وعلينا جميعًا أن نفكّر في ما سنفعله. كان الرّجل يبكي بلا توقّف، ولم أستطع تخفيف ألمه، لقد تركوهم بعد أيّام قليلة، والدّولة لم تدعمهم، وهو ما حصل لاحقًا عندما خرج نازحو "كفريّا" و"الفُوعة"(*)، وتدفّقوا بالآلاف إلى "اللاّذقية".

كنتُ أغيث أهل "اشتبرق" و"الفُوعة" و"كفريّا" تمامًا كما كنتُ أفعل مع نازحي "إدلب" و"حلب". وهذا لم يُعجبْ رجال أجهزة الأمن، فكانوا يستدعونني بشكل دائم إلى التّحقيق. عندما وصل أهالي "كفريّا" و"الفُوعة"، كانوا في حال مزرية، وقد دعمهم جامع "الرّسول" الأعظم التّابع لإيران، بينما عندما وصل أهالي "اشتبرق" الفقراء حفاة إلى "اللاّذقية" كانوا في حال سيّئة جدًّا.

من الشّهادات المسجّلة عندي لناجيات من مجزرة "اشتبرق"، قصّة أسيرة عند "جبهة النّصرة"، تقول:

"ذبحوا زوجي، ثمّ بثّوا عمليّة ذَبحه في شريط فيديو. أنا لم أرَ الفيديو، ولا أريد، أهل زوجي شاهدوه، وأكّدوا لي. هجم علينا مقاتلو "جبهة النّصرة"

---

*) كفريّا"و"الفُوعة" هما قريتان في ريف إدلب ذي الغالبيّة السُّنّيّة، سكّانهما من الشّيعة. كانتا محاصرَتَيْن من قِبَل الكتائب المعارضة. في يوم الجمعة ١٤ نيسان، خرج الأهالي في اتّجاه مدينة اللاّذقية، بعد اتّفاق أبرمه النّظام السّوريّ مع الكتائب المعارضة على خروج أهالي الزّبداني ومضايا إلى ريف إدلب مقابل السّماح بخروج أهالي القريتَيْن.

في السّاعة الثّامنة والنّصف صباحًا، أطلقوا الرّصاص علينا، وكان خلفهم آخرون، يقصفون القرية بالقذائف، هربتُ مع الأهالي في اتّجاه سكّة القطار والأراضي الخلاء، وبقي زوجي للدّفاع عن البيت. خلال هروبنا، حاول قنّاصة "جبهة النّصرة" قتلنا، لكنّنا نجونا، وكان الجيش انسحب قبلنا. مشينا من الثّامنة والنّصف صباحًا حتّى اللّيل، نمنا في الخلاء، كان ذلك في ٢٤ نيسان ٢٠١٥. غفونا من التّعب، واستيقظنا في السّاعة الرّابعة صباحًا على أصوات المسلّحين يصرخون بنا، كنّا حَواليَ مئة وخمسين شخصًا. وأنا مع بناتي الأربع، إحداهنّ مُعوّقة عقليًّا، أطلقوا النّار علينا، فركضنا نحاول الهروب، طلقات الرّصاص لاحقتْنا، فوقفْنا في مكاننا، ثمّ أمرونا بأن نصعد الهضبة وهم يصوّبون علينا من الأعلى، حاولتُ الصّعود، فانزلقتُ أنا وبناتي إلى الأسفل، فأطلقوا النّار، وصرخوا بي، إذا لم أصل إلى القمّة، سوف يقتلون بناتي، ثمّ يقتلونني، زحفْنا على الأطراف الأربعة، وصعدنا، كنتُ أرتجف. كانوا في أعلى الهضبة، ذقونهم وشعورهم طويلة، ويتكلّمون العربيّة الفصحى، اعتقدتُ أنّهم سيذبحونني، لكنّهم فصلوا الرّجال عن النّساء، وأخذوني مع بقيّة النّساء والرّجال المسنّين إلى سجن "حارم" في ريف "إدلب".

كان سجّان "جبهة النّصرة" عراقيًّا، وكنّا في الغرفة الواحدة خمسين شخصًا، ينام بعضنا فوق بعض، أطعمُونا البرغل والحساء يوميًّا، كان السّجّان عنيفًا جدًّا، يجلدنا، ويُطعِمنا الخبز العفن، لكنّهم كانوا يُؤمّنون لنا حليب الأطفال. كان العناصر يطرقون الأبواب في اللّيل، ويصرخون: جهّزوا أنفسكم للذّبْح، يا خنازير، يا كَفَرَة! فنقف جميعًا، ونرتجف، وننتظر، ونبقى هكذا حتّى الصّباح! في إحدى المرّات، عندما صرخ بنا العراقيّ: يا كَفَرَة، جهّزوا أنفسكم للذّبْح، قلتُ له: هل تظنّ أنّنا

كَفَرَة، أنا أصوم وأصلّي مثلكَ، وأنا أعرف الله، وأنتُم هنا لتقولوا لنا كَفَرَة، ففُوجِئ، ولم يُجِبْ!

ولدتْ امرأتان في سجن "حارم"، إحداهما ولدت والمسدّس فوق رأسها، والثّانية مات رضيعها من البرد. إحدى الفتيات، وفي أثناء دخول العراقيّ، وهو يصرخ لنتجهّز للذّبح، جاءتْ إليه، وقالتْ: يا شيخ، أنا أريد أن تذبحني، فذُهل، ونظر إليها بهدوء، وقال: لا تزالين صغيرة. كان تعذيبهم النّفسيّ غريبًا. وضعوا لنا في زاوية الغرفة التي كنّا نتكدّس فيها، "سبيكرات"، وكانوا يبثّون فيها بشكل متواصل أناشيد دِينيّة وأُغنيّة يوميّة عن ذبح العَلَويّيْن! مرضتْ اثنتان من بناتي جدًّا، واحدة أُصيبت باليرقان، والثّانية بالتهاب الكبد. كان الطّعام سيّئًا والبرد قارسًا، ونحن ننام على الأرض.

لقد خرجتُ من سجن "حارم" لسبَبَيْن، أوّلهما لأنّني لم أتوقّف ليلًا ونهارًا عن طَرْق الباب والبكاء والصّراخ، إذ كنتُ أرى بناتي أمامي بلونهنّ الأصفر، ويضعفنَ يومًا بعد يوم. والثّاني أنّهم خافوا أن يُصابوا بالعدوى من مرض ابنتيّ. كان أحد المقاتلين، ولم يكن عربيًّا، ولم أعرف جنسيّته، يسألني: أنتِ تصلّين وتَقرأين القرآن؟ دُهش عندما ناقشتُهُ في الدِّين، وعرف أنّني أحفظ القرآن، وأصلّي. هم يعتقدون أنّنا لا نعرف الإيمان!

أخذ السّجّانون السّوريّون نقودَنا وحلينا الذّهبيّة البسيطة، وكلّ ما نملك، لم يكن معي سوى ٨ آلاف ليرة سوريّة، أخذوها أيضًا، وجلدونا بعنف. في إحدى المرّات، مزّقتْ طفلتي المُعوّقة ورقةً من القرآن، فضربونا، وضربوها، جلدوني بالسّوط على رقبتي وظهري وقَدَمَيّ. كانوا لا ينظرون في عيوننا، وكانوا يردّدون: أموالكم وأرزاقكم حلال لنا، أمّا أعراضكم، فتركناها

لكم. اطمأننتُ عندما سمعتُهم وراقبتُهم، لم تتعرّض أيّ امرأة منّا لأيّ شكل من أشكال التّحرّش الجنسيّ في السّجن. كان عنصر سوريّ من "جبهة النّصرة"، لم أعرف من أين هو، رحيمًا جدًّا معي، أشفق على ابنَتَيّ، وكان يأتينا بالطّعام، بعد شهر، اختفى، ولم نعد نراه. كانوا ممتعضين من تعاطفه مع ابنتي المريضة. وعندما أُصيبت ابنتي الثّانية باليرقان، خافوا، فأخذوا الاثنتَيْن، وأرسلوهما إلى النّظام. كدتُ أفقد عقلي، لم أنمْ ليومَيْن، ثمّ أرسلوني إليهما، في شباط ٢٠١٦، بعد تسعة أشهر من الاعتقال، كنتُ أظنّ أنّني ذاهبة إلى الذَّبْح، لكنّهم نقلوني من مكان إلى آخر، ومن سيّارة إلى سيّارة. قال لي الشّيخ الذي أوصلَني: نحن أخرجناكِ رأفة ببناتكِ، ومن دون فدية لوجه الله، نحن أحسن منكم! قلتُ له مَنْ نحن؟ ولماذا تُكفرّوننا؟ كان يقصد النّظام. خاطبني معظمهم بصيغة الأخوّة: أنا أخوكِ بعهد الله، ظللْنا هكذا حتّى أوصلوني إلى فرع المخابرات الجوّيّة في حماه.

أكثر شيء أرعبني هو إعدام الشّباب في الباحة، كانوا يُخرِجوننا بعد الإعدام بخمس دقائق، وتكون الدّماء لا تزال موجودة. كنتُ أسمع أصوات الشّباب الذين يرجونهم بألّا يقتلوهم. قال لي الرّجل الذي أوصلَني: نحن لسنا مع أيّ طرف، نحن عشيرة، وأيّ شخص يقتل فردًا منّا نقتله! لم أفهم وجود العدد الكبير من المقاتلين التّركستان! ولم أفهم أشياء كثيرة، ولا تفارقني الكوابيس أنا وبناتي، وأعيش معهنّ الآن، وأنتظر عودتي إلى قريتي".

هذا جزء من شهادة المرأة التي روتْ لي تفاصيل كثيرة، وقد وجدتْ نفسها وحيدة من دون معيل. وهي تعيش حتّى هذه اللّحظة في غرفة واحدة، في ظروف مأساوية في فَقْر مُدقع في مدينة "اللاّذقية".

شهادة امرأة أخرى في السّتّين من عمرها، وهي النّاحية الوحيدة من

عائلة"سبعة وثلاثون شخصًا منها بين ولد وحفيد مخطوفون لدى جبّهة النّصرة"، أولادها الثّلاثة أُسروا، ولم يُعرَف عنهم شيء، أخبروها أنّهم ذُبحوا. وهي لا تصدِّق الأمر، فقرّرتْ أن تزور أولادها وزوجها وأحفادها المسجونين لدى "جبهة النّصرة" في سجن "حارم"! وهذا ما روتْهُ لي:

"كلّ مَنْ حولي اعتبروني مجنونة، لكنّني كنتُ مصمِّمة، قالوا لي سيذبحونكِ، وربّما تكون عائلتكِ قد ذُبحتْ. قلتُ لهم إن ذبحوني، فلستُ مهتمّة، وإن عشتُ، ففي الأقلّ أطمئنّ على عائلتي. كان هذا في شهر رمضان وأنا صائمة. حصل اتّفاق مع رجل سألتقيه في سوق الهال بمدينة حماه. ذهبتُ منقّبة، كي أعبر حواجز "داعش". كان العناصر لطفاء معي، واستغربوا أنّني أصوم وأصلّي. لا أفهم كيف تكوّن لديهم الانطباع بأنّنا كفّار! سألوني ما إذا كنتُ أؤمن بالله، فأجبتُهم من دون خوف: نعم، نحن نؤمن بالله، وأنا وأنتم أولاد بلد واحد، ويجب ألّا يقتل بعضُنا بعضًا، نحن لسنا أولاد بلد واحد فقط، نحن جميعًا أولاد آدم وحوّاء! فسكتوا. لم نذهب مباشرة إلى "حارم"، بل نزلنا في بيت شيخ. استضافوني بكرم شديد لأيّام عدّة، حتّى حلّ يوم الذّهاب إلى السّجن. كان الوصول إليه يلزمه توقيع أوراق رسميّة، في مكاتبهم التي تشبه مكاتب الدّولة. عندما وصلتُ إلى السّجن، صاح السّجّان، يا أهل "اشتبرق" لديكم زيارة من أهلكم! رأيتُ الأصابع تمتدّ من خلف القضبان، فُتح الباب، فاندفع السّجناء نحوي. صرختُ: أريد عائلتي وأحفادي! ناديتُهم بأسمائهم واحدًا واحدًا. أخذتُ أضمّهم، وأشتمّ رائحتهم، وأحضنهم، وأقبّلهم. أحفادي كلّهم أسرى لدى "جبهة النّصرة" وزوجات أولادي أيضًا حتّى هذه اللّحظة. عندما سألتُهم عن أولادي الشّباب، غضبوا، وقالوا لا تسألي! لم أعرف أيّ خبر عنهم، يقولون إنّهم ذبحوهم! وأنا لا أُصدِّق! كنتُ في السّجن أرتمي بين أحضان

أحفادي عندما دخل زوجي، بلحيته الطّويلة وثيابه الممزّقة ووجهه الذي يشبه الشّبح، غبتُ عن الوعي. كان كبيرًا في السّنّ، وعلى الرّغم من ذلك، لم يطلقوا سراحه. غضب منّي بشدّة، لأنّني أتيتُ إلى "حارم"، بسبب خوفه عليّ. طلبتُ من سجّاني "جبهة النّصرة" أن أبقى معهم، لكنّهم رفضوا. قالوا: سنُعيدكِ. قلتُ لهم أبقوني أسيرة معهم، فلم يقبلوا. عندما هممتُ بالخروج من السّجن، رمى أحفادي أنفسهم في حضني، وبكوا. بكيتُ كثيرًا وأنا أرجو السّجّانين أن أبقى في السّجن مع عائلتي، فرفضوا بإصرار. بقيتُ معهم لساعَتَيْن ونصف تقريبًا. رأيتُ حَواليَ مئة وعشرين من أهل "اشتبرق"، كانوا موزّعين على غرف السّجن، ولم أعرف خبرًا عن أولادي الشّباب. عندما عدتُ إلى "اللاّذقية"، لجأتُ إلى جهات الدّولة كلّها، وتواصلتُ مع المسؤولين من أجل قضيّة عائلتي، لكنّني لم أتلقَّ أيّ ردّ. سافرتُ إلى دمشق، لأرى المسؤولين، لم أتركْ مسؤولًا إلّا وذهبتُ إليه من أجل قضيّة المخطوفين. انتظرتُهم أمام أبواب بيوتهم، وطُردتُ من أماكن عدّة".

أنهت العجوز شهادتها بتنهيدة طويلة، فقد عادت من سجن "حارم" حيّة. شجاعتها وحزنها وصلابتها، جلعتْني أقرّر ألّا أتخلّى عن مساعدة العوائل.

كنتُ اشتغلتُ في بداية الحراك على ملفّ المعتقلين، لكنّ كثرة عدد النّازحين والوضع الإنساني الملحّ، جعلاني أقوم بتحويل ملفّ المعتقلين إلى ملفّ إغاثة عائلات المعتقلين. كان الضّغط الأمنيّ كبيرًا، وعندما كنتُ أُواجه بقصّة أهالي المعتقلين أمنيًّا، كان جوابي الوحيد أنّ هؤلاء مَدَنيّون، ولا ذنب لهم. في ذلك الوقت، كان الضّغط يزداد ويكبر في النّزوح إلى "الرّمل الشّماليّ"، يأتي النّازحون من أرياف "حلب" و"إدلب"

و"حمص"، وهم حقيقة لم يثقوا فيّ عندما دخلتُ المنطقة. كان الأذى يأتي من الأطراف جميعها. كانوا يظنّون أنّ المخابرات أرسلتْني إليهم، لأنّني عَلَويّة. بعد مرور الوقت، بدؤوا يُولونني ثقتهم، على الرّغم من بقائها ناقصة. ما كنتُ أفعله هو تأكيد وجود علاقة إنسانيّة بين السّوريّيْن، وهو ما دفعني إلى أن أجتمع مع مجموعة من الصّبايا والشّباب،على الرّغم من الضّغط الأمنيّ، حيث قرّرنا العمل بشكل ممنهج على قضيّة النّازحين من أيّ جهة كانوا. كنّا من أديان وطبقات اجتماعية عدّة. أصدقاء لنا لم يحضروا الاجتماعات خوفًا من الأمن. كان الرّعب بالنّسبة إليهم أن يُقال إنّهم خَوَنَة للطّائفة، وأن يتعرّضوا لما واجهه العَلَويّون المعارضون من تشويه سمعة اجتماعيّة، ونبذ اشتغلت عليه أجهزة الأمن. كانوا يرسلون التّبرّعات، ويساعدون بطرائق مختلفة، لكنّهم لم يتركونا نعمل وحدنا، وهم أشخاص كُثُرٌ. صاروا أخيرًا أكثر شجاعة في التّعبير عن تضامنهم، بخاصّة أنّ عملنا لم يتجاوز حدود العمل الإنسانيّ.

الانقسام الطّائفيّ الحادّ في "اللاّذقية"، هو ما أخشاه. حادثة صغيرة في شوارع "اللاّذقية"، قد تُشعل فتيل الفتنة، وتجعل النّاس يختفون منها. قبل سبع سنوات، كان الانقسام أقلّ حدّة ووضوحًا، أمّا الآن، فالطّائفيّة كبرتْ، وصارت قويّة، وهي ردّ فعل على ما فعله النّظام من تعنيف وقَتْل وتهجير. وردّ على طائفيّة الخطاب الإعلاميّ في الثّورة. يجب أن نُسمِّي المشكلة باسمها. يجب أن نعترفَ بما نحن فيه، وأنا وغيري هذه طريقتنا للوقوف ضدّ الانقسام الطّائفيّ والمجتمعيّ الحادّ. أن نبني ونمدّ جسورًا إنسانيّة.

رأيتُ هول فاجعة أنّ تلك الأرياف من قرى النّازحين فيها هذا القَدْر

من الجهل والأمّيّة، شعرتُ بأنّنا لم نكن نعرف سورية فعلًا. أيّ مستقبل ينتظرنا هنا؟ اليونيسف تطالب الحكومة بالاشتغال على الأطفال، ومدارس "اللّاذقية" الحكوميّة اكتظّتْ بالطّلّاب، ولدينا مشكلة مزمنة في فساد عمليّة التّعليم، و"منطقة الرّمل" التي عملنا فيها وهي منطقة مهمّشة، فيها نسبة فقر عالية. الدّولة غير مُهتمّة، وهي عمومًا لا تتابع قضيّة النّازحين، وهناك تواطؤ بين مؤسّسات الدّولة والمنظّمات التي تعمل في البلديّات. أكوام الزّبالة تتكوّم في أحياء النّازحين في "حَيّ الرّمل الشّماليّ" و"قنينص"، وهي أحياء مهملة وفقيرة، يجتاحها القَمْل والأمراض.

عملْنا من نهاية ٢٠١١ وحتّى بداية ٢٠١٧، في الإغاثة الصّحّيّة والغذائيّة، إضافة إلى التّعليم. توقّف الدَّعْم عنّا، لأنّ المنظّمات الدّوليّة تقول إنّنا في منطقة نظام الأسد والحكومة موجودة، والأمم المتّحدة، تغطّي هذا الأمر عبر منظّماتها العاملة في مناطق النّظام، وهذا لم يكن صحيحًا. لم أسكتْ عمّا تقوم به منظّمات الأمم المتّحدة، حيث لا اهتمام حقيقيّ بالنّازحين، وقدّمتُ تقارير، تشرح حقيقة ما يحصل وتجاهل وضع النّازحين، واستُدعيتُ أمنيًّا مرّات عدّة من أجل ذلك.

شعرتُ بأنّني لم أعد امرأة. لم تعدْ لي حياة شخصيّة أعيشها. لقد فقدتُ نفسي! أخبرتْني امرأة نازحة من "حلب" بأنّ مسلّحين ملثّمين، ويرتدون ثيابًا مَدَنيّة دخلوا بيتها، واغتصبوا بناتها أمامها. كيف سأعيش مع هذه الجرائم كلّها حولي! لدينا مليون نازح من مدينة "حلب"، معظمهم من الفقراء. هناك تجّار وأغنياء منهم، وهم مُدلّلون عند النّظام وأجهزة الأمن، لأنّهم يدفعون الرّشى. أمّا الفقراء، فمتروكون وحدهم. الفقراء من المُدُن والأطراف والجهات كلّها، هم فقط مَنْ يدفعون ثمن هذه الحرب!

كنتُ مهتمّة بالتّعليم، إضافة إلى الإغاثة الغذائيّة والطّبّيّة، لكنّني فكّرتُ في أنّه يجب التّركيز على دَمْج النّازحين، من مناطق وطوائف عدّة، بخاصّة المناطق التي نزح منها العَلَويّون في قرى الرّيف الشّماليّ: "بلوطة، استبرية، بلاطة، أبو مكة"(*) التي دخلتْها "جبهة النّصرة"، وذبحت العائلات، وخطفت النّاس. بقيتْ فيها لثمانٍ وأربعين ساعة فقط، ثمّ خرجتْ، وانسحب الجيش. أمّا الأهالي الذين نزحوا، فالعودة لم تعد تعنيهم، بعد أن رأوا عائلاتهم تُخطَف وتُذبَح. في هذه الأجواء، حاولتُ الجمع بين نازحي ريف "حلب و"إدلب"ونازحي هذه القرى العَلَويّة. كان الأمر في بدايته صعبًا، لأنّ كلّ طَرَف كان يعتقد أن الطّرَف الثّاني مسؤول عن قَتْل أهله وعائلاته. لاحقًا، وبعد حوارات صعبة، استلزمتْ وقتًا طويلاً، قبلوا بالحديث بعضهم مع بعض، والسّماح لأولادهم بأن يتعلّموا جنبًا إلى جنب، ويجلسوا على مقاعد الدّراسة نفسها. أظنّ أنّ الجسور الإنسانيّة تُبنَى من هذه التّفاصيل، هناك شباب كُثُرٌ واعون لهذه المسألة، وهم يعملون ليلاً ونهارًا على هذا الأمر بصمت وتفانٍ ووطنيّة عالية.

كانت لدينا مشكلة دائمة مع الجهات الأمنيّة، فهي في كلّ يوم تُصدر قرارًا بموافقات أمنيّة، تُعطّل تصاريف الحياة، وتكون فرصة للفساد والمنفعة الشّخصيّة.

قبل خروجي من سورية، كنتُ في حَيّ "الرّمل الشّماليّ"، أزور إحدى العائلات النّازحة، مع أحد شيوخ الجوامع. كان الأطفال الصغار بين عشر واثنَتَي عشرة سنة في الشّارع، يردّدون أُغنيّة بصوت عالٍ، وهم يضحكون: "بدنا نبيد العَلَويّة". اعتذر الشّيخ مُحرَجًا. فأجبتُهُ بجملة واحدة: لا تعتذر،

---

*) مجموعة قرى في ريف اللاّذقية.

يا شيخ. اعملْ عملَكَ معهم، هذا دوركَ بانتزاع السّموم من صدورهم، أنا أؤدّي عملي، وعملكَ أنتَ مع هؤلاء الصّغار!

كنتُ على حافّة الانهيار والجنون، أجد نفسي في دائرة مُفرَغة، ومقاومتي انهارتْ، كنتُ أعيش خائفة من الاعتقال. لا أعرف ما إذا كنتُ سأعود الآن. لا أعرف حتّى ما إذا كنتُ لا أزال امرأة أم شيئًا آخر. لا أشعر بشيء. لا الغضب ولا الحُبّ ولا الكراهية ولا الفرح، ولا رغبة لديّ، في أيّ شيء! هذه الكراهية قتلتْني!

الرّاوية الرّابعة عشرة

أنا "ريم". عندما بدأت الثّورة، كان عمري خمسين سنة، وأعمل موظّفة في وزارة الإعلام.

بدأت التّظاهرات ضدّ الأسد في "برزة"(*) في ٥ نيسان ٢٠١١، كنتُ في مطبخي عندما انطلقتْ تظاهرة للمرّة الأولى، كانت خرجتْ من جامع السّلام في "برزة"، وفرّقَها الأمن، نادى المتظاهرون بالحُرّيّة، وطالبوا بإلغاء قانون الطّوارئ، وهتفوا: "الشّعب السوري ما بينذل". في التّظاهرة التّالية، قتل الأمنُ ثلاثةَ شباب، ففكّرتُ في دَعْم المتظاهرين، وتحوّل بيتي قاعة اجتماعات. تعرّفتُ إلى شباب "برزة"، ومنهم "تمام الصّعب". كان ثوريًّا صادقًا، ومن المناضلين النّادرين، كان يرفع دائمًا لافتة مكتوبًا عليها "نريد سورية ديموقراطيّة تعدّديّة".

عشتُ في "برزة" منذ عام ١٩٨٧. كانت نساؤها بمعظمهنّ يعملنَ في المخازن، لأنّ النّظام اعتقل الرّجال بغالبيّتهم في الثّمانينيات من القرن الماضي. كانت هناك مشكلة بين سرايا الدّفاع(**) ورجال "برزة" من أجل

---

*) كانت قرية تعود في تاريخ وجودها إلى العهد الرّومانيّ قرب دمشق. ومنذ مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، أُلحقت بمدينة دمشق. تُعدّ الآن من أحياء دمشق الحديثة. تشتهر بآثارها مثل معصرة الزّيتون الأقدم في التّاريخ، وفيها مقام النّبي إبراهيم الخليل.

**) سرايا الدّفاع: ميليشيات عسكريّة، تولّى قيادتها رفعت الأسد الأخ الشّقيق للرّئيس حافظ. تمّ حلّها بعد خلاف بين الرّئيس وشقيقه الذي خرج نهائيًّا من سورية إثره، وتمّ دَمْج هذه الميليشيات بالجيش السّوريّ النّظاميّ عام ١٩٨٤ تحت اسمَي الفرقة الرّابعة والحَرَس الجمهوريّ. كانت هذه الميليشيات معروفة ببَطْشها وسطوتها، وتُشكّل رعبًا للنّاس.

قرار رفعت الأسد نَزْعَ الحجاب، وقَتَلَ أحدُ الرّجال ضابطًا نَزَعَ حجاب إحدى النّساء. كان الثّأر قديمًا بين نظام الأسد ورجال "برزة". ثمّ إنّ ثلاثة أرباع أراضيها مُصادرة من قِبَل الدّولة، ولم تعطِ النّاس تعويضًا ثمنًا لها. أيضًا عندما زار وفد من الفاتيكان "صيدنايا" عام ٢٠٠١، شقّت الدّولة طريقًا للموكب، فهدمتْ بيوت النّاس، ولم تُعوِّض عليهم، وشرَّدتْهم. كان المَطلبُ الأوّل في الثّورة إعطاءَهم حقوقهم في أراضيهم المسروقة. "برزة" فيها الفقراء والأغنياء والطبقة الوسطى. في بداية، الثّورة ساعد أغنياؤها فقراءَها، فهم يُفكّرون كقبيلة، كانوا من عائلات عدّة، يعرف بعضهم بعضًا، ويفتخرون بانتمائهم إلى "برزة".

في إحدى تظاهرات الثّورة، تحرّش شابّ بفتاة، فأصدر الرّجال قرارًا بعَدَم خروج النّساء في التّظاهرات. ذهبتُ لرؤية الرّجال الذين أصدروا هذا القرار، وقلتُ لهم إنّنا نصف المجتمع، فقالوا إنّ مشاركتنا حرام، فقلتُ لهم انظروا إلى مسيرات النّظام، نصفها من النّساء، فقالوا إنّ أعراض النّساء يجب ألّا تُمسّ. بعد جدال طويل، سمحوا لنا بالتّظاهر، ولكنْ، من غير الاختلاط بالرّجال. كان هذا في أواخر ٢٠١١.

في الشّهر الرّابع من عام ٢٠١٢، كنتُ أعبر الشّارع، فإذا بسيّارة زجاجها أسود تمرّ بسرعة. مَدّ أحد الموجودين فيها يده، وأمسك بيدي، وسَحَلَني على الأرض والسّيّارة تمشي، ثمّ تركَني فجأة، وعادت السّيّارة لتدهسني، رأيتُ دواليبها تقترب من رأسي، فتراجعتُ والنّاس يصرخون، ثمّ مَدّ أحدهم يده، وضربني من جديد. قوّة الحياة دفعتْني إلى الوقوف، فرماني ثانية، ظنّ الموجودون أنّني متُّ، لأنّ وجهي ورأسي تخضّبا بالدّماء. سرقوا حقيبتي، وأطلقوا النّار بشكل عنيف في الهواء. سُئلتُ في المشفى عمّا

حصل، فأخبرتُ المحقّقين بأن السّيّارة كانت بلا أرقام، وهذه عادة تكون لـ "الشّبّيحة" والمخابرات. طلبوا منّي أن يُذاع الخبر في التّلفزيون، وأقول إنّ أهالي "برزة" اعتدوا عليّ، لأنّني غير مُحجّبة، فرفضتُ. بعد أسبوع، اتّصل بي رجل أمن، وقال يجب أن يرى زوجي لطَلَب هويّة بدل ضائع عوضًا عن هويّتي المسروقة. وطلب لقاء زوجي في حديقة، وليس في فرع الأمن، وهذا غير اعتياديّ. المفاجأة كانت أنّه أعطاه هويّتي. لقد كانت حقيبتي معهم! كنتُ تعرّضتُ لكسور عدّة وتجرُّح جسمي كلّه، ولم أعد أذهب إلى عملي. وعرفتُ بعد ذلك أنّهم أرادوا تشويه سُمعة المتظاهرين بهذا التّصرّف.

قصف النّظام "برزة" بالرّاجمات والدّبّابات، كان القصف في أوّل يوم من رمضان عام ٢٠١٢، ونزلنا إلى الملاجئ، وقُتل تمام الصّعب من قنّاص. كان قائد الثّورة السِّلْميّة في "برزة"، ولمّا قُتل، أُعلن في التّلفزيون أنّه إرهابيّ. دخل رجال الأمن "برزة"، وأحرقوا بيوت النّاشطين السِّلْميّيْن، وقصفوا البساتين، فحمل الشّباب السّلاح للدّفاع عن النّفس. انتشرتْ حوادث اغتصاب وخَطْف، فتشكّلتْ مجموعات من الشّباب المسلّحين لتحمي التّظاهرات، كانوا يختبئون في البساتين بعد التّظاهرات.

بعد ظهور "الجيش الحُرّ" وظهور الخطاب الدِّينيّ في التّظاهرات، قصفُونا من حَيّ "عشّ الورور" الموالي للنّظام، ثمّ تشكّل مجلس محلّيّ بدَعْم من الإسلاميّيْن، وتدفّق المال بشكل كبير، ودبَّ الخلاف بين النّاشطين، لأنّ منهم مَنْ قال إنّ الإسلام هو الحلّ. كان المعتدلون والعلمانيّون إمّا يُغتالون أو يُعتقلون، واختفت الثّقة بين النّاس لاختلافهم على تقسيم الأموال، وخفّت التّظاهرات، بسبب القصف المستمرّ وقَطْع

النّظام طُرُقات "برزة" بالحواجز، واختفت التّظاهرات نهائيًّا. عاش النّاس تحت القصف وبيوتهم مُدمّرة، لم يكونوا متديّنين، لكنّهم سكتوا. وأنا صرتُ عرضة للتّهديد، لأنّني ضدّ "جبهة النّصرة". تشكّلتْ خلايا لـ "جبهة النّصرة" تُحرِّض النّاس على أنّ الدِّين هو الأساس والخلاص، كانت تُوزِّع الأموال بشكل خفيّ، وتنشر ما تريد. أمّا نحن النّساء، فكنّا ضدّ هذا، لكن صوتنا كان ضعيفًا.

أيّام الحصار، كان القصف ينهمر علينا كالمطر، والثّورة تحوّلتْ حربًا، وبات الأمر جحيمًا، ولم نستطع الخروج من الحصار، لأنّ القصف لم يكن يتوقّف، والحواجز منتشرة بكثرة. حتّى تلك اللّحظة، كنتُ متماسكة، ولكنْ، بعد الحصار المُحكَم والجوع والقصف، تحوّلتْ قوّتي وشجاعتي هُزالًا عندما رأيتُ هذا الموت كلّه. بقي تحت الحصار البسطاء والنّاس العاديّون، وأنا وزوجي بقينا معهم، جعلوني واحدة منهم، وقدّموا لي مُثلًا جديدة للإنسانيّة. كانت الدّبّابة ١٨٢ تقف أمام بيتنا، سبطانتها مُوجَّهة نحونا، ولكنّني لم أشعر بالخوف وأنا بينهم. شعرتُ بحُبّ العالم يغمرني. في أحد الأيّام، خرجتْ جارتنا من بيتها لتسقي الزّهور، فقصفتْها الدّبّابة، وفصلت رأسها عن جسدها، وأصبح كلّ منهما في مكان. كنّا محاصرين إلى هذه الدّرجة، حيث لا نستطيع مَدّ رؤوسنا من النّوافذ.

بعد شهر من الحصار، اختفى "الجيش الحُرّ"، وهو توقيت ظهور "جبهة النّصرة". كان لنا أصدقاء في "الجيش الحُرّ" اختفوا. حاولنا الخروج من الحصار، فلم نستطع، كان حول بيتنا ثلاثة قنّاصين. النّظام وضع قنّاصة في كلّ مكان، حتّى إنّنا لم نستطع رَمْي أكياس القمامة. كنتُ أخبز في بيتي بالمقلاة. قصفوا خزّانات المياه، فامتلأ قبو البناء بالمياه، وخرّبت الموادّ الغذائيّة التي خزّنّاها كلّها، جعْنا، ولم يعد عندنا خبز، ولا حتّى طحين.

كان جيراني الذين عشتُ معهم تحت الحصار والقصف سبب استمراري في الحياة، كنتُ أظنّ نفسي مثقّفة منفتحة، وهم تقليديّيْن متديّنين، لكنْ، في الثّورة والحصار والحرب يظهر البشر على حقيقتهم. تعلّمتُ منهم، وتعلّموا منّي. تكاتفْنا، وقبلوا بي، وقبلتُ بهم، وكانت كلمتي مسموعة بينهم. تعلّمتُ منهم معنى المشاركة في الحياة. رأيتُ منهم الحُبّ المطلَق في بداية الثّورة، وحين كنّا نواجه الموت جميعًا، كان بعضنا يحبّ بعضًا، ويخاف عليه كعائلة. أبكي على صدر جارتي، وتبكي على صدري، بينما القذائف تسقط فوقنا، يعطي بعضنا بعضًا ما نملك، وكقلب واحد لا يترك أحدنا الآخر. كلّنا للواحد، وواحدنا للكلّ، على الرّغم من الجوع والعطش، واختفى مفهوم العيب في أثناء العيش اليوميّ مع الموت، وانتفتْ سطوة العادات والتّقاليد. كنّا بشرًا، نتعاون على الصّمود في وجه الموت، ونسينا كلّ أثر للكراهيّة! ما زلتُ أذكر كيف حضنني جارنا المتديّن الذي لم يكن يصافحني من قبل. ضمّني إلى صدره، وودّعني. كنّا تحت الحصار نشعر دائمًا بأنّ الموت سيأتي بعد ثوانٍ، وأنّ فنجان القهوة الذي نشربه سيكون آخر فنجان، وأننا نُحدِّق في عيون بعضنا بعضًا للمرّة الأخيرة. لكننا عشنا، واستمرّت الحياة! القِيَم والأخلاق كلّها التي رأيتُها معهم عَنَتْ لي الكثير.

كانت تقتلُني فكرة الخيانة والخروج، ولم أكن أريد ذلك. أردتُ أن أبقى في بيتي مع ناسي، وأصمد معهم. حصّنّا أنفسنا من أجل الحصار. فعلْنا المستحيل كي نبقى، ولا نتخلّى عن بيوتنا، ولا يخون بعضنا بعضًا. كانت البيوت خمسين فقط تحت القصف والحصار. في كلّ صباح، كنّا نكتشف اختفاء عائلة، كانوا يخرجون، على الرّغم من اتّفاقنا، يخجلون من المجاهرة بالخوف، ثمّ بدأت الأمور تتدهور. أنا لا ألوم النّاس، لأنّني فكّرتُ أيضًا في الخروج.

كانت معنا نساء مناضلات، يعملنَ تحت القصف والحصار لإسعاف الجرحى، ويذهبنَ إلى البساتين لإيصال الطّعام إلى الشّباب المحاصَرين هناك. كانتْ أشجعهنّ فتاة في العشرين، تنزل في مجرى النّهر، لتصل إليهم، تُخاطر بحياتها، لتأتي بالموادّ الغذائيّة للأطفال، وليأكل النّاس. عندما سقطتْ قذيفة قرب البناء المجاور لنا، وقتلتْ فيه عائلة، جمعت الفتاة نفسها أطراف أفرادها المقطّعة. لقد رأينا أشلاء الأجساد الممزّقة والمتناثرة في كلّ مكان. لم نفهم لِمَ يفعل النّظام هذا! فَمَنْ يقصفنا هم أبناء بلدنا، كانوا يقولون إنّ أبناء المنطقة هذه إرهابيّون، وأنا كنتُ بينهم، ولم يكونوا هكذا، حتّى ظهرتْ "جبهة النّصرة" كأنّها سقطت من السّماء. تغيّرتْ حياتنا نحن النّساء بعد دخول "الجبهة"، شاركنا بقوّة في التّظاهرات حتّى خريف ٢٠١٢، ثمّ مع ظهور المتشدّدين توقّفْنا.

عشْنا في الحصار مراحل، بداية فُقِدَ الطّعام والموادّ الضّروريّة في بداية خريف ٢٠١٢، ولأنّ "برزة" كانت تُغلَق بعد كلّ اشتباك واقتتال، فقد كان الحصار مستمرًّا ومتقطّعًا. الحصار الأصعب والفعليّ كان في شهرَي شباط وآذار ٢٠١٣، والأقسى كان في النّصف الثّاني من آذار، لأنّ "جبهة النّصرة" وضعتْ قنّاصة بين الأبنيّة، كما فعل النّظام. فلم نعد نخرج نهائيًّا من بيوتنا، كان القَنْص يأتي من الجهات كلّها. ولا كهرباء عندنا، لا ماء، ولا طعام، والإنترنت موجودة عند مَن استطاع الحصول على خطّ كهرباء، لكنّ كان الأمر صعبًا جدًّا، وأصحاب البيوت في الطّبقات المرتفعة، ينزلون ويبقون عندنا نحن أصحاب البيوت الأرضيّة، كنّا نضحك ونبكي في الوقت نفسه، نفرح لنجاة أحدهم، ونبكي لموت آخر، ثمّ نتقاسم ما تبقّى من طعام باللّقمة من دون تمييز.

في إحدى المرّات، أُطلقتْ باتّجاهنا قنبلة فراغيّة. وقد حفرتْ حفرة كبيرة في حديقتنا، شعرتُ بزلزال، وارتجّت الأرض حولي ولم أستطع أن أسمع بأذنيّ ليوم كامل. لم نسمع دَويّ الانفجار، لأنّ القنبلة الفراغيّة تُفرِّغ الهواء، لكن أهل دمشق وضواحيها سمعوه. سيطرتْ علينا فكرة أنّنا لن نعيش، وسنموت بانفجار أو آخر. كانت الشّبابيك تسقط فوقنا، والأشياء في البيت تتكسّر، نُدفَن تحت الرّكام، ثمّ ننجو. ثمّ من جديد بعد كلّ انفجار، ننتشل أنفسنا من تحت الرّكام، وننجو، لا أُصدِّق حتّى اللّحظة أنّني أعيش!

في الأيّام الأخيرة، فَقَدْنَا الخبزَ، طبخْنا ما تبقّى من الرّز والبرغل. كنّا شفّافين وطيّبين، لأنّنا كنّا على وشك الموت، لم نعد نفكّر في أيّ شيء. توحّدتْ مشاعرنا، كنّا نضحك ونبكي كأنّنا مرايا أمام بعضنا بعضًا. كان لدينا خزّان ماء في القبو، نتقاسمه مع الجيران. شربْنا الماء بتقنين. نفد كلّ شيء. حاولنا الخروج، لأنّنا كدنا نموت عطشًا وجوعًا. رفض عناصر حاجز النّظام أن نخرج، عندما حاولْنا مغادرة "برزة"، لم تسمح لنا جماعة النظام، قالتْ إنّنا مع الإرهابيّيْن، فعدتُ مع زوجي، وقرّرْنا أن نموت معًا. كنّا جائعين، ولم ننم لأيّام، حتّى إنّنا لم نستطع رمي زبالتنا، فكانت روائحها تقتلنا. جارنا في البيت المقابل، خرج ليرمي الزّبالة، فمات برصاصة قَنْص. انتشرت الفئران والحشرات حولنا. جاء إلينا عناصر الأمن أخيرًا، وقالوا إنّ هناك هدنة، وإنّ علينا الخروج، لأنّ النّظام سيُفرغ "برزة" من المَدَنيّيْن، فخرجْنا مسرعين. كانت لدي حقيبة صغيرة، أعددتُها لمثل هذه اللّحظة، كانت فيها أوراقي الرّسميّة كلّها. تركتُ بيتي كما هو، وخرجنا مسرعين تحت زخّات الرّصاص، على الرّغم من إعلان الهدنة! كنّا عشرين مَدَنيًّا، وآخر مَنْ خرج من "برزة". فتّشونا بدقّة قبل أن يسمحوا لنا بالخروج.

بعد مئة متر من الحاجز الذي اجتزناه، اختلفت الحياة، كنّا مُعفّري الوجوه، ومتّسخين، وكنتُ أبكي. ذهب جيراني كلٌّ منهم في طريق. لمُجرّد أن نظرتُ ورائي إلى المكان الذي خرجتُ منه، فَقَدْتُ وعيي. في أثناء خروجنا، لاحظتُ أنّ "الجيش الحُرّ" لم يكن موجودًا، كان هناك فقط أصحاب اللّحى المتطرّفون، بألبسة طويلة تشبه اللّباس الأفغانيّ، فعرفتُ أنّهم من "جبهة النّصرة". رأيتُهم وجهًا لوجه في ٢١ آذار ٢٠١٣.

لقد عملْنا كثيرًا لإنجاح الثّورة، لكنّ عملنا ذهب أدراج الرّياح. عندما بدأ الحصار، بدأنا مشاريع إنتاجيّة صغيرة للنّساء حتّى يعتمدنَ على أنفسهنّ. فالنّساء في "برزة" كنّ قويّات، يعملنَ مثل الرّجال، يفتحنَ المحالّ، ويُدرّسن في المدارس، ويدرنَ رياض الأطفال. العمل الأصعب بالنّسبة لهنّ كان في المشافي الميدانيّة. لقد تعلّمتُ منهنّ القوّة والبساطة، فهنّ لا يعرفنَ كثيرًا عن حقوق المرأة، وقد عملتُ معهنّ في دورات توعية في هذا الخصوص. كنّ على درجة متباينة من الوعي، وهذا طبيعيّ في المجتمع السّوريّ، لكنْ، كان هناك إجماع من النّساء على رَفْض حمل السّلاح.

بعد خروجي من "برزة"، طلبتُ اللّجوء في فرنسا، وما زلتُ أعيش في باريس. لكنّني ما زلتُ هناك داخل بيتي في "برزة"، أنا لستُ هنا في باريس!

الرّاوية الخامسة عشرة

اسمي "عليا". عندما بدأت الثّورة كنتُ في الثّالثة والعشرين من عمري أدرس في كُلّيّة الهندسة التِّقْنِيَّة، اختصاص تكنولوجيا حيوية بمدينة "حلب". أنا من مدينة "معرّة النّعمان"، حيث بدأت التّظاهرات منذ شهر آذار ٢٠١١.

أمّي عاشت حوادث مجزرة حماه عام ١٩٨٢، وقد روتْ لنا كيف نجتْ من المجزرة. عاشتْ طوال حياتها بيننا في خوف ورعب، حفظتُ حكايات أمّي جيّدًا، بقيتْ عالقة في رأسي مثل حياة موازية. روتْ لي ما حلّ بصديقتها في البيت المجاور لبيتهم. كانت جارتها حاملًا، وقد اغتُصبَتْ من قِبَل قوّات سرايا الدّفاع، وظلّتْ تنزف حتّى ماتت. كانت أمّي واحدة من ستّ بنات، وأخ وحيد، وهي لا تنسى شعورها بأنّها مصيبة وعار بعد تلك الحوادث. لأنّ نساء كثيرات اغتُصبنَ في المجزرة، والاغتصاب عار، وكان ممكنًا أن تُغتَصَب! جارة أمّي كان لديها أربع بنات، وطفل وحيد، وكان رضيعًا، خبّأتْهُ في إحدى خزائن المطبخ حتّى لا يقتله رجال سرايا الدّفاع، لكنّه بكى، فسمعوا صوته، وقتلوه برصاصة في رأسه. تُردِّد أمّي هذه الحكايات وهي خائفة حتّى الآن، على الرّغم من مرور أكثر من خمس وثلاثين سنة عليها. لقد استطاعت النّجاة في ٢٦ شباط عام ١٩٨٢، لأنّها هربتْ بمساعدة أحد أقربائها، وكان مسؤولًا في الدّولة. أرسلَها جدّي مع

أخوات ثلاث في دبّابة، لأنّه خاف عليهنّ من الاغتصاب. أخبرتْني أمّي أنّها في أثناء عبورها من باب بيتها إلى الدّبّابة، كانت تدوس على الجثث، لأنّ الشّوارع كانت ممتلئة بها. بعد خروج أمّي وخالاتي، هاجمت سرايا الدّفاع البيت، وأخذتْ جدّي الذي اختفى منذ ذلك الحين. أمّا جدّتي، فأُصيبت بالشَّلَل. لذلك، كانت أمّي ضدّ الثّورة. كانت تقول لي أنتُم لا تعرفون عائلة الأسد، سوف تحرق سورية كلّها، ولن تسقط، فلم أشارك في التّظاهرات حرصًا على مشاعرها وتَجنيبها الخوف.

كنتُ أراقب التّظاهرات تخرج في "معرّة النّعمان"، من داخل بيتنا. رأيتُ بعينَيّ سيّارة مرسيدس تدهس المتظاهرين، وتُطلق النّار عليهم. كانت أمّي خائفة وقلقة جدًّا عليّ، تراقبني طَوَال الوقت، ولا تريدني أن أتحرّك خوفًا من الحواجز، ومن ذكرياتها، لكنّني كنتُ في "المعرّة" في أثناء تظاهرة جمعة العشائر، في الخامس من حزيران عام ٢٠١١، وشاهدتُ تحليق المروحيّة وقَصْف المتظاهرين بالرّشاش. أخرجَنا أبي من "المعرّة" إلى "حلب"، وبقي هو وأمّي. أكملتُ امتحاناتي في جامعة حلب، وكان آخر يوم لي في ٣٠ حزيران، أو ما عُرف بـ "بركان حلب". كنّا نخضع للامتحانات، عندما دخل "الشّبّيحة" علينا ممسكين بسيوف وعصيّ وبنادق. وعندما خرجتُ من الامتحان، كانت هناك تظاهرة طلابيّة في ساحة الجامعة أمام كُلّيّة الطّبّ. ما إن هتف المتظاهرون بإسقاط النّظام حتّى بدؤوا يضربونهم بطريقة وحشيّة.

عدتُ إلى "المعرّة"، وكتبتُ في "الفايسبوك" شعارات ضدّ النّظام. كان جيش النّظام لا يزال موجودًا. وكان زوجي يخرج مع المتظاهرين. تابعتُ تطوير لغتي الإنكليزيّة بعد الجامعة في معهد لغات بـ "المعرّة". شهدتُ

أمام المعهد تظاهرة، وقتل الأمنُ أمامي ثلاثةَ شباب، وكان حاجز الجيش أمامنا، بقيتُ محاصَرة طوال النّهار في المعهد، لأنّ النّاس كانوا يُشيّعون قتلاهم، فيقتل رجال الأمن شبابًا جددًا في أثناء التّشييع. ويرمون على المتظاهرين قنابل مسماريّة أيضًا.

لم تخرج نساء "المعرّة" في تظاهرات. فالمجتمع مُغلَق، وعندما حاولنَ الخروج بتظاهرة، وهنّ متعلّمات وجامعيّات، قيل لهنّ إنّ شغل السّياسة ليس للنّساء. كان الخوف الأكبر هو من الاعتقال، حيث هناك هاجس الاغتصاب الذي سيُلحِق العار بالعائلات.

تحرّرت "المعرّة" كُلّيًّا في تشرين الثّاني ٢٠١٢، ومنذ ذلك اليوم، ونحن نتعرّض للقصف. لم أغادر "المعرّة" حتّى الآن، ولن أخرج، على الرّغم من أنّنا كنّا نُقصَفُ بالقنابل الفراغيّة والعنقوديّة والبراميل.

في "المعرّة"، وخلاف مناطق أخرى لم تُسئ"أحرار الشّام" اجتماعيًّا للنّاس. كان عناصرها مع "فيلق الشّام" يقاتلون على خطوط الجبهة، ومقارّهم خارج المدينة، وقد قامت حركة "أحرار الشام" بحركة تجديد من أربع سنوات في خطابها، وطردت العناصر المتطرّفين فيها، وحاولتْ أن تأتي بمثقّفين وجامعيّينْ لاستلام مناصب قياديّة. لم يكونوا ضدّ تعليم النّساء، وأحد شيوخها قال شَرْعًا وعَلَنًا مرّة إنّه لا يجوز ترويج الفتاة صغيرة.

في عام ٢٠١٢، بدأتُ وزوجي التّفكير في تأسيس جمعيّة إغاثيّة بعد القصف والنّزوح، واعتمدْنا على عائلتنا لمساعدتنا. استلمتُ القسم الإعلاميّ، وأسّسنا جمعيّة "بسمة أمل". جعل القصف عملَنا أكثر صعوبة، وصارت حركتنا نحن النّساء صعبة جدًّا، لأنّ القصف لم يكن يتوقّف أبدًا،

والحركة اقتصرتْ على المقاتلين. اختبأنا في الأقبية، قام الشّباب بالأعمال اللّوجيستيّة، ثمّ بدأتْ مرحلة رَمْي البراميل المتفجّرة علينا، وحصلتْ نتيجتها مجازر كثيرة، لأنّ النّاس كانوا يختبئون في الأقبية، فكانوا يموتون اختناقًا تحت الرّكام. كان الطّيران يبدأ القصف السّاعة السّادسة صباحًا، وحتّى آخر النّهار. في إحدى المرّات، أحصينا كلّ يوم ثلاثين غارة لثلاثة أيّام متواصلة، فترك أهل "المعرّة" المدينة. وبعد أسبوع واحد، لم تبقَ هناك امرأة واحدة. بقيتُ أنا وأمّي وعائلتنا فقط. كان عدد سكّان "المعرّة" مئة وخمسين ألفًا، فتحوّلتْ مدينة أشباح، بقي فيها الأطبّاء والمقاتلون. كانت القذائف تتساقط في غرفتي، نجوتُ من الموت مرّات عدّة. نزحْنا لشهرَيْن إلى الجبل، ثمّ عدْنا. تهدَّم بيتنا بالكامل.

كنّا من طبقة ميسورة، لكنّنا رفضْنا التّخلّي عن المدينة. كان حُلمي أن أعطي هؤلاء الفقراء المعرفة العلميّة والتِّقْنِيَّة والثّقافيّة، بخاصّة الفتيات والنّساء. جارتنا مثلًا لديها ثلاثة عشر ولدًا، وعمرها أربع وثلاثون سنة فقط. كنتُ مذهولة من سوء أوضاع النّساء، خصوصًا أنّ مَنْ بقينَ هنّ الفقيرات جدًّا. لقد قرّرتُ أنا وعائلتي أن نصنعَ شيئًا لبلدنا. طلب أبي منّا الخروج، على أن يبقى هو في المعرّة. رفضتُ أنا وأمّي، قرّرتُ أن أعمل. أنا مؤمنة بالله وملتزمة بدِيني، ولكنّني أؤمن بالعلم، وأريد سورية واحدة وديموقراطيّة.

في عام ٢٠١٣، كانت "معرّة النّعمان"، المدينة التّاريخيّة العريقةِ ميتة. لا توجد فيها مدارس، لا بضائع، لا طعام، نشتري حاجاتنا من خارجها. لا توجد مخازن. اختفت النّساء أيضًا. بقينا نحن في البيت. كان ركام الأبنية المهدّمة هو الصّورة الطّاغية.

أسّسْنا مركزًا تنمويًّا تعليميًّا للنّساء مع مجموعة مراكز مشابهة في ريف

"إدلب"، وبالتّنسيق مع ناشطات في ريف دمشق، وبدأنا العمل.كانت البداية في تحديد الأهداف التي تجمعنا كشبكة نسويّة، ثمّ العمل على تمكين اقتصاديّ وثقافيّ وسياسيّ ودَعْم نفسيّ واجتماعيّ وتعليميّ. في عام ٢١٠٢، ركّزْنا على الجانب التّعليميّ لمدّة سنة، قمْنا بدورات محو أمّيّة وتعليم اللّغَتَيْن الإنكليزيّة والفرنسيّة والرّياضيّات ... مع بداية تأسيس المركز، كانت لدينا جلسة مع الكادر في أوّل اجتماع لإطلاق قِيَم العمل ومبادئه الخاصّة، وتأسيس فريق عمل متماسك ومنسجم في مجتمع الحرب، غايتنا هو أن نجعل النّاس ينسون فكرة أنّ أيّ شيء مجّاني هو غير جيّد دائمًا. أردْنا نقض هذه الفكرة في المجتمع. اتّفقْنا على تقديم أفضل مستوى من التّعليم. نشرنا إعلانات عن المركز. كانت أولى الفئات فئة الفتيات بين اثنَتَي عشرة سنة وثماني عشرة. اعتقدت النّساء أنّ مركزنا مفتوح للشّابّات فقط. فنشرْنا فكرة أن هذا المركز لكلّ الأعمار، ونحن نشتغل لتقديم التّعليم الذي حُرمت النّساء منه، بسبب العادات أو الزّواج المبكّر أو الحمل والولادة، وبسبب الحرب، وبدأنا نستقبل النّساء من الأعمار جميعها.

في أوّل دورة كمبيوتر ولغة إنكليزية، كانت لدينا نساء في عمر الخمسين، كالسّيّدة إسعاف التي أصبحتْ بعد أن تعلّمتْ في مركزنا، مديرة مركز نسائيّ آخر، تدعم فيه نساء أخريات. كان تطوّر هذه السّيّدة مثلًا مُرضيًا لأهدافنا في التّنمية ودَعْم النّساء. لا تزال السّيّدة تعيش في "معرّة النّعمان" حتّى الآن. كانت عندنا سيّدات بدأنَ يُعلِّمنَ أزواجهنّ في البيت، بخاصّة في مجال الكمبيوتر. اشتغلْنا تحت القصف، وكان القصف يأتينا من قِبَل النّظام من "وادي الضّيف"، والمعارك كثيرة حولنا، لكنّ إرادتنا كانت قويّة.

في كلّ صباح، وعندما نفتح المركز، ويكون القصف على أشدّه، كنّا نرى النّساء قادمات. رؤيتهنّ قادمات ليتعلّمنَ ويتجاوزنَ الأخطار والقصف ويتحدّينَ الموت، كانت تدفعنا إلى المتابعة معهنّ. كان يمكن أن نموتَ في أيّ لحظة، وهذا ليس مجازًا، كان الطّيران يقصفنا باستمرار، وهذا لم يجعلنا نتوقّف أيضًا. قالتْ لي إحدى النّساء: "لا تُغلقوا المركز، أنتم الأمل الوحيد الذي يجعلنا نستمرّ في الحياة، نحن نريد أن نتعلّم، لقد شعرْنا بوجودنا، عرفْنا أشياء كثيرة، وتفتّحتْ عقولنا على العالم والحضارات الأخرى". تأثّرتُ كثيرًا بما قالتْ، وكان هذا يُنقذني من حالات الحزن والخوف والاكتئاب. لذلك، لم نُغلق المركز، على الرّغم من وحشيّة القصف.

حماسة النّساء كانت مُفاجأة لي. شجاعتهنّ النّادرة أيضًا! شعرتُ بأنّهن ازددنَ انفتاحًا، وصارت علاقاتهنّ الاجتماعيّة أوسع، وشكّلنَ قوّة فيما بينهنّ وحلقات تواصل اجتماعيّ في "المعرّة". كنّا نقوم بحلقات بحث، نطرح موضوعًا على النّساء والفتيات لنناقشه.

في العام الأوّل، كانت البداية صعبة، بسبب القصف المتواصل والعنيف. كان العدد في بداية ٢٠١٤، لا يتجاوز المئة وعشرين سيّدة، وفي عام ٢٠١٥، بدأنا التّمكين الاقتصاديّ والدّورات المهنيّة لتحقيق استقلالهنّ الاقتصاديّ، وأطلقْنا أسابيع ثقافيّة عبر مجموعة محاضرات معرفيّة، عن حقوق المرأة وتربية الأطفال. واجهْنا صعوبات مع جماعة "الحسبة الشّرعيّة"، وحدَّتْ من نشاطاتنا. كانت عندنا نشاطات كثيرة نقوم بها بطريقة سرّيّة، ربّما نستطيع في يوم القيام بنشاطاتنا الأخرى ذات الطّبيعة المرفوضة من قِبَل الجهات الدِّينية المتطرّفة. عمومًا، نحن مؤمنون بأنّنا وفي مجتمع الحرب، يجب علينا وضع خطط استراتيجيّة للمحافظة

على بقائنا، واجهتْنا صعوبات، أهمّها القصف، فقد كنّا نقوم بعملنا ونحن نتوقّع الموت في كلّ لحظة. لم تقدر "الكتائب" المتطرّفة أن تفرض سيطرتها المطلقة في "معرّة النّعمان". نحن أيضًا كنّا نفهم الوضع، ونتصرّف بذكاء ومناورة معها. كانت هناك محاولات للتّدخّل في لباس النّساء. أرادت "الكتائب" المتطرّفة أن يكون اللّباس جلبابًا طويلًا، من دون فَرْض اللّباس الأسود، لكنّها لم تستطع فرض ذلك علينا. حاولتْ مراقبة لباس النّساء في المدارس والمراكز. كانت فترة صعبة، لكنّنا واجهناها.

أسَّسْنا حضانة أطفال في المركز لتشجيع النّساء على الخروج من بيوتهنّ، فمن المستحيل تَرْك الأطفال وحدهم في ظلّ القصف المستمرّ، فكنّا نعتني بأطفال نساء مركزنا، ونُعلّمهم مناهج خاصّة، تأتي الأمّهات وأطفالهنّ، ونُشرف عليهم معاً. أنشأنا مكتبة للمطالعة. الفتيات بين خمس عشرة سنة وعشرين كنّ أكثر المقبلات على المطالعة. كانت مكتبة متنوّعة، فيها كُتُب ثقافيّة وعلميّة ودِينيّة وأدبيّة، كنّا نشجّع القارئات. كرّمْنا فتاة قرأتْ عشرين كتابًا خلال عشرين يومًا، كان الهدف تشجيع النّساء على القراءة.

في عام ٢٠١٧، نقلْنا المركز إلى مكان أكثر اتّساعًا. لأنّ عدد النّساء المشتركات ازداد. صار مركزنا يحتوي على اثنَتَي عشرة صالة، توسَّعتْ دوراتنا وشغلنا في التّمكين الاقتصاديّ لتصبح ستًّا. الدّعم النّفسيّ كبر وازداد، أجرْنا حوارات عميقة مع المرشدات النّفسيّات للنّساء في الحرب. كانت لدينا قاعة مخصّصة للتّدريبات، حيث نقوم ببرامج قياديّات نسائيّة، وورشات تدريب لتطوير المهارات الإداريّة، لوَضْع خطط مشاريع واستراتيجيّاتها، وتبيان الفرق بين القيادة والتّخطيط. لم يكن عملُنا محصورًا

في "معرّة النّعمان" فقط، بل كان يشمل القرى المحيطة بنا أيضًا في ريف "إدلب". كنتُ مدركة أنّ الأمر يبدو جنونيًا، ونحن نعيش خطر الموت اللّحظيّ والقصف، وتحت حكم "الكتائب العسكريّة" المتعدّدة والمتطرّفة، لكنّني كنتُ أفكّر في أنّه الطّريقة الوحيدة للمقاومة.

كانت دورات التّمكين الاقتصاديّ جديدة نوعًا ما، واستفادتْ منها الأرامل، وقد حرصْنا على جعلهنّ يعملنَ في بيوتهنّ. فتحتْ سيّدة منهنّ، لديها خمسة أطفال، مشغلاً في بيتها لصناعة الأكسسوارات، وأتتْ بخمس بنات، عملنَ معها. لديها الآن ورشة، وتُصدّر بضاعتها إلى القرى المجاورة. تعيل نفسها وخمس نساء عاملات معها. من الدّورات المهنيّة أيضًا، تمّ تأهيل ممرّضات، أرسلناهنّ إلى مشافٍ، تعاقدْنا معها لتدريب الفتيات. اختارتْ بعض المشافي أربعًا من فتياتنا. الفتيات الأربع طُلبنَ إلى قرى مجاورة في المشافي. كنّا نُؤهّلهنّ، ونُرسلهنّ، وهذا يعني إعطاء هامش أكبر للنّساء في الحركة لجَعلهنّ مستقلّات اقتصاديًّا واجتماعيًّا. أيضًا من خلال الدّورات المهنيّة والورشات التّدريبيّة، واضطرار النّساء للعمل بعد موت أزواجهنّ، أصبح عندهنّ هامش أوسع من الحُرّيّة، بخلاف الفكرة السّائدة أنّ الثّورة والحرب أجبرتا النّساء على الانكفاء، وإن كان الأمر نسبيًّا يختلف بين منطقة وأخرى.

بالنّسبة إليّ، لم أتوقّع أن أعيش هذا الجحيم، لقد كنّا سِلْميّين، ونطالب بالإصلاحات، وردّ فعل النّظام العنيف، هو الذي أدخلَنا في هذه الحرب، وسمح بالتّدخل الدّوليّ. لن أخرج من بلدي، ولن أُهزَم، أريد دولة الدّيموقراطيّة والعدالة، هذا ما أُردّده في نفسي مرّات ومرّات في اليوم عندما تُحلّق الطّائرة فوق رأسي.

لقد تطوّرتُ خلال عملي كثيرًا، عشتُ الحياة في أقسى الظّروف بلا كهرباء، بلا ماء ... عشتُ مع الموت اللّحظيّ. تجربة العمل الاستثنائيّة مع النّساء في الحرب والثّورة جعلْتني امرأة ناضجة ومرنة اجتماعيًّا. أنا والنّساء هنا لن نتركَ بلدنا، سوف نستمرّ في تعليم أطفالنا، وندرّب نساء أخريات على تطوير أنفسهنّ، على الرّغم من وضعنا الإنسانيّ القاسي. نحن لا نثق في المجتمع الدّوليّ، لأنّنا نموت منذ سنوات، ولم يتحرّك. لديّ إيمان بعدالة قضيّتنا، ولا أقبل بأن تتقسّم سورية، مؤلم هذا القَطْع الفجائيّ. هذه قسوة لا حدود لها! سوف يذكر التّاريخ ما فَعَلَهُ العالمُ بالسّوريّيْن، سيبقى وصمة عار في الضّمير الإنسانيّ. أنا باقية هنا مع أطفالي، سأجعلهم يردّدون دائمًا أنّ سورية الواحدة هي بلدهم، وأنّنا شعب واحد بلا طوائف، وأنّنا في ريف "إدلب" جزء من سورية، ونحن نرفض التّطرّف الدِّينيّ. النّاس هنا يكرهون التّطرّف والسّلاح والفوضى، ويريدون استمرار الحياة في بلد، يعيشون فيه، لهم حقوق، وعليهم واجبات متساوية. زرعتْ أمّي في نفسي هذه القِيَم جميعها، على الرّغم من أنّها كانت شاهدة على مجزرة "حماه"، وخرجتْ من هذا العنف كلّه بروح عالية وقِيَم متسامحة ووطنيّة. أدين لها بجميع ما أحمل من قِيَم إيجابيّة، أنا فخورة بها، وفخورة بنساء بلدي كلّهنّ اللواتي يشبهنها.

الرّاوية السّادسة عشرة

أنا حَذامِ عدي. عمري سبع وسبعون سنة، عندما بدأت الثّورة، كنتُ أعيش في "حمص"، وأدير مدرسة في "حماه"، أسافر يوميًّا بين المدينَتَيْن. زوجي انخرط سياسيًّا في الثّورة. كنتُ مندهشة من تفاعُل النّاس معها. لم أتوقّع أن تنطلق حركة احتجاج شعبيّ بهذا المستوى في سورية، بخاصّة أن بنية النّظام القَمْعيّ جعلتْ من الحديث في السّياسة أمرًا مرعبًا.

في "حمص" داخل حَيّ "الدّبلان"، خرجت النّساء في تظاهرة نسائيّة في أيّار ٢٠١١، بعد أن قتل رجالُ الأمن المتظاهرين، وحوت تلك التّظاهرة أطيافًا دِينيّة متنوّعة من السّوريّات. اختفينَ لاحقًا، ولم يعدنَ يشاركنَ. الضّغط الاجتماعيّ والأمنيّ مَنَعَ الأقلّيّات من المشاركة. كانت إحدى النّساء من حَيّ "عكرمة" الموالي "غالبيّته من العَلَويّيْن" تشارك هي وبناتها في التّظاهرات، ثمّ اختفتْ. قالتْ لي إنّ الشّبّيحة هدّدوها باختطاف بناتها. أذكر أنّ سكّان حَيّ "الحميديّة الحمصيّ"، معظمهم من الطّائفة المسيحيّة، كانوا يقفون على شرفات منازلهم، يرشّون الرّزّ والسكاكر على التّظاهرات السِّلْميّة التي تجتاز حَيَّهم.

تغيّرت العادات والتّقاليد مع حركة الاحتجاج، فقد كانت في حارة قريبة منّا امرأة محافظة زوجها مسافر، آوتْ عشرات الشّباب الذين هربوا من رجال الأمن، وخبّأتْهم في بيتها حتّى الصّباح، وكسرت الحدود الاجتماعيّة

المفروضة، وعندما عرف جيرانها بذلك، قالتْ لهم: أنا لا أخاف أحدًا، جميعهم إخوتي، ولا أعرف مذاهبهم أو دياناتهم، أنا لا أخاف أحدًا فيما أفعله! فأثنوا عليها، وأتوا بالطّعام للشّباب الهاربين!

كان يندسّ بين المتظاهرين في الشّهور الأولى للثّورة شباب يضعون لحًى اصطناعيّة، ويتصوّرون، ثمّ تنتشر الصّور على أساس أنّهم متظاهرون. لقد رأينا هذا، وكنّا نعرف أنا وزوجي متظاهرين شبابًا كُثُرًا في "حمص" ولم يكونوا متطرّفين! وهذا حصل في مدينة "حماه" أيضًا، كنتُ شاهدة عليه، لأنّني كنتُ أتنقّل بين المدينتَيْن.

خوفي الأكبر كان من أن تصبح التّظاهرات طائفيّةً. قال لي أحد الشّباب، نحن بذلْنا جهدًا كبيرًا، لِنُفهِم القرى العَلَويّة أنّ مشكلتنا ليست مع العَلَويّيْن، وهذه التّظاهرات ضدّ الأسد، وليست ضدّهم. كان من جملة ما قاموا به في أيّار ٢٠١١، حين أراد طلّاب القرى العَلَويّة القدوم إلى المدينة لتقديم امتحاناتهم، وطالبوا بفَتْح مراكز الامتحان في قراهم خوفًا من المتظاهرين، فأرسل المتظاهرون برسائل إلى وجهاء العَلَويّيْن، واستقلّوا حافلات، وزاروا القرى، والتقوا بالأهالي، وأخبروهم بأنّ المدينة مفتوحة لهم، وهم أبناء بلد واحد، وعندما أتى الطّلّاب من قراهم، استقبلهم المتظاهرون بالورود، وشكّلوا سور حماية لهم لطمأنتهم. صديقتي كانت بداية مع الثّورة وهي عَلَويّة، ثمّ تغيّرتْ، قالتْ إنّ السُّنّة فجّروا أنابيب غاز في أحيائهم، الحقيقة كانت أنّ الأجهزة الأمنيّة افتعلتْ حوادث بين السُّنّة والعَلَويّيْن على حدّ سواء، وأيقظت الوحش الذي كان مختبئًا بفعل القَمْع.

في "حمص"، شاركتُ في اعتصام السّاعة في ١٨ نيسان٢٠١١. انطلقتْ تظاهرة ضخمة وشبيهة باعتصام "الميدان" في ساحة "التّحرير"

بالقاهرة من حيث التّنظيم. أمّن التّجّار الصّغار الطّعام والشّراب والخِيَم للمتظاهرين. في اليوم الأوّل للاعتصام، كانوا قلّة. في اليوم الثّاني ازدادوا، وأجروا حوارات سياسيّة بين النّاس العاديّيْن الذين كانوا تحت تأثير شيوخ الدِّين وبين الدّيموقراطيّيْن المثقّفين الذين شاركوا الشّباب اعتصامهم. كان زوجي واحدًا من المشاركين، وطرح الشّباب في اعتصامهم مقولة "الدِّين لله والوطن للجميع"، ظلّ المشايخ صامتين. الموجة الدّيموقراطيّة التي بدأتْ بها التّظاهرات كانت أقوى منهم، عندما استأصل النّظام الدّيموقراطيّيْن بالاعتقال والقَتْل والنَّفْي، ظهر شيوخ الدِّين على حقيقتهم، وصاروا جزءًا من خراب الثّورة.

في مجزرة الساعة، كنتُ في بيتي القريب من ساحة "السّاعة"، وزوجي كان في الاعتصام، سمعتُ صوت الرّشّاشات والمدافع في السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل. كان المعتصمون سِلْميّيْن وعُزّلًا تمامًا. كان الصّوت مرعبًا، كأنّني على خطّ جبهة. اقتحمتْ مجموعة كبيرة من رجال الأمن والجيش بالدّبّابات ساحة "السّاعة"، ووقفتُ على السّطح أراقب. رأيتُهم يفتحون نيران رشّاشاتهم على المعتصمين داخل الخِيَم الذين ينامون في "السّاحة" الذين قرّروا ألّا يتركوا أمكنتَهم، كانوا في حدود ألفَيْن وخمسمئة شابّ. أرسل الأمنُ إليهم أحد المشايخ الذين لهم سلطة وسطوة معنويّة على النّاس، فأنذرهم الشّيخ بأنّ رجال الأمن سيُطلقون عليهم الرّصاص الحَيّ، إن لم يفكّوا الاعتصام. تشاور الشّباب، وقرّروا البقاء، فانهمر عليهم الرّصاص! خفتُ، واختبأتُ، لأنّ القنّاصة انتشروا فوق أسطح الأبنية المواجهة. قتلوا حتّى مَنْ شاهد المجزرة، والشّباب الذين حاولوا الهروب رأيتُهم بعينَيّ يقفزون تحت الرّصاص والقصف! توقّعتُ أن يكون زوجي قُتِل، لكنّ الشّباب هرّبوه عبر الأزقّة، وأوصلوه إلى بيتنا. عناصر الحاجز الأمنيّ في

أوّل الشّارع أوقفُوه، ولأنّه متقدِّم في العمر، لم يشكّوا فيه. كانت الفوضى عارمة، بعد عشر دقائق، اقتحموا بيتنا بعد أن عرفوا بمشاركة زوجي الذي هرب وقفز إلى سطح الجيران، وأنا انبطحتُ أرضًا، كانوا مدجّجين بالأسلحة.

منذ تلك الحادثة، صار نشاط زوجي سرِّيًا. قال إنّهم قتلوا أمامه كُثُرًا من النّاس، بلغ عددهم مئَتَيْن وخمسة وسبعين قتيلاً، وسُمّيت تلك المجزرة بمجزرة "السّاعة".

تحوّل بيتي قاعات اجتماعات سياسيّة بعد ذلك، كان الشّباب يأتون لنتشاور ونتحدّث فيما يحصل، رغبوا في أن يفهموا أكثر عن تاريخ سورية السّياسيّ. وهؤلاء هم الذين أسّسوا "تنسيقيّة حمص". وقد قُتلوا برصاص الأمن، واعتُقلوا، وهرب مَنْ بقي على قيد الحياة. هؤلاء الشّباب هم طلّاب جامعة مثقّفون سِلْميّون، اعتقدوا أنّ النّاس إذا تجاوبوا مع حراكهم، فهذا يعني أنّهم يملكون أملاً بإسقاط النّظام، كان أصدقاؤهم يموتون كلّ يوم. يموتون بالقَنْص وبرصاص أجهزة الأمن التي دسّتْ بين المتظاهرين مُخبرًا يُصوِّر قادة الحراك السِّلْميّ، وبعد أن عرفتْهم عناصر الأجهزة، قنصوهم مباشرة في الرّؤوس، واحدًا تلو الآخر، وهو ما حصل مع المُسعفين والأطبّاء الذين حاولوا إنقاذ النّاس.

في حواراتنا، كان رأيي أن جَرَّ الثّورة إلى العَسْكَرة هو الورقة الرّابحة الوحيدة للنّظام، والثّوّار لن يقدروا على مجاراته عسكريًّا. ظنّ الشّباب الثّائرون أن المجتمع الدّولي لن يسكتَ عن هذه المجازر. كان السّلاح فخًّا من النّظام، وفي الواقع، كانوا مستعدّين له بعد المجازر.

أساس حواراتنا مع الشّباب، كان ضرورة الابتعاد عن ردّ الفعل الطّائفيّ،

بخاصّة أنّ "شبّيحة" حارَتَي "عكرمة" و"الزّهراء" دهموا حارات السُّنّة، واعتقلوا بنات العوائل المحافظة والمتديّنة، وتحرّشوا بهنّ. التّحرّش الجنسيّ كان سببًا قويًّا لإثارة النّعرات الطّائفيّة وتفاقُمها. وبدأ الشّباب السُّنّة أيضًا يخطفون نساء من أحياء العَلَويّيْن. خُطفت النّساء من الطّرَفَيْن لاحقًا، ثمّ بدأ الأمن يُخرّب المحالّ التّجاريّة، لأنّ التّجّار ساعدوا المتظاهرين، لقد لعبتْ أجهزة الأمن على الوَتَر الطّائفيّ. مرّة، قتلوا رجلًا مسيحيًّا معروفًا، ورُميَتْ جثّته في حَيّ "الحميديّة" المسيحيّ، وقال رجال الأمن إنّ المتظاهرين هم الذين قتلوه.

خرجتْ "حمص" كلّها في جنازة هذا الرّجل، ومن الأديان والطّوائف جميعها، وكان زوجي في مقدّم المشيّعين، ويهتف: "واحد واحد واحد، الشّعب السّوريّ واحد". عمل زوجي وغيره من الدّيموقراطيّيْن ضدّ تفشّي مشروع الأسد الطّائفيّ في الثّورة، فاعتُقل، وأنا بقيتُ حتّى أواخر ٢٠١١ في "حمص"، واشتغلتُ مع الشّباب على نَزْع الطّائفيّة وعَدَم حَمْل السّلاح، قالوا لي صراحة إنّ الموضوع الطّائفيّ أكبرُ من طاقتهم، وقالوا لن نقفَ مكتوفي الأيدي، نحن نموت، إنّهم يأخذون نساءَنا. قلتُ لهم: هل لديكم طائرات؟ هل لديكم دبّابات؟ قالوا: لا، نحن نملك الكلاشينكوف فقط، وأجبتُهم، هذا عدم توازن قوى، وسيربح النّظام، ويبدو للعالم أنّ هذه الثّورة مسلّحة، ولن يكون هذا لمصلحتكم. لم يقتنعوا، وحملوا السّلاح. خطّط النّظام للأمر، بشكل صحيح، ولم يكنْ لينجحَ، لولا التّدخّل الخارجيّ من دول أخرى، سواء التي دَعَمَت المتظاهرين بالسّلاح، أو التي دَعَمَت الأسد. ابتدأ شراء السّلاح بعد مجزرة "السّاعة"، لأنّ النّظام كان يقصف الحَيّ باستمرار.

انتشر الفساد لاحقًا من الجهات جميعها، كانت هناك رشى ومبالغ هائلة تُدفَع لإطلاق سراح المعتقلين، وأنا كنتُ ضدّ هذا، وقلتُ للثّوّار إنّكم تُفسدون كلّ شيء. كانوا يريدون فقط إخراج أصدقائهم من المعتقلات. فقد حوَّلتْ أجهزة الأمن السّجن عملية تجاريّة لكَسْب المال.

كنتُ أزور زوجي في السّجن، وأسمع عمّا يحصل هناك، وأتابع اجتماعاتي مع الشّباب، ونعقد الحوارات، وأسافر في الوقت ذاته إلى مدينة "حماه"، وأقوم بالنّشاطات نفسها. كنتُ حينذاك، في الثّانية والسّبعين، ولكنّني شعرتُ بأنّني أُولَدُ من جديد.

كنتُ في "حماه" في أثناء مجزرة "أطفال الحُرّيّة". اتّفق أهل "حماه" مع المحافظ ورجال الأمن على الخروج في تظاهرة، فتعهّد الأمن بعَدَم التّعرّض لها، وتعهّد المتظاهرون بعَدَم التّعرّض لمنشآت الدّولة، وعدم رَفْع شعارات تطالب بإسقاط النّظام، بل بالإصلاح مثل إلغاء قانون الطّوارئ، وتغيير المادّة ٨ من الدّستور، وبألّا يُذكَر اسم بشّار الأسد أو حافظ الأسد. قَبِلَ الأمنُ العسكريّ والمحافظ بالشّروط، وسمحوا بخروج التّظاهرة، على أن يحضر عناصر الشّرطة، لا الأمن. خرج النّاس من حاراتهم، وأتوا بأطفالهم، وألبسُوهم ثياب الأعراس، ورفعوا شعارات إصلاحيّة فقط. كان من ضمن شروط السماح بالتّظاهرة تنظيف ساحتها بعد فضِّها. كان الاتّفاق أن يأتي النّاس من الجهات كلّها، والاجتماع في ساحة "العاصي" وسط حَيّ "المرابط". حمل النّاس، بخاصّة الأطفال، الورود، ومشوا في مقدّم المتظاهرين، وطَلَبَ الأهالي من أطفالهم تقديم الورود إلى عناصر الشّرطة. المتظاهرون الذين أتوا من حَيّ "المرابط" كانوا قد وصلوا إلى "خان رستم" في أوّل الحَيّ، وقفوا، وردّدوا الشّعارات المتّفق عليها، وتقدّم

الأطفال لتقديم الورود إلى الشّرطة، حينذاك فُتِح باب الخان، وأُطلقت النّار على الأطفال من الرّشّاشات. رمى الرّجال أنفسهم فوق أطفالهم. فكان أن سقط قَتْلى وجرحى، نُقلوا إلى مشفى الحوراني الذي غطّى الدّم أرضيّة ممرّاته، فأخذ النّاس يشطفون الأرض لتنظيفها. احتلّ الجيش بنكَ الدّم، وأخذ أكياسه كلّها. قدّر أطبّاء المشفى عدد القَتْلى بمئة وسبعة وأربعين، وارتفع لاحقًا إلى مئتَيْن. صنعت النّساء الشجاعات اللواتي كنّ في التّظاهرة سياجًا بشريًّا، ومنعنَ عناصر الأمن من دخول المشفى، واتّصلنَ بقناة تلفزيونيّة، وأعلمنَها بما حصل. كانت أعداد النّساء كبيرة حول المشفى، لأنّ الأمن كان يريد الإجهاز على الجرحى. سُمّيَت المجزرة بمجزرة "أطفال الحُرّيّة"، وكانت في ٣ حزيران ٢٠١١.

بقيتُ في "حماه" يومًا واحدًا بعد المجزرة، ثمّ عدتُ إلى "حمص" أتابع سير التّظاهرات مع الشّباب.

أنا بنتُ مدينة "حماه"، وُلدتُ في حَيّ "المرابط"، وترعرعتُ في حَيّ "المحطّة". رأيتُ تحوُّلات المدينة قبل عائلة الأسد وبعدها. كنتُ في السّادسة، عندما خرج الفرنسيّون من سورية عام ١٩٤٦، رأيتُ دبّاباتهم تغادر الثّكنة متّجهة إلى "حمص"، وتمرّ أمام بيتنا. كان العَلَمُ الفرنسي يرفرف فوقها. وقفتُ أنا وإخوتي الثّلاثة أمام المنزل نُراقبها، وكان ثُوّار الاستقلال بيننا يرشقون الفرنسيّيْن بالبيض والبندورة. في اليوم التّالي، احتفلنا بعيد الجلاء.

شهدتُ التّظاهرة الأولى في مدينة "حماه" عام ١٩٤٨، حين خرج الحمويّون للتّظاهر ضدّ ارتفاع أسعار الخبز. كان عدد النّساء المشاركات قليلًا. هتف الرّجال: الله أكبر، لا إله إلّا الله، واتّجهت تظاهرتهم باتّجاه

"خان رستم" أمام المبنى الحكوميّ المسؤول عن ارتفاع الأسعار. حملوا تابوتًا، فتحوه، وأخرجوا منه حجارة، ورشقوا المبنى بها.

كنتُ أدرّس في مدرسة البنات بـ "حماه". كان أبي قوميًّا، يقف ضدّ الأتراك. والد أمّي الشّيخ توفيق الشّريازي، مفتي المذهب الشّافعي، وكان متديّنًا ومتشدّدًا، عكس أبي المنفتح. كنتُ عالقة بين بيئة أبي وحواراتها الفكريّة والسياّسيّة والثّقافيّة، وبيئة أمّي الدِّينيّة الفقهيّة. أمّا إخوتي، فكانوا ذوي اتّجاهات سياسيّة متعدّدة (واحد قوميّ، وآخر اشتراكيّ، والثّالث مُلتزم دِينيًّا). في ذلك الوقت، كانت سورية تشهد حراكًا سياسيًّا ونهضويًّا كبيرًا. كان قسم من أهل "حماه" من الشّعبيّيْن الاشتراكيّيْن، والقسم الثّاني من الإقطاعيّيْن. أمّا "الإخوان المسلمون"، فخسروا مرَّتَيْن في الانتخابات، لأنهم تحالفوا مع الإقطاعيّيْن في وجه المَدّ التّحرّريّ التّقدميّ القويّ. في الخمسينات، بدأتُ أتردّد على الاشتراكيّيْن، على الرّغم من أنّني كنتُ في الثّانية عشرة، ولا أستطيع الانتخاب، إلا أنّني ساعدتُهم، وكنتُ سافرة. حاول أخي المُلتزِم أن يفرضَ عليّ الحجاب، فوقف أخي الاشتراكيّ إلى جانبي في وجهه. اكتفيتُ بما يشبه فولارًا صغيرًا على رأسي. كان أبي عالمًا بالدِّين، ومُلتزِمًا إلى حدّ ما، لكنّه لم يُحبِّذ الحجاب، قال لنا: لا حجاب في الدِّين، ولكنْ، يوجد ما نُسمّيه توجيه السّترة، وهو فولار خفيف على الرّأس. بعد تخرُّجي في الجامعة عام ١٩٦٤، نزعتُ حتّى الفولار. وعدتُ سافرة.

كانت جمعيّة المرأة العربيّة التي أساهم فيها تنشط مَدَنيًّا وسياسيًّا في "حماه". الجمعيّات التي نشطْنا فيها عملتْ على مَحو الأمّيّة، بخاصّة في الرّيف "الحمويّ"، وهي التي أنشأت حضانة لأطفال العاملات وهم في عمر الثّلاثة أشهر، عام ١٩٥٢. حاضرتُ بالنّساء عن حقوق المرأة، وحصل

جدال بيننا وبين نساء "الإخوان المسلمين"، ثمّ انتشرت نوادٍ ثقافيّة، مثل ندوة "ابن خلدون"، ونوادٍ رياضية مثل نادي "اليقظة"، وشاركت النّساء في النّشاط الانتخابيّ والحملات الانتخابيّة.

عشقتُ المطالعة بنَهَم منذ صغري. عندما فَقَدَ أبي بصره، كنتُ أقرأ له الجرائد كلّها والكُتُب. عمومًا، اهتمّت النّساء من الطَّبَقَتَيْن البرجوازيّة والمتوسّطة بتعليم بناتهنّ. دخلتُ الجامعة في دمشق عام ١٩٥٨-١٩٥٩، إذ لم تكن في سورية جامعة غير جامعة دمشق، وفرعان لها في حلب للهندسة. عشتُ في دمشق وحدي، على الرّغم من اعتراض أهل أمّي، إذ إنّ الأمر مخالف لعاداتهم وتقاليدهم، وغير شائع، إلّا أنّ أبي وقف إلى جانبي، وعشتُ مستقلّة.

بقيتُ في دمشق حتّى عام ١٩٦٤، شاركت في نشاط الطَّلَبَة السّياسيّ. انتقدْنا الدّيكتاتور عبد الحميد السّرّاج، وجمال عبد الناصر، وخرجْنا في تظاهرات ضدّهما. صرتُ ناشطة سياسيّة. أردْنا سورية ديموقراطيّة، وقد كانت مهيّأة لذلك. شاركتْنا نساء وفتيات من السّاحل ومن دمشق ومن البلدان العربيّة جميعها، من البحرين والأردن والسّعوديّة ... كان اتّجاهنا قوميًّا، وأطلقْنا على مجموعتنا اسم "الطّليعة الطّلّابيّة".

بقيتُ خارج "حماه" حتّى عام ١٩٦٧، فبعدما أنهيتُ الجامعة، عملتُ مديرة لمدرسة "الفارعة الشّيبانيّة" في "الحسكة". عرفتُ البنية السّكّانيّة لمنطقة الحسكة، وتنوّع المذاهب والأديان؛ من إيزيديّيْن، وسريان غربيّيْن وسريان شرقيّيْن وسريان يتماهون مع أقباط مصر، وأرمن وأشوريّيْن وكلدانيّيْن، ولكلّ فئة من هؤلاء كنيستها الخاصّة. كانت نسبة المسلمين فيها خمسين في المئة، ونسبة المسيحيّين خمسين في المئة كذلك،

من أرثوذكس وكاثوليك، إضافة إلى الأكراد. بعد ذلك، قرّرتُ أن أدرسَ في الجامعة اليسيوعيّة بلبنان، تابعتُ الماجيستر عام ١٩٦٥، كنتُ أُعلِّم وأسافر كلّ أسبوع إلى لبنان، ثمّ أعود إلى سورية.

تطوّرتْ ثقافتي في لبنان، وتعرّفتُ إلى طبيعة المجتمع اللّبنانيّ، التقيتُ بمجموعات قريبة من "موسى الصّدر"، وزرتُ مكاتب منظّمة التّحرير الفلسطينيّة. سكنتُ في مبنى يضمّ أحد مكاتبها. كنتُ أذهب إلى مكتبة الجامعة، وأقرأ. هناك تعرّفتُ إلى عرب كُثُر، بخاصّة فلسطينيّيْن. صادقتُ مجموعات كبيرة من اليساريّيْن والقوميّيْن من الطّائفة الشّيعيّة، علمًا أنّ ذِكْر الطّوائف لم يكن موجودًا حينذاك في القرى الشّيعيّة التي كنتُ أتردّد إليها.

درستُ على حساب الدّولة، وكان تعييني إلزاميًّا في المناطق جميعها، وهذا من حسن حظّي، لأفهم المجتمع السّوريّ أكثر. درّستُ في مدرسة مسيحيّة. وهناك عقدتُ حواراتٍ مع الأب أفرام شهرستان. سعيتُ إلى متابعة تعلُّمي الجامعيّ العالي في فرنسا بعد الماجيستر في لبنان، إلّا أن وزير التّربية السّوريّ آنذاك رفض إعطائي إذنًا بالسَّفَر. كان البعثيّون متقوقعين على أنفسهم، وينظرون إلى الغرب، بوصفه خصمًا وعدوًّا، فانتقلتُ إلى "مصياف"، وعرفتُ مُكوِّنًا إضافيًّا من المجتمع السّوريّ وتنوُّعه، قابلتُ شيوخًا "إسماعيليّيْن"، وكنتُ أقرأ بشكل دائم في مكتبة أحد مشايخهم. هكذا، كانت طبيعة المجتمع الغنيّ المتنوّع دِينيًّا وإثنيًّا وقوميًّا تُدهشني في كلّ مرّة. كنتُ مهتمّة بالسّياسة والعمل الدّيموقراطيّ. وكانت بداية السّتّينيّات من القرن الماضي فترة تحوّلات عنيفة. لذلك، عندما انتقلتُ للعمل مدرّسة في "دار المعلّمات الرّيفيّة" بمدينة "حماه"،

عملتُ لسنوات طويلة مع نساء الرّيف في التّعليم والتّنمية، ووجدتُ المجال الحيويّ المناسب لنَشْر الوعي السّياسيّ هناك.

مسألة التّواصل مع النّاس وعَقْد حوارات معهم بالنسبة إليّ فعل وطنيّ. كان أبي من ثوّار عام ١٩٢٥ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وهو الوحيد الذي عقد حوارات مع مشايخ العَلَويّيْن في عشرينيات القرن الماضي، كان يقول يجب ألّا تُفرِّقنا المذاهب الدِّينيّة، واستمرّت الحوارات لاحقًا بين مشايخ الطّوائف، وأنا فعلتُ مثل أبي، كنتُ أتواصل مع الجميع.

في عام ١٩٦١، كنّا سنعرض في الجامعة مسرحيّة لشكسبير باللّغة الإنكليزيّة، وكان من المقرّر أن يحضرها جمال عبد الناصر، فحضّرْنا أنفسنا للمناداة بإسقاطه، لكنّه لم يأتِ، فاعتصمْنا ضدّه وضدّ عبد الحميد السّرّاج في مطعم الجامعة القديمة القريبة من المُتحف. كانت جامعة دمشق مؤلّفة من ثلاث طبقات، الطّبقة العُلوية للآلات الموسيقيّة، ومخصّصة للنّشاطات الفنّيّة المتاحة للجميع. نظّمنا أُمسيّات شِعْرِيّة وأدبيّة وموسيقيّة. كانت الجامعة مركزًا لنشاطنا الثّقافيّ السّياسيّ، وكنّا من البعثيّيْن والشّيوعيّيْن و"الإخوان المسلمين". حينذاك، بدأتْ حركة "القُبيسيّات" في "حماه"، جمعتْ بدايةً قلّة قليلة من النّساء ينشطنَ بين الأُسر الإقطاعيّة. بعد قصف "حماه" ١٩٦٤ وهزيمة حزيران ١٩٦٧، ازداد وجودها. عندما عدتُ إلى "حماه"، حصل إشكال بيني وبين ناشطاتها، وتصادَمْنا، لأنّني كنتُ ضدّ الإقطاعيّيْن الذين تحالفوا معهنّ بعد نَزْع مكتسباتهم، فقد وجد الإقطاعيّون في الدِّين عودة لسلطتهم، لذلك كان التّحالف بين عموم الإقطاعيّيْن و"القُبيسيّات" واضحًا.

كان اسم شيخة "القُبيسيّات" اللواتي أخذ نشاطهنّ يتوسّع، "معزّز

العضم"، لكنّ سطوتهنّ لم تكن قوية حينذاك، إلّا أنّها تعاظمت بعد حوادث "حماه" التي غيّرتْها. تتلخّص هذه الحوادث بأنّ الحمويّيْن رأوا بعد استيلاء اللّجنة العسكريّة البعثيّة على السّلطة - كانت تُسمّى حكومة "عدس"، وتعني "عَلَويّ، درزيّ، إسماعيليّ" - إقصاء للضّبّاط السُّنّة. كان النّاس يريدون وحدة فيديراليّة مع مصر، لا وحدة اندماجيّة، فأيّد قسمٍ من الضّبّاط الوحدة مع مصر، مع تقييد الحُكم المطلق لجمال عبد الناصر، وإعطاء هامش حُرّيّة أكبر للسّوريّيْن في إدارة بلدهم. في تلك الفترة، تصادم هؤلاء مع الضّبّاط السُّنّة، وأعدموا مئَتَيْن منهم في تمّوز ١٩٦٣، بتهمة إنشاء علاقة مع عبد الناصر، والإعداد لانقلاب عسكريّ، ما جعل أهل "حماه" يظنّون بأنّ هناك مؤامرة على التّيّار الشّعبويّ الوحدويّ الذي يغلب عليه السُّنَّة. دارت حرب بين الضّبّاط السّوريّيْن على خلفيّة العلاقة مع جمال عبد الناصر، وكان عمّي حينذاك وزير اقتصاد، فاستقال. في ١٩٦٤، بدأ "الإخوان المسلمون" يجيّشون المدينة، ويقولون إنّ السّنّة مستهدفين، فتحالف "الإخوان المسلمون" والبعث القوميّ العراقيّ، وأعلنوا تمرّدًا مسلّحًا. أظنّ أنّ تديُّن المدينة بدأ من تلك اللّحظة. كان للبعث العراقي دور في هذا الأمر، حيث كان عامل العَسْكَرة موجودًا، إضافة إلى رواسب قديمة دِينيّة وطائفيّة. وحين حصل التّمرّد المسلّح، قصف البعثيّون المدينة عمومًا، والجوامع بشكل خاصّ، واعتقلوا النّساء، كنتُ حينذاك في دمشق. تحوّل قصف "حماه" جزءًا من العنف الذي ظهر لاحقًا في تشدّد المدينة، حيث ازداد ظهور "القُبيسيّات"، وتوسّع بشكل واضح في أواخر السّتّينيّات.

في أثناء ذلك، كنّا ركّزنا في مجموعتنا "الطّليعة الطّلّابيّة"، نضالنا في العاصمة على تأسيس "اتّحاد الطّلَبَة" عام ١٩٦٤. اجتمعتُ مع التّنظيمات

كلّها من دون أن أنتمي إلى أيّ حزب. بدأ عملنا في "الطّليعة الطّلّابيّة" منذ الوحدة والانفصال، ضدّ جمال عبد الناصر لاستبداده بالوحدة. وعملْنا على إعادة الوحدة المشروطة، ثمّ انبثق المؤتمر الأوّل لـ "اتّحاد الطَّلَبَة"، بعد تمرُّد "حماه" وقَصْفها. عمومًا، ظلّ البعثيّون حاقدين على المدينة، ومنذ ذلك الوقت، أهملوها. أذكر في أثناء إقامتي في دمشق، أنّني كنتُ عُرضة للتّمييز العنصريّ بشدّة، لأنّني من مدينة "حماه"، على الرّغم من نضالي مع البعثيّيْن، وإنْ سرًّا.

بعد هزيمة حزيران، أُصبتُ بانهيار تامّ، في أثناء دراستي الماجيستر في لبنان، فقرّرتُ أن أترك الأدب، وأتفرّغ للنّضال، وانضممتُ إلى حركة فتح النّاشطة في "حماه"، وبقيتُ معها من ١٩٦٨ ولغاية ١٩٧٤. صرتُ عضوًا في "المجلس الثّوريّ" في حركة "فتح"، وحضرتُ مؤتمرها الأوّل في دمشق، وعملتُ إعلاميًّا وإغاثيًّا، وألقيتُ محاضرات سياسيّة في المخيّمات الفلسطينيّة، ونفّذتُ ومَنْ معي مشاريع كثيرة، وامتدّ عملنا إلى الأردن. التحقتُ بالفلسطينيّيْن على خطّ الجبهة، كنتُ معهم في الخندق، لم أحمل السّلاح، لكنّني بقيتُ معهم، ثمّ ذهبتُ إلى عمّان، قمتُ بهذا بالتّنسيق مع جمعيّة المرأة العربيّة في "حماه" في أواخر السّتّينيّات في أثناء عهد صلاح جديد الذي غضَّ النّظر عن حركة المقاومة الفلسطينيّة. كان رجلًا أهمّ بكثير من حافظ الأسد، وأكثر توازُنًا. لم يكن لحافظ الأسد وجود، فقد سَطَعَ نجمه بعد عام ١٩٦٢ في شباط حين استلم وزارة الدّفاع. وكان وزيرًا للدّفاع في هزيمة حزيران. أظنّ أنّ خطأ صلاح جديد هو أنه ترك الجيش، وتفرّغ لتنظيم حزب البعث، لقد اعتقد أنّ حزب البعث يستطيع الوقوف في وجه العسكر.

أسّستُ في مدينة "حماه" مجموعات من معلّمات المدارس، وكنّا نعقد اجتماعات سياسيّة. حينذاك تعرّفتُ إلى الماركسيّة، من خلال "إلياس مرقص" الذي ربطتْني به علاقة صداقة قويّة، وكنتُ على معرفة جيّدة بياسين الحافظ الذي كتب المنطلقات النّظريّة لحزب البعث، ثمّ تخلّى عن نظريّة الحزب الواحد لاحقًا. معرفتي بالحافظ كانت من خلال تردّدي إلى مكتبة الحقيقة في بيروت التي أسّسها هو، حيث عشتُ في أجواء سياسيّة بحت، وقد مَدَّني إلياس مرقص وياسين الحافظ بعدد كبير من الكُتُب غيّرتْ طبيعة معرفتي السّياسيّة والثّقافيّة.

قبل انقلاب حافظ الأسد العسكريّ عام ١٩٧٠ بأشهر، أُجريَت انتخابات حُرّة لنقابة المعلّمين، في "دير الزّور" و"حماه"، ولم يتدخّل البعث حينذاك ولا الجيش. كان هناك مرشّحون ناصريّون واشتراكيّون ومستقلّون و"إخوان مسلمون"، فترشّحتُ مستقلّة، وفزتُ في الانتخابات. أردتُ أن أكون مؤثّرة في ما يخصّ التّعليم. آمنتُ بأنّه المفتاح الأوّل لتطوّر المجتمع، أردتُ فَصْلَهُ عن حزب البعث وعن الجيش. زرتُ المدارس بشكل دائم، وكانت لي شعبيّة كبيرة، لذلك فزتُ في الانتخابات، من دون منافسة. كانت الشّريحة التي استهدفتُها من أساتذة المدارس الابتدائيّة. كانت الانتخابات حينذاك شفّافة وديموقراطيّة، إلى درجة أنّ المرأة التي كانت تفرز الأصوات قرأتْها عَلَنًا. أُحصي عدد الأصوات أمام الجميع. خسر "الإخوان المسلمون" والبعثيّون، ولم يفزْ سوى المستقلّين.

بعد مجيء حافظ الأسد، حُوصرتُ تمامًا. كان موقفي ضدّ الانقلاب العسكريّ واضحًا، لأنّ مسألة الدّيموقراطيّة بقيتْ فاصلًا بيني وبينهم. عُرِضَ عليّ عام ١٩٦٥ أن أكون عضوًا في مجلس قيادة الثّورة، فرفضتُ،

لأنّني رأيتُ أنّ ما حصل في ١٩٦٣ انقلاب عسكريّ لا ثورة. اعتقلوا بعد هزيمة حزيران، السّياسيّيْن والنّاشطين الذين أصدروا بيان مطالب الوحدة الوطنيّة. فقد وجّهوا دعوة إلى الحكومة لتوحيد الاتّجاهات، وتشكيل حكومة وطنيّة جديدة، من أجل تحرير سورية، فاعتقلهم عبد الكريم الجندي، وكان منهم جمال الأتاسي وعمّي عبد الكريم زهور عدي الذي أرسل إليّ من سجنه تحذيرًا للكَفّ عن نشاطي، لأنّ عبد الكريم الجندي هدَّده بي. لقد فعلوا أسوأ ما يمكن.

كنتُ أنتقد في مقالاتي عبر جريدة "الفداء" طريقتهم بالتّعاطي مع الموضوع الفلسطينيّ. تبنّيتُ قراءة منفتحة للدِّين الإسلامي، وانتقدتُ التّخلّف الذي عشنا فيه. كنتُ ضدّ الصّيغة الشّكلانيّة للحرب الإعلاميّة الفارغة والتّجييش الذي يبثّ الكراهية المجّانيّة. حاولتُ إيجاد خطاب إعلاميّ جديد لما تطرحُهُ إسرائيل في معركتها مع الفلسطينيّيْن. كان هناك تفاعل كبير في أثناء المحاضرات التي أُلقيها عن مفهوم النّضال.

في عام ١٩٧٠، ألقيتُ محاضرة في المركز الثّقافيّ بـ "حماه" كانت بعنوان"كيف يفكّر العدوّ"، كان المقصود: الطّرح الإعلاميّ للعدوّ، والأهداف الحقيقيّة لسلوكه العمليّ، والفارق بينهما، وكيف يجب أن يكون ردُّنا عليه، وليس ضدّ الحرب لتحرير أرضنا. قلتُ إنّ النّخب المثقّفة لم تتشكّل لديها رؤية ناضجة للصّراع العربيّ - الإسرئيليّ، وهذا الكلام لم يُعجِب البعثيّيْن. كنتُ حينذاك أعيش في بيت أهلي، يزورني أصدقائي من الرّجال، وقد فرضتُ هذا على مجتمعي، وأمّي دعمتْني جدًّا.

كنتُ أعرف أنّ عمل المرأة في السّياسة لا يؤخَذ بجدّيّة من قِبَل الرّجال، فَعَدَدْتُ نفسي رجلاً، ونسيتُ أنّني امرأة. خفتُ المجتمع، وأردتُ التّأثير

فيه، لذلك كان عليّ نسيان أُنوثتي والاختباء خلف تلك القوّة التي يُظهِرها الرّجال. وهذا فعلتُهُ أيضًا ضمن عملي مع المقاومة الفلسطينيّة. لقد أنكرتُ تمامًا هويّتي الجنسيّة. وكنتُ متأكّدة من أنّه لم يكن ما أناضل لأجله، ليُؤخذَ على محمل الجدّ، لو لم أفعل ذلك.

تركتُ المقاومة الفلسطينيّة عام ١٩٧٤، بعد أن اختلفتُ مع أعضائها سياسيًّا وعقائديًّا.

بعد عام ١٩٧٤، عشتُ تحت حصار اجتماعيّ وسياسيّ، وكان هذا جديدًا على حياتي، وهو جزء من تغيير، بدأتْ ملامحه تظهر في المجتمع السّوريّ الذي كان يَهوي!

قبل ذلك، وفي عام ١٩٧٢، أُعلنَت المملكة المتّحدة بين الأردن وفلسطين، وكان هذا مشروع الملك حسين في الأردن، فقرّرتُ ومَنْ معي الخروج في تظاهرة ضدّ المشروع. ترك الطّلّاب صفوفَهم، وطرقوا أبواب الصّفوف الأخرى، وخرجت الفتيات، ومنهنّ رولا الرّكبي ابنة المناضل فيصل الرّكبي. رفعت الطّالبات شعارات مناهضة للمشروع. كنّا نريد من الحكومة السّورية أن تأخذ موقفًا ضدّ مشروع المملكة المتّحدة. وصلت الفتيات إلى ساحة "العاصي"، فطلب المحافظ تشكيل وفد من الفتيات لمعرفة مطالبهنّ. كانت هذه التّظاهرة الوحيدة التي خرجتْ في سورية ضدّ هذا المشروع، وكانت كلها من النّساء. كانت الفتيات فخورات بما فعلنَهُ، واجتمعنَ في بيتي بعد انتهاء التّظاهرة. كانت "حماه" مدينة مقاومة فعلاً، ومركزًا للنّضال الفلسطينيّ، حتّى إنّ حافظ الأسد عندما كان وزيرًا للدّفاع، أرسل برقيّة تهديد مُبطّنة إلى مسؤول "فتح" في "حماه"، ليخرجَ من المدينة. كان هذا قبل انقلابه العسكريّ. وبعد استلامه الحُكم.

نشطتُّ سياسيًّا مع مجموعَتَيْن: مجموعة طالبات ومجموعة معلّمات، فأرسل مدير التّربية، وأبلغني بأنّه تأمّنتْ لي وللمعلّمات إعارة "عمل تدريسيّ" في الكويت والإمارات، وأنّنا يجب أن نسافر. كانت فرصة جيّدة للمدرّسات للعمل بأجور عالية. كان اسمي في مجموعة المعلّمات النّاشطات على رأس القائمة التي أُريدَ إرسالها، فرفضتُ، وقلتُ لمدير التّربية له: لماذا تفعلون هذا؟ تريدون تفريغ البلد من قواها الدّيموقراطيّة؟

وافقت المعلّمات على العرض، وسافرنَ، وبقيتُ أنا. في الوقت نفسه، نُقِلتْ ثماني عشرة مديرة مدرسة ذوات انتماء اشتراكيّ تحرّريّ، من مواقع عملهنّ في "حماه"، وعُزلن من الإدارة، وحلّتْ بدلًا منهنّ "الشّيخات القُبيسيّات" اللواتي كنّ من تلاميذ "معزّز العضم". بدا واضحًا بالنّسبة إليّ تسلُّم الإسلاميّيْن "حماه"، وتفريغها من قواها الدّيموقراطيّة، لأنّ تغيير مديرات المدارس جاء بعد تظاهرة الفتيات. وعندما رفضتُ الذّهاب إلى الكويت، نُقلتُ من المدرسة، واتُّهمت بالتّأثير السّلبيّ في الفتيات. كانت أعمار طالباتي بين السّابعة عشرة سنة والاثنَتَيْن والعشرين في الثّانوية وفي دار المعلّمات، فأصدرت مديريّة تربية "حماه" قرارًا بنقلي إلى مدرسة إعداديّة في منطقة بعيدة من منزلي، تغلب عليها التّقاليد المتخلّفة.

ثبّتَ حافظ الأسد حُكمه بين ١٩٧٤ و١٩٧٥، وأطلق يد المتديّنين في المجتمع، وتراجع دورنا نحن التّقدميّيْن والدّيموقراطيّيْن.

تزوّجتُ عام ١٩٧٤. فَقَدْتُ أدوات نشاطي كلّها، أُحبطتُ، وشعرتُ بأنّني في نقطة الصّفر، وبأنّ نضالاتنا جميعها ذهبتْ أدراج الرّياح، فقد مُنعتُ حتّى من نشر مقالاتي في جريدة "الفداء" في "حماه"، مع أنّ

الموضوعات التي تناولتُها كانت عن مشاركة المرأة السّياسيّة في المدينة، وعن جمعيّات المرأة المتطوّرة في "حماه" في الخمسينيات والسّتّينيّات.

تركتُ "حماه" عام ١٩٧٨، بعد أن قُيّدتْ حركتنا، نحن الدّيمقراطيّيْن، من الجهات كلّها. أظنّ أنّ الأسد كان يدرك بذكائه أنّ الخطّ الدِّينيّ أقلّ خطرًا عليه من الخطّ الدّيموقراطيّ. لم يُصدِر قرارًا واضحًا بمَنْع نشاطي، بل توجيهًا أمنيًّا سرِّيًّا بالتّضييق عليّ ومَنْعي من مزاولته.

سافرتُ إلى الجزائر عام ١٩٧٨، وعدتُ إلى "حمص" عام ١٩٨٤. عملتُ مدرّسة هناك. حصلتْ مجزرة "حماه" في أثناء غيابي. وكانت السّبب الأهمّ في تنامي المَدّ الدِّينيّ أكثر فأكثر في المدينة، أنجبتُ طفلَيْن. وعندما عدتُ، درّستُ في دار المعلّمات، وعاودتُ نشاطي ثقافيًّا، وألقيتُ محاضرات متعدّدة في المراكز الثّقافية بمُدُن عدّة في مواضيع تربويّة وفكريّة وأخرى ترتبط بالجندر والقضية الفلسطينيّة.

في التّسعينيات، أصبحتُ عضوًا في المؤتمر القوميّ العربيّ، ثمّ المؤتمر القوميّ – الإسلاميّ، ومؤتمر الأحزاب والشّخصيّات القوميّة، وتابعتُ الحضور فيه، وتقديم المداخلات، حتّى عام ٢٠٠٨. كنتُ من الذين وقّعوا بيان "٩٩"، سنة ٢٠٠٠، وكانت من مطالبه: "إلغاء حالة الطوارئ والأحكام العُرفية المُطبّقة في سورية منذ ١٩٦٣، وإصدار عفو عامّ عن المعتقلين السياسيّيْن، ومعتقلي الرأي والضمير، والملاحقين لأسباب سياسية جميعهم، والسماح بعودة المشرّدين والمَنفيّيْن، إرساء دولة القانون، وإطلاق الحُرّيّات العامّة، والاعتراف بالتّعدّدية السياسية والفكرية، وحُرّيّة الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامّة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة المفروضة عليها، بما يسمح

للمواطنين التعبير عن مصالحهم المختلفة، في إطار توافق جماعي، وتنافس سِلْمي، وبناء مؤسّساتي، يتيح للجميع المشاركة في تطوير البلاد وازدهارها".

كنّا نظنّ أن هناك إصلاحات ستأتي فعلاً مع قدوم بشّار الأسد، فعقدْنا أنا وزوجي في بيتنا بـ "حمص"، منتدًى فكريًّا سياسيًّا، نجتمع فيه، ونتحاور، ونشطتُ مع لجان إحياء المجتمع المَدَنيّ، ومنها لجان الدّفاع عن قضايا المرأة حتّى قيام الثّورة عام٢٠١١، فاعتقل الأسدُ الابنُ النّاشطين، وصادر الحُرّيّات، ولم يسمح بأيّ نشاط سياسيّ. كان الانفتاح الاقتصاديّ الذي تحدّث عنه لتمرير صفقات استثماريّة لعائلته، وللمقرّبين منه.

عندما بدأت الثّورة، كنتُ في جاهزيّة كاملة لها. وعندما خرجتُ من سورية مُرغَمة، عرفتُ أنّني لن أعود. أنا الآن في نهاية عقدي السّابع، وما زلتُ أكتب المقالات السّياسيّة في مواقع إلكترونيّة عدّة، أعيش لاجئة في فرنسا، وما زلتُ أحلم في سورية ديموقراطيّة، ربّما تتحقّق مع الأجيال المقبلة.

الرّاوية السّابعة عشرة

أنا زينة أرحيم. عمري اثنتان وثلاثون سنة. عندما بدأت الثّورة، كنتُ في لندن، أتابع دراستي، شعرتُ بغبطة عارمة عندما خرجتْ تظاهرة "الحريقة" في دمشق، كنتُ أحلم بسورية ديموقراطيّة، حُقِّق معي مرّات عدّة في فروع الأمن، بسبب عملي الصّحافيّ قبل الثّورة، لأنّني كتبتُ مقالات عن التّربية التي نتلقّاها منذ صغرنا، وعن الخوف، حيث تتحوّل الرّقابة في مجتمعاتنا جزءًا من تكويننا النّفسيّ.

كنتُ ناشطة على النّت، وأساعد النّاشطين بشكل فرديّ، وأسّستُ المكتب الإعلاميّ في لجان التّنسيق المحلّيّة مع رزان زيتونة، وامرأة ثالثة. كنّا نعمل لستّ عشرة ساعة على النّت يوميًّا، نأخذ الأخبار من الشّباب الثّائرين، ونعيد صوغها وترجمتها، وأُرسل أنا الأخبار إلى أنحاء العالم جميعها. استخدمتُ اسمًا وَهْميًّا، وكان هذا في بداية الشّهر الرابع من ٢٠١١. في الشّهر الثّامن من العام نفسه، قرّرتُ العودة إلى دمشق، وعشتُ تلك الأيّام السّعيدة في بداية الثّورة، حتّى إنّني كنتُ أبكي في التّظاهرات، ولم أكن أُصدِّق أنّنا كنّا نهتف: "إسلام ومسيحيّة كلنا بدنا حرّيّة".

توجّهتُ إلى "حلب" و"إدلب" بعد دمشق في صيف ٢٠١١، وشاركتُ في التّظاهرات ضدّ نظام الأسد، لم أشهد حينذاك إطلاق رصاص. في

"إدلب"، كنتُ أضع النّقاب، لأنّني من المدينة نفسها، ويعرفني الجميع وأقربائي من "الشّبيحة". كانت النّساء يخرجنَ للتّظاهر، ويضعنَ جميعهنّ النّقاب أيضًا.

ذهبتُ إلى حَيّ "صلاح الدِّين" في "حلب"، وإلى ريف "إدلب"، ورأيتُ للمرّة الأولى السّيّارات تحترق، ثمّ قرّرتُ البقاء في ريف "إدلب"، حيث وُلدتُ، وحيث أنتمي، وحيث يجب أن أقاوم. أردتُ فقط العيش هناك، وعشتُ عند عائلة شهيد من "معرّة مصرين"، وشاركتُ في التّظاهرات، واشتغلتُ في التّصوير، وفي مساعدة الشّباب الإعلاميّيْن في الثّورة، وفي إعداد التّقارير الإعلاميّة، وبدأتُ أُصوِّر وأُجري الحوارات مع قادة "الجيش الحُرّ"، و"أحرار الشّام".

كتبتُ تقريرًا عن "كتائب" وميليشيات مختلفة من النّظام والثّورة، وكان هذا في عام ٢٠١٢، وقد تعرّضتُ لهجوم من جماعة الثّورة التي اتّهمتْني بالعمالة والخيانة، لأنّني التقيتُ بأطراف عدّة. لم أفهم سبب تخويني وأنا منهم. لقد نقلتُ الحقيقة فعلاً، وصوّرتُهم كما هم في حقيقتهم. هذا يعني أنّ مُجرّد فكرة الحوار مع أيّ طرف خارج إطار الثّورة ممنوع! صدمني هذا الواقع! اضطُررتُ للخروج إلى تركيا مؤقّتًا، لأنّ حياتي صارت في خطر، ثمّ قرّرتُ عدم الاستسلام، وشرح موقفي لـ "الكتائب" المعارضة، فتحدّثتُ مع أحد قادة "الجيش الحُرّ"، أردتُ مواجهة الأمر، على الرّغم من الخطر، وأن أحلّ الأمر حتّى أستطيع البقاء في بلدي. رغبتُ في معرفة مَنْ أهدر دمي، فإن تركتُ الأمر معلّقًا، وخفتُ، فلن أعود أبدًا. وذهبتُ إلى "كتائب الجيش الحُرّ"، وقرّرتُ المواجهة. توجّهتُ إلى "بنّش"(*) حيث اتُّهمت

*) بنّش: مدينة تابعة لمحافظة إدلب، تبعد منها حَواليَ سبعة كيلومترات.

بالخيانة، والتقيتُ بأعضاء تنسيقيّتها، وطلبتُ الاجتماع بالإعلاميّين، وعرضتُ تقريري ووجهة نظري، فأنا لم أرتكب أيّ خطإ! أتيتُ بالذين أجريتُ معهم المقابلات، وقالوا إنّهم وافقوا على إعطاء المعلومات، وهذا ليس خطئي، وبعد مفاوضات عدّة معهم، سمحوا لي بالبقاء.

في عام ٢٠١٢، حصل أمر مؤلم، سبّب لي حزنًا شديدًا، فقد كانت لقريتَي "الفُوعة" و"كفريّا" وسط ريف "إدلب"، مصالح وتداخل اجتماعيّ مع أهالي القرى المجاورة. كانتا قريتَيْن شيعيَّتَيْن وبقيّة القرى من السُّنّة. "أنا بحُكم المولد من عائلة سُنّيّة"، وكنتُ أعرف أحد أهالي "الفُوعة"، وكان شيعيًّا مع الثّورة، وشارك في التّظاهرات مع أهل "بنّش"، رفضتْ جماعات في الثّورة مساعدته، عندما اضطرّ للخروج من سورية، لأنّه شيعيّ. كان مُلاحَقًا من الأطراف جميعها! رأيتُ حجم الخراب الطّائفيّ، وأردتُ أن أشتغل على العلاقة بين الطَّرَفَيْن لمَدِّ روابط إنسانيّة، صمّمتُ على القيام بهذا الأمر، رأيتُ أنّه مهمّ جدًّا، وهو جزء من تصوُّري عن سورية التي حلمتُ بها، وجزء من قناعتي بالعمل على مستقبل السّلام في بلدي. صوّرتُ في "الفُوعة"، وصوّرتُ في "بنّش"، وكانت هناك قضايا خَطْف كثيرة بين الطَّرَفَيْن. كانت نساء "الفُوعة" يعبرنَ الحواجز التّرابيّة بينما كان الرّجال ممنوعين، بقي هذا الأمر حتّى عام ٢٠١٣، ثمّ انقطع الاتّصال نهائيًّا، ولم يعد أحد يخرج من "الفُوعة". كنتُ هناك في المكانَيْن، أُصوّر كلّ ما يحصل. اتّصلتُ بقائد ميليشيات في "الفُوعة" من جماعة النّظام، وقلتُ له إنّني أعدّ تقريرًا تلفزيونيًّا، وإنّني أريد تصوير معاناة النّاس، أردتُ فقط تصوير الجانب الإنسانيّ لمآسي النّاس العاديّيْن، فسمح لي. طبعًا، هذا كان مرفوضًا في الثّورة، ولكنّني فعلتُ ما رأيتُهُ صحيحًا وإنسانيًّا. دخلتُ "الفُوعة" مع الفريق الصّحافيّ، رأيتُ مجموعات مختلفة من الميليشيات

التّابعة للنّظام. إحدى هذه الميليشيات اتّهمت القائد الذي سمح لنا بالدّخول بالعَمَالة، وأطلقت النّار علينا، واتّهمونا بأنّنا عملاء، وبقينا لأربع وعشرين ساعة نتفاوض معهم، لأنهم أرادوا اعتقالنا. فطلب القائد "أبو عبدو" الذي سمح بدخولنا، إخراجنا فورًا. قال إنّني بنت البلد، ومن ريف "إدلب"، وإنّني سوريّة، وتجب حمايتي. الميليشياويّ الذي أراد اعتقالي من ميليشيات الحزب "السّوريّ القوميّ". كان القرار أن تأتي مروحيّة من الشّام تأخذ الفريق، أمّا أنا، فالقائد "أبوعبدو" سيُوصِلني إلى الحاجز الذي يفصل "الفُوعة" عن بقيّة القرى، لأذهب في الصّباح، كانت "الفُوعة" و"كفريّا" مفصولتَيْن عن ريف "إدلب".

أتى رجل في اللّيل، وأخبرنا بأنّ الميليشيات الأخرى أمام البيت، وتريد قَتْلي، نظرتُ من النّافذة، ورأيتُ فعلًا أنّ البيت مُحاصَر بالعساكر، لم أكن أملك أيّ خيار سوى الهروب. خرجْنا من الباب الخلفيّ، وتنقّلْنا ليلًا من بيت إلى بيت هاربين. في الصّباح، خرجتُ بسيّارة مع قائد آخر، هو "أبو عليّ"، ليُوصِلَني إلى الحاجز، قال إنّ الزّعران المسلّحين سيُطلقون علينا النّار، وكان يقصد الثّوّار. كنتُ في موقف حرج، وتائهة في ألم الانقسام السّوريّ الحاصل، كان أهل قريتَي "الفُوعة" و"كفريّا" قبل فترة وجيزة مُجرّد سوريّيْن وجيراننا! "أبو عبدو" و"أبو عليّ" أنقذا حياتي وهما شيعيّان ومع النّظام، ومن المفترَض أنّهما عدوّان! فشلْنا في الخروج، وبقيتُ ليوم آخر في "الفُوعة"، ثمّ خرجتُ صباح اليوم التّالي. المفارقة أنّني عندما رويتُ لصديقي الحادثة وتفاصيلها، أخبرني بأنّه كان يرابط على تلك الجبهة التي كان يقصدها "أبوعليّ" عندما وصف مَنْ عليها بالزّعران، وأنّه كان ممكنًا أن يقتلَني في سيّارته، لأنّهم كانوا يريدون رمي قنبلة على سيّارة "أبو عليّ"، لكنّ الكهرباء كانت

مقطوعة في "بنّش"، وقد رأى سيّارتنا فعلاً، ولم يرمِ القنبلة. حينذاك، اتّهمتْني جماعة الثّورة أيضًا بأنّني عميلة للنّظام.

بقيتُ أشتغل في المناطق التي خرج منها النّظام من غير حجاب، أنا وغيري كثيرات، وعملْنا في أنواع الإغاثة وورشات تدريب مسرح وإعلام حتّى نهاية ٢٠١٣، ثمّ تحجّبتُ، حيث بات ممنوعًا خروج المرأة سافرة. وفي ٢٠١٥ ارتديتُ الجلباب. وفي عام ٢٠١٦، خرجتُ نهائيًّا من سورية.

لقد عملتُ حتّى ٢٠١٦، على مشاريع تساعد النّاشطين المَدَنيّيْن مع "معهد صحافة الحرب والسّلام"(*)، كان دوري مساعدة النّاشطين الإعلاميّيْن في مشاريع إعلاميّة، كان الجهد الذي أقوم به يشمل المؤسّسات والشّبكات، وكانت التّجمّعات المَدَنيّة موجودة، وساعدتُ المجالس المحلّيّة عبر مكاتبها الإعلاميّة، وعندما ظهرتْ "جبهة النّصرة"، وصار النّاشطون المَدَنيّون في خطر، ساعدناهم. لهذا، ذهبتُ إلى "الرّقّة" عام ٢٠١٣ لسَبْر حال النّاشطين الذين يجب دَعْمهم في عملهم الميدانيّ. حينذاك، خرجتُ سافرة أمام عناصر "داعش" في الرّقّة، رأيتُ الكنيسة التي هدمُوها، في الفترة نفسها التي خطفوا فيها الأب "باولو"(**)، فهربتُ من الرّقّة، ولم أعد إليها منذ ذلك اليوم.

ذهبتُ في ٢٠١٣، لأعملَ في مدينة "حلب"، على تدريب الشّباب

---

*) أُنشئ معهد صحافة الحرب والسّلام عام ١٩٩٣، وهو يُعنى كما ورد في موقعه على الإنترنت بـ "إعداد التقارير وبناء المؤسّسات. وهذا يتضمّن إنشاء وسائل إعلام محلّيّة مستقلّة، وتدريب مراسلين محلّيّيْن ومحرّرين ومنتجين، على مهارات أساسيّة مختصّة، إضافة إلى دَعْم كتابة تقارير مُعمّقة وشاملة حول حقوق الإنسان.

**) باولو داليلو: ناشط سلام وكاهن يسوعيّ إيطاليّ الأصل، عاش في سورية لمدّة ثلاثة عقود في دَيْر مار موسى، وأعاد ترميمه، كان له دور مُهمّ في الثّورة السّوريّة، وكان ينتقد نظام بشار الأسد بشدّة، اختطفَهُ داعش عام ٢٠١٣ من مدينة الرّقّة.

على كتابة التّقارير الإعلاميّة، واكتشفتُ أنّه لا توجد إعلاميّات، فبحثتُ عن نساء لإشراكهنّ في العمل. الاختلاط كان ممنوعًا بشكل عامّ بين الرّجال والنّساء. أنا بنت مجتمع محافظ، ولم يكن هذا غريبًا بالنّسبة إليّ، لكنّه صار قانونًا صارمًا بين "الكتائب". ثمّ توجّهتُ إلى ريف "إدلب"، ودرّبتُ في أحد المراكز النّسائيّة، وبحثتُ أيضًا عن الفتيات اللواتي يرغبنَ في الكتابة. كانت لدينا اثنتان من النّساء في الدّاخل السّوريّ تكتبان معنا، وتعيشان من عملهنّ في الكتابة، والآن هناك سبع نساء يكتبنَ معنا من الرّيف. إحداهنّ في منتصف العشرينيات، ولها خمسة أولاد، وتكتب باسم مستعار عن زيادة العنف الأسريّ في مجتمع ما بعد الحرب. النّساء في المناطق جميعها لا يكتبنَ بأسمائهنّ الحقيقيّة، وأزواجهنّ راضون، لأنّ ذلك يتمّ بشكل سرّيّ، ولأنّهنّ يُؤمّنّ المال والمصروف للبيت.

نشطتُ في ريف "إدلب" حتّى عام ٢٠١٤، عندما بدأ "داعش" الاشتباك مع "الفصائل" الأخرى، فتركتُ الرّيف، وانتقلتُ إلى "حلب"، وبقيتُ فيها. كنتُ أذهب إلى ريف "إدلب" في جولات فقط.

أسّستُ في "حلب" مركز "مساحتي"، وكانت الفكرة إنشاء مركز إنترنت وكمبيوتر ودورات في اللُّغَتَيْن الإنكليزيّة والفرنسيّة للنّساء، لأنّه غير متوافر لهنّ، وغير مسموح لهنّ بالاختلاط بالرّجال. دخل النّظام المنطقة، فأغلقْنا المركز.

ظللتُ أعمل على ذلك حتّى حملتُ بطفلتي، وأصبحتُ في الشّهر الثّالث وأنا أسافر كثيرًا، فقرّرتُ أن ألدَ ابنتي خارج سورية، ثمّ أعود إلى "حلب"، حيث بقي زوجي. لكنّ "جبهة النّصرة" اتّهمتْني بالخيانة والعَمَالة، وقرّرتْ قتلي.

لقد صنعتُ حياتي بصعوبة، درّستُ الإعلام والتّرجمة، وحصلتُ بصعوبة على منحة لإتمام الماجيستر في لندن، وأنشأتُ مدوّنة خاصّة، أكتب فيها مقالاتي. لقد أردتُ أن أصنع شيئًا مختلفًا، وأن أحتفظ بإنسانيّتي، أنا ضدّ نظام الأسد، لكنّني أرى أن جنود النّظام القتلى ضحايا أيضًا، ولم أؤيّد الخطاب الطّائفيّ العنيف المضادّ من قِبَل جماعة الثّورة.

حاولتُ توثيق تجربة النّساء عبر خمسة أفلام قصيرة، هنّ نساء ثائرات على جبهات عدّة، ضدّ النّظام وضدّ المجتمع والدِّين والعادات و"الكتائب المسلّحة" المعارضة المتطرّفة و"داعش".

الآن، أشعر بأنّني مخدَّرة. لا أفرح ولا أحزن، ولم أعد أشعر بالحُبّ تجاه أيّ شيء، أربّي ابنتي كواجب، وشعور بالمسؤوليّة. أشعر بأنّني مُتعَبة من الهزائم جميعها في الثّورة، والعنف كلّه الذي تعرّضْنا له والمجازر التي قام بها الأسد! أشعر بأنّني لم أبدأ حزني بعد على خساراتنا التي ذهبتْ إلى العَدَم. لقد ظَلَمْنَا النّاسَ، وخرجْنا إلى الشّارع نتظاهر، أشعر بأنّني ساهمتُ في الخراب، أعرف أنّني لستُ مسؤولة عن هذا، ولكنّني أحمّل نفسي المسؤوليّة.

صادرت "الكتائب الإسلاميّة" حُرّيّاتنا. في عام ٢٠١٢، رفعتُ لافتة في "كفرنبّل" مكتوبًا عليها "الحُرّيّة لصديقي أكثم أبو الحسن، وصديقي محمّد نور من سجون الدّولة الإسلاميّة"، هما ناشطان مَدنيّان مُختطَفان من قِبَل "داعش"، فأخذ "أحرار الشّام" جواز سَفَري في أثناء عبوري من باب الهوى، وقال لي أحد رجال الحاجز: "حلوة اللّافتة التي رفعتها"، كان تهديدًا شبه مُبطّن. كنتُ سافرة، وقلتُ له: هل تريد أن نقاتل عنكَ؟ كان غاضبًا لأنّني أسافر بلا حجاب وبلا محرم، وكنتُ أخترع أقرباء ومحارم

في كلّ مكان، لأنّه لم يكن مسموحًا للنّساء السّفر وحدهنّ. شعرتُ بهول الكارثة التي وجدنا أنفسنا فيها. المحزن في الأمر، غير الخذلان الدّوليّ والانقسام المجتمعيّ والدِّينيّ ودمار البلد وبقاء الأسد، هو الحقد والكراهية والعداوات التي نشأت بين النّاس. العداء الذي نشأ من أتفه الأمور. كان هذا العداء والكراهية بين النّاس أكبر خذلان لي. نشأتْ أنواع جديدة من العنف والقَمْع والطّبقات المستغِلّة الجديدة. راجعتُ نفسي كثيرًا، كنّا ضدّ نظام متوحّش، فوجدنا أنفسنا أمام ديكتاتوريّات دِينيّة عنفيّة. راقب الإسلاميّون والهيئة الشّرعيّة التي استحدثوها في المناطق التي أخذوها، أدقّ كلماتنا. حرمونا التّنفّس، وقمعونا كثيرًا. الأسد قَمَعَنا سياسيًّا، وهم قَمَعُونا اجتماعيًّا وسياسيًّا. القَمْع عند الإسلاميّيْن أكثر عنفًا علينا نحن النّساء. مرّة، رفعتُ لافتة، كتبتُ عليها عبارة أعلن فيها تضامني مع ضحايا جريدة "شارلي إيبدو" في باريس، فكُفّرتُ، لأنّني تعاطفت مع الضّحايا الفرنسيّيْن، وخضعتُ لتحقيقات أمنيّة من قِبَل "الحسبة الشّرعيّة" التّابعة لـ "الكتائب"، وتنقّلتُ بين أفرع أمنيّة إسلاميّة عدّة تابعة لـ "الفصائل". حُقّق مع زوجي، على الرّغم من أنّي لبستُ الخمار، وكنتُ حينذاك أقوم بتدريب البنات على الإعلام، فوقفتْ حتّى النّساء ضدّي، لأنّني رفعتُ اللّافتة، قالتْ لي إحداهنّ: إلّا رسول الله، لن أتعامل معكِ بعد الآن. أخبرتْني بأنّها رأتْ صورتي وأنا أدافع فيها عن الذين أساؤوا للإسلام، ثمّ قاطعتْني بحدّة. فقدّمتُ شهادتي في المحكمة الخاصّة بـ "الهيئة الشّرعيّة"، مبرّرة أنّني فعلتُ هذا ورفعت اللّافتة لأجلب انتباه العالم إلينا. كنتُ أريد أن ينتهي التّحقيق مع زوجي بأيّ ثمن، ولا أريد أن أُطرَد من قِبَل الإسلاميّيْن من بلدي، وأتوقّف عن شغلي ونشاطي، وهذا كلّه فقط من أجل تعاطفي مع ضحايا "شارلي إيبدو"!

خرجتُ من سورية رغمًا عنّي، وأعيش الآن في تركيا. لقد هُزمْنا. ومطالبنا بالحُرّيّة والكرامة انتهتْ إلى العبوديّة والذّلّ. أنا فقط أتابع أخبار أصدقائي. أريدهم أن يخرجوا أحياء من مناطق القصف والحصار، أتخيّل أن النّهاية ستكون نهايتنا كلّنا. انتهى حُلمنا. وسقط كلّ شيء.

الرّاوية الثّامنة عشرة

أنا فاطمة. عمري سبع وعشرون سنة، من مدينة "القنيطرة"، كنتُ طالبة صيدلة في السّنة الرّابعة. لم أكن أعرف بداية سبب انطلاق الثّورة، ولماذا انتفض النّاس. فلم يكن يُسمَح لنا بمعرفة أيّ شيء يتعلّق بالسّياسة، كان ممنوعًا علينا التّطرّق إلى القضايا السّياسيّة مُذ كنّا أطفالًا. خاف أهلي كثيرًا عندما خرجت التّظاهرات. التزموا الصّمت، وطلبوا ألّا نتحدّث عن الثّورة!

كانت جامعتي في دمشق. صرتُ أسمع عن اختفاء أصدقائي في المعتقلات، لأنّهم شاركوا في تظاهرات ضدّ الأسد. كنتُ أتحدّث مع أصدقائي في الجامعة، بخاصّة الذين من "درعا"، حول حقيقة ما يحصل. وفي شهرَيْ آب وأيلول من عام ٢٠١٢، شاركتُ في تظاهرات بلدتي من دون علم أهلي، وكنتُ البنت الوحيدة التي تُصوِّر التّظاهرات، وتشارك فيها. كنتُ أختبئ من رجال الأمن عندما يهجمون على الشّباب، ويعتقلونهم، كانوا بين الثمانية عشرة سنة والتّاسعة عشرة، ويرفعون عَلَم الثّورة، ويهتفون:"سورية لنا وما هي لبيت الأسد". خرجتْ تظاهرة من الجامع، فدخل رجال الأمن، وضربوا الإمام. وفي تظاهرة أخرى، ضربوا المتظاهرين، واعتقلوهم. قلّة من النّساء شاركت في التّظاهرة الثّانية.

لم أتوقّع أن تشهد بلدتي الصّغيرة تظاهرات، لأنّ قبضة الأمن قويّة فيها.

لم أشارك في التّظاهرات التي انطلقتْ من جامعتي في دمشق التي ضُرب واعتُقل فيها كُثُرٌ من المتظاهرين، كنتُ أُراقِب فقط. رأيتُ أنّ هناك ظُلمًا كبيرًا يقع، ولا أستطيع السّكوت عنه. فبدأتُ أطبع المناشير، وأُوزِّعها مع أحد الأصدقاء. كنتُ أعمل في صيدليّة، وأدرس في الوقت نفسه، وأتواصل مع المكاتب الإعلاميّة عبر "السّكايب"، وأجمع التّبرّعات من أجل النّازحين الآتين من "الحجر الأسود" و"حمص"، ومنطقة "نهر عيشة" في دمشق. حاولتُ مع بعض الأصدقاء إنشاء جمعية خيريّة، من أجل شراء الأدوية والألبسة.

في عام ٢٠١٢، في فترة الامتحانات، اتّصل فرع الأمن بأهلي، وطلب أن أراجعه، فَلَبَّيْتُ فورًا. اتّهموني بأنّني على تواصل مع "الجيش الحُرّ"، وكان هذا اختلاقًا، لأنّني لم أعمل مع العسكر. اعتُقلتُ ليومَيْن، فحُقِّق معي، وأُطلق سراحي.

بدأتْ تنتشر أخبار أنّني مع الإرهابيّيْن، فسخرتُ ممّا سمعتُ، ولم أكترثْ له. استمررتُ في نشاطي نفسه بتأمين الأدوية ومساعدة الجرحى. كانت الحاجة دائمة إلى إبر "الأنسولين"، بخاصّة في المناطق المحاصَرة مثل "داريّا".

تابعتُ العمل لساعات طويلة في الصّيدليّة. لم أستطع ترك النّاس يموتون من دون تقديم المساعدة. حدث مرّة أن دخل عسكريّ جريح من الجيش النّظاميّ، وكان لا يملك ثمن الدّواء، وكانت معي زميلة تعمل في الصّيدليّة موالية للأسد، رفضتْ إعطاءَه الدّواء، لكنّني فعلتُ رغمًا عنها، فحصلتْ بيننا مشكلة حول الأمر. قمتُ بواجبي الإنسانيّ، وكان كُثُرٌ من جنود نظام الأسد يأتون إلينا، فأُضمّد جراحهم، وأساعدهم، كانوا فقراء، ولم أتوقّف عن مساعدتهم يومًا.

دهم رجال الأمن بيتنا لاعتقالي، هم جميعًا يعرفونني. فقد عالجتُهم مرّات عدّة، وكانوا بداية لطفاء، ولم يُصدِّقوا أنّني مطلوبة منهم. أخفيتُ شريحة تلفوني. أصرّ أبي على أن يأتي معي، لكنّهم رفضوا، كان يحلم في مستقبل علميّ كبير لي. أخذوني إلى فرع الأمن الذي فجّرتْهُ "جبهة النّصرة" قبل اعتقالي. عندما دخلتُ، كانت الممرّات مزدحمة بمعتقلين تحت التّعذيب. شباب ثيابهم ممزّقة، وأجسادهم زرق، وعيونهم مطمّشة. استلمَني رجل ضخم جدًّا، وصرخ بالعناصر، لأنّهم جعلوني أرى الشّباب. طمّشوني، واتّهموني بأنّني مع الإرهابيّيْن، ثمّ أخذوني إلى الضّابط المحقّق، فضربني بعنف، وشتمني. شعرتُ برجال عدّة حولي، ضربوني جميعًا، وسألوني عن أشياء، لا أعرفها، وعندما أخبرتُهم بأنّني لا أعرف، ضربوني بوحشيّة أكبر، ثمّ نادوا محقّقًا، وأنا مقيّدة بالحديد، ضربَني بطريقة فيها حقد وتشفٍّ، شعرتُ بأنّه يريد قَتْلي.

كان المحقّق الآخر يقول لي: أنا لستُ وحشًا، وكان يردّد الكلام نفسه عن علاقتي بالإرهابيّيْن، فأجيبه بأنّ لا علاقة لي بكلّ ما يقولونه. هو من مدينة "حمص"، وكان فعلاً ألطف من البقيّة. قال لي: أنا أؤمن بالله مثلكِ، وأنتم تريدون قَتْلنا نحن العَلَويّيْن. لماذا؟ أخبريني؟ قلتُ له: أنا لا أُفرِّق بين السّوريّيْن، ولا أهتمّ بالدِّين وطائفة الإنسان. أخبرتُهُ بأنّني ساعدتُ الجميع، وأنّ انتمائي هو لسورية، ولا أفهم ما يقوله عن العَلَويّ والشّيعيّ والسُّنيّ. تركني، ولم يُعذّبني. أجبرني العناصر على النّوم في الممرّ على مقعد دراسة. غطّوني ببطّانيّة، وأخفوني، ومنعوا ظهور شَعْرة من رأسي، وكنتُ على وشك الاختناق، لأنّني أصبحتُ مثل قطّة مربوطة في كيس. كانت البطّانيّة قذرة، وحولي شباب عُراة في الممرّ. لم أنم أبدًا، وخفتُ حتّى من تحريك رأسي، لأنّهم قالوا إنّني يجب أن أبدو ميتة، ولم أفهم طلبهم هذا!

طلع الصّباح، وجسدي لم يتوقّف عن الارتجاف، ولم أستطع السّيطرة على أسناني التي تصطكّ بشدّة، وسمع الجميع صوت اصطكاكها. وبقيتُ ليومَيْن على هذه الحال الهستيريّة، هدّدوني بأنّهم سيجعلونني أقف عارية في ممرّ الشّباب العُراة، إذا لم آكل، فأكلتُ فورًا وهم يضربونني بوحشية. وقفتُ ليومَيْن أمام حائط، من دون حركة، وفي أثناء مرورهم المتواصل، لم يتوقّفوا عن ركلي وضربي.

استخدموا في تعذيبي الكرسيّ الألمانيّ، وهو طريقة تعذيب، عبارة عن كرسيّ حديد، وضعوني فيه على بطني، ثمّ أدخلوا كتفيّ وظهري، حتّى تقوّس. صرختُ بقوّة من الألم الرّهيب. كان محقّق من "درعا" يضع رجلَه على ظهري، وعندما كان يضع رجله على يديّ ينغرز قيد الحديد في لحمي، كان الألم لا يُحتمَل! استمرّوا في تعذيبي ليومَيْن. التّعذيب النّفسيّ كانوا يقومون به في فترات الاستراحة، وكان سجني لا يزال الممرّ داخل البطّانيّة بين الشّباب العُراة.

قلتُ لهم إنّني مُجرّد صيدلانيّة، ساعدتُ الجميع بمَنْ فيهم جنود النّظام، وإنّ هذا كان واجبي الإنسانيّ.

كانت جلسات التّعذيب بالكهرباء، على رجليَّ بداية، وكان حلقي ينشف نتيجة صدمات الكهرباء، فيسقونني ماء، ثمّ يعاودون التّعذيب. لاحقًا، ونتيجة التّعذيب، تمزّق عندي الغضروف في ركبتي، وصارت حركتي صعبة، ولا أستطيع تحريك رجلي جيّدًا الآن، نتيجة التهاب في المفاصل، بسبب الرّطوبة والبرد في المعتقل. استمرّوا في تعذيبي، ولم أعد أبدي أيّ ردّ فعل، توقّفتُ عن البكاء والصراخ، كنتُ لا شيء، ومحطّمة ومذهولة من الاتّهامات الموجَّهة إليّ.

آخر مرّة ضربوني فيها كانت عندما طلبوا مني إسعاف شابّ، عذّبوه بوحشيّة، ثمّ رموه في الباحة، وأُصيبوا بهياج، لأنّ أحدهم صرخ أنّ الشّابّ مات، فطلبوا منّي إسعافه، كان الدّم يخرج من جسده كلّه، والجروح في جسمه مفتوحة وعميقة، ولحمه مفتّتًا. كان يلهث، لأنّه يحتضر. كان ضغطه منخفضًا، فطلبتُ الملح، خفتُ أن يموت بين يَدَي، وتضرّجتُ بالدّماء منه. أتوا له بالحلويات والطّعام والملح، أرادوا أن يأخذوا المعلومات منه قبل موته! أمسكني ضابط من رقبتي، وحاول خنقي، لأنّني تحرّكت من مكاني، وأسعفتُ الشّابّ، قلتُ له إنّ هذا أمر الضّابط الآخر، فتركني.

في اليوم التّالي، فعل الضّابط الشّيء نفسه، أمسكني من رقبتي، ورفعني إلى الحائط، كدتُ أختنق، وقال إنّهم حموني من التّحرّش الجنسيّ، وقال إنّني مثقّفة ومتعلّمة، ويجب أن أكون ضدّ هذه الفوضى في البلد، ثمّ حوّلني إلى المحكمة، كنتُ مطمّشة أيضًا، ولم أعرف حقيقة الأشياء من حولي.

كانت وحشيّة المحقّقين متفاوتة. السّجّانون تعاطفوا معي، وكانوا أقلّ وحشيّة من المحقّقين الذين كانوا يُمرّرون الولّاعات فوق أجساد الشّباب العارية، وكنتُ أسمع صراخهم.

نقلوني في بداية الشّهر السادس عام ٢٠١٣، إلى فرع "فلسطين" في دمشق، وبقيتُ هناك حتّى العاشر من آذار ٢١٠٤، رموني في غرفة صغيرة أربعة في أربعة أمتار، مع اثنَتَي عشرة فتاة. كانت أعداد المعتقلات تتزايد باستمرار، وعندما خرجتُ، كان عددهنّ سبعًا وعشرين. أصابتْني هستيريا. كنت أُسأل بلا توقّف عن الكرسيّ الألمانيّ، ولا أستطيع التّوقّف عن الكلام، فَقَدْتُ السّيطرة على نفسي. منذ تعذيبي بالكرسيّ الألمانيّ، فَقَدْتُ طمأنينتي. لا أشعر بالطّمأنينة لغاية الآن، ولن أستطيعَ حتّى أموت.

بكيتُ للمرّة الأولى بحرقة منذ بداية اعتقالي عندما غنّتْ إحدى السّجينات بصوت شجيّ وحزين. أكثر ما كان يؤلمني أنّهم وجّهوا إليّ تهمة الإرهاب. أنا أدركتُ أنّ الإسلاميّيْن سرقوا الثّورة، لكنّ عنف النّظام والمخابرات سهّل لهم الطّريق، وساعدهم. أرادوا أن يقولوا إنّ كلّ مَنْ خرج ضدّ الأسد إرهابيّ، وهذا كلام غير صحيح بالمطلق!

كانت معنا امرأة من "شبّيحة" النّظام، ادّعتْ على ثلاث نساء بأنهنّ ساعدنَ "الجيش الحُرّ" على خَطْفها. اكتشف المحقّق أنّها كاذبة، فأطلق سراح النّساء، واعتقلَها. كنتُ مستغربة، لأنّه كان عَلَويًّا، والنّساء اللواتي أطلق سراحهنّ من السُّنّة، بينما التي اعتقلَهَا عَلَويّة أيضًا. كنتُ مجروحة ومكسورة ممّا يحصل! هم كانوا يعتقدون أنّنا خرجْنا في الثّورة، لأنّنا ضدّهم كعَلَويّيْن، ونحن كنّا نعتقد أنّهم كلّهم مجرمون. لم نكن نعرف بعضنا كسوريّيْن، حواجز من الخوف والجهل فصلتْ علاقاتنا الإنسانيّة عن بعضنا. آلمني هذا كثيرًا! شعرتُ بأنّني محطّمة نفسيًّا.

لم أستطع الأكل في المهجع، بسبب الرّوائح النّتنة النّاتجة من الأجساد المتقيّحة والممتلئة بالجرب والبثور، والصّراصير المنتشرة بكثافة. كانت إحدى المعتقلات تُصاب بنوبة هستيريا عندما يأتون بالطّعام، لأنّ أهلها مُحاصَرون في اليرموك، وتصرخ أنّ نظام الأسد يحاصر أهلها وهم يموتون جوعًا، فيضربونها بعنف. كانت لا تتوقّف عن شتم الأسد. حمتْني طَوَال فترة وجودي في السّجن، كانت مثقّفة وصاحبة نَفْس عفيفة ونظيفة جدًّا، لكنّها كانت تعضّ المعتقلات من أجل الحصول على سيجارة. في إحدى المرّات، كانت في دورتها الشّهريّة، ولا نملك صابونًا، ولا قطنًا صحّيّة، سمعْنا صراخًا، كان الدّم يخرج منها، وتصرخ أريد صابونًا! أعطوها

صابونة، فأكلتْها، وبكت. وقفتُ أمام كاميرا مثبّتة في السّقف تُصوّرنا طوَال الوقت تحت أضواء، لا تُطفأ ليلاً ولا نهارًا. اقتربت الفتاة من عين الكاميرا، وصرختْ بصوت عالٍ: اسمعوا ... اسمعوا، الشّخص الذي سجنتُمُوني من أجله، كان يُهرِّب السّلاح لكم، وليس لـ "الجيش الحُرّ"!

أخيرًا، بدأ التّحقيق معي بعد طول انتظار! وكان هذا بمثابة احتفال، كان اسم المحقّق "دعّاس"، والمحقّقون كلّهم يحملون الاسم نفسه: دعّاس واحد، دعّاس اثنان، وهكذا ... ويُسمّون بهذا الاسم، لأنّ لهم الحقّ بدَعْس النّاس. كان المحقّقون يحتقرون المثقّفين، ويشتمونهم طوَال الوقت، وهدّدوني بأهلي، واتّبعوا أسلوب التّحقيق نفسه الذي خضعتُ له في الفروع الأخرى، ما عدا استخدام الكرسيّ الألمانيّ.

بلغتُ الرّابعة والعشرين، وأنا مكتئبة. أُشرف على توزيع الأدوية على السّجينات.

لولا صفقة تبادُل الأسرى بين النظام والكتائب المعارضة، لما خرجتُ من السّجن، لكنّني كنتُ محظوظة، غادرتُ سورية مباشرة، وأنا الآن لاجئة في أوروبا، وأحاول متابعة دراستي الجامعيّة.

قليلاً ما أنام. فَقَدْتُ ثقتي في المعتقدات والعدالة كلّها. تُراودني الكوابيس في نومي. لا يزال السّجن في داخلي. لا أطيق الحياة في غرفتي، وأدور حول نفسي، وأظنّ أنّني في السّجن. أفضّل البقاء وحدي، فالوحدة لا تُخسرني المزيد. أُجيد اللّغة الإنكليزيّة، وعندي مؤهّلات علميّة، لكنّني محطّمة. لن أنسى ما حييتُ مشهد الشّباب الممزّقين وهم يتساقطون فوقي عُراة شبه موتى، ولا أستطيع التّنفّس من الخوف. لن أنسى أنّني لم

أستطع النّوم، لأنّ التّحقيق كان كلّ ساعة. أحلم في أهلي طوال الوقت، على الرّغم من ذلك، ما زلت أذكر أنّ السّجّانين كانوا يأكلون من أكلنا الذي كان رديئًا، وبلا ملح. وأنّهم كانوا سجناء في الأقبية أيضًا! لقد كانوا فقراء مثلنا. لكنّهم كانوّا ظالمين، ونحن مظلومين. كنّا سجناء لديهم، وقد سجنوا أنفسهم معنا، لأنّ مهمّتهم التّعذيب. أعرف أن الظّلم مُركَّب، لكنّ ما عشناه نحن لن يشعروا به أبدًا، وحتّى لو كانوا أحيانًا لطفاء معي أو مع غيري. فقد يموت أيّ سجين بين أيديهم تحت التّعذيب. العدالة لا تتجزّأ، أتمنّى أن يخضعوا لمحاكمة، ويكتشفوا في أثناء تطبيق العدالة معنى الظّلم والاضطهاد، ما كُسر داخلي لا يمكن بناؤه من جديد، سرقوا منّي حقّي في العيش في بلدي والحياة بين أفراد عائلتي. هؤلاء المحقّقون والسّجّانون يعيشون معي في كوابيسي، ولا أريد نسيان ما فعلوه بنا، لذلك إدراكي حقيقة الظّلم الذي عشناه هو دافع لي لأتابع حياتي وأتماسك وأقف ضدّ الظّلم الذي مثّلوه، وعشتُهُ. لقد كانوا في نهاية الأمر متوحّشين، وخسروا إنسانيّتهم، وأنا كسبتُ إنسانيّتي.

الرّاوية التّاسعة عشرة

اسمي فاتن. كان عمري أربعًا وعشرين سنة، عندما بدأت الثّورة. أنا من "دوما" وُلدتُ وعشتُ وما زلتُ أعيش فيها، ولن أخرج منها. عائلتي كانت ضدّ حزب البعث. كبرنا ونحن نسمع حكايات الاعتقالات والتّعذيب في فترة الثّمانينيات، لأنّ عددًا من الصّيادلة والأطبّاء الذين اعتقلهم النّظام بتهمة الانتماء إلى"الإخوان المسلمين"، كان من مدينة "دوما".

أنا مُلتزمَة بدِيني، وفي طفولتي، انتميت إلى "القُبيسيّات"، ووصلتُ إلى مرتبة عالية معهنّ، ثمّ رفضتهنّ لاحقًا. انتميتُ إليهنّ، لأنّني كنتُ أبحث عن معنى الانتماء إلى الجماعة، والتّنظيمات الحزبيّة المسموحة فاسدة، فتطوّعتُ في جمعيّة خيريّة، وحاولتُ تطوير نفسي من خلال دورات مع اليونيسكو عن العمل التّطوعيّ، أسّستُ مع أصدقاء في "دوما" مركز التّعليم المجتمعيّ للأطفال الفقراء، وتابعتُ تعلّمي في جامعة دمشق، فرع الجغرافيا. وشكّلتُ في بيتي حلقات تحفيظ القرآن. أنا متديّنة، لكنّني منفتحة، وقاعدتي إسلاميّة وعلومي شرعيّة، وأريد سورية مَدَنيّة، النسيج الاجتماعيّ السّوريّ لا يسمح بإقامة خلافة إسلاميّة، والقانون لا يخالف الشّرع، لكنّ الإنسان هو الذي يخالفه.

عائلتنا لها ذكريات مريرة مع عائلة الأسد، ونحن نعرف أنّنا لا نعيش في دولة. كان الغضب ينمو في نفوس النّاس، بسبب المسّ بمعتقداتهم

وتقاليدهم الدِّينيّة. في الثّمانينيات، أُجبرتْ بنات أعمام أبي على خَلْع الحجاب في المدرسة. فَمَنَعَهُم أهاليهنّ من الذّهاب إليها، فخسرنَ فرصة التّعلّم هنّ وجيلان كاملان في "دوما". كنتُ محظوظة، لأنّ هذا القانون أُلغي عندما كبرتُ، لكنّنا وجدنا أنفسنا أمام جيلَيْن من النّساء غير المتعلّمات في "دوما".

أوّل تظاهرة شاركتُ فيها، كانت في الثّالث من شهر نيسان ٢٠١١، وقتل رجال الأمن أحد عشر شابًّا، كنّا نبكي ونهتف: حرّيّة حرّيّة. منذ ذلك اليوم، لم أفوّت تظاهرة. شاركت النّساء بداية في التّظاهرات، وغالبيّتهنّ من أهالي الشّهداء الذين قُتلوا في التّظاهرات السّابقة. الرّجال كانوا في الأمام دائمًا، تليهم النّساء. كانت التّظاهرة الأخيرة بعد تحرير "دوما" في ٢٥/١٠/ ٢٠١٢، ثمّ توقّفت النّساء عن الخروج، حتّى الرّجال قلّ عددهم جدًّا في التّظاهرات، بسبب القصف المستمرّ، بخاصّة على الجوامع التي خرج منها المتظاهرون.

في نهاية عام ٢٠١٦، كنّا أربع نساء فقط في التّظاهرات، نُنظّم حملات احتجاج واعتصامات مثل التّضامن مع حلب. كان حسّ التّظاهر المَدَنيّ يختفي شيئًا فشيئًا. خرج كُثُرٌ من أهل "دوما" المتعلّمين، وكانت هناك تيّارات دِينيّة من "النّقشبنديّيْن" و"السَّلَفيّيْن"، ومن التّيّارات السّياسيّة، كان الاشتراكيّون، وقد عانينا نحن النّساء كثيرًا منهم. عانينا من الأطراف كلّها من دون استثناء.

اعتُقلتُ مرّتَيْن لدى النّظام، في الشّهر الأوّل من ٢٠١٢، وفي ٢٥/ ٠٩ من العام نفسه.

نظّمتُ مع صديقات "تنسيقيّة ثائرات دوما". تطوّعنا في العمل الإغاثيّ والإعلاميّ، وكنتُ من أوائل مراسلي "تنسيقيّة دوما"، أدخلتُ وفدًا إعلاميًّا أجنبيًّا إلى "دوما"، وهذا سبب اعتقالي الأوّل، ثمّ توسّع عملي الإعلاميّ. كنّا تسعًا وعشرين امرأة، لا نتوقّف عن العمل، وقد قمنا بتأمين منشقّين كُثُرٍ عن جيش الأسد، وحمايتهم، وتأمين السَّكَن والشّرب والأكل لهم. كنتُ على وشك التّخرّج في جامعتي عندما خَطَفَ "أبو النّصر شمير" قائد كتيبة "البراء"، ثمانية وأربعين إيرانيًّا في شهر أيلول ٢٠١٢. كنتُ في طريقي إلى دمشق عندما اعتقلني عناصر النّظام على خلفيّة خطف الإيرانيّيْن. أخذوني الى فرع "كفرسوسة" ٢١٥ سرّيّة المداهمات، عذّبوني لشهر كامل من أجل الحصول على معلومات عن المختطَفين الإيرانيّيْن، والذين اعتقلوني كانوا على تواصل مع بشّار الأسد. تفنّنوا في تعذيبي، لم يتحرّشوا بي جنسيًّا، لكنّهم أبدعوا في إذلالي وإهانتي.

خرجتُ بصفقة تبادل بين الإيرانيّيْن و"كتيبة البراء"، أبرمتْها منظّمة "إيهاها" التّركيّة. عندما خرجتُ من السّجن، أخذوني إلى بيت السّفير الإيراني مباشرة، دُعيتُ إلى مائدته. قال لي السّفير: "حجّاجنا عندكم". كان من الأسرى سبعة عشر رجلًا من الحَرَس الثّوريّ الإيرانيّ، والبقيّة من المَدَنيّيْن. فلم أجبْ، لأنّني لم أخطفْهم! وهم ليسوا بحجّاج! كان لطيفًا معي. عرض عليّ أن أخرج مع الوفد التّركيّ المفاوِض خارج سورية، والأتراك المفاوضون في المنظّمة عرضوا عليّ العمل فورًا معهم. الأسرى فعلًا كانوا محتجَزين لدى "كتيبة" من أهل "دوما"، ونحن كنّا خمس نساء وثلاثة رجال من "دوما" رهائن للمقايضة، كان شرط قائد "كتيبة البراء" إطلاق سراح الرّهائن، وتأخّرت الصّفقة. في النّهاية، أُبرمَتْ، وخرجنا.

عدتُ إلى "دوما"، وتطوّعتُ مباشرة في الدّفاع المَدَنيّ.

غالبيّة العائلات نزحتْ يوم ٢٥/١٠/٢٠١٢، كان هذا تاريخ أوّل غارة طيران على المدينة، وبقيت العائلات الفقيرة، فقرّرْنا أنا ومجموعة من الشّباب افتتاح مركز تعليميّ لأطفال هذه العائلات، وسمّيناه مركز "اقرأ" في ١/١٢/٢٠١٢. بعد أسبوع، كان لدينا مئتان وخمسون طفلًا. جاء إلينا "زهران علّوش"(*)، وقال إنّه يريد دَعْمنا. كان حينذاك قائد "لواء الإسلام". وافقْنا بشرط عدم تدخّله. افتتحْنا أربعة مراكز جديدة، بسبب الحاجة. حينذاك، نشأ "مجلس الشّورى" في "دوما"، وضمّ ستّة عشر شيخًا. كان مُحاصصة بين "الصّوفيّيْن" و"السَّلَفيّيْن" وثلاثة شيوخ مختلفين. كان مثل المجلس الأعلى، وقد عَيَّن هؤلاء الأعضاء فيه أقرباءَهم من عسكريّي "الكتائب"، وأنشؤوا سجون شرطة قضاء ومجلسًا محلّيًّا، وبدأت الضّغوط علينا من مجلس الشّورى نحن والدّفاع المَدَنيّ، والفعاليات المَدَنيّة كلّها.

كنتُ قياديّة في عملي المتعدّد التّوجّه. كانت في "دوما" سبع كتائب: "لواء الإسلام، كتيبة البراء، شهداء دوما، أسود الغوطة، أسود الله، شباب الهدى ...". وكانت التّيّارات "السَّلَفيّة" تحاول تقوية وجودها بالحاضنة الشّعبيّة. دخلتُ معها في مواجهة وحرب، على أنّ التّعليم والقضاء يجب ألّا يخضعا لسلطة العسكر، ولأنّني كنتُ مديرة مؤسّسة "اقرأ"، منعتُ دخول العسكر. كانت كلّ كتيبة تُوزِّع شعاراتها على الأطفال، وعَصابات للرّأس، بشعارات كلّ "كتيبة"، ليضعها النّاس، ويُعلنوا ولاءهم لـ "الكتائب". فرضتُ

---

*)من مواليد مدينة دوما ١٩٧١، وهو ابن الشّيخ السّلفيّ عبد الله علّوش، درس علومه الشّرعيّة في سورية، وتابعها في المملكة العربيّة السّعوديّة، كان سَلَفيًّا متشدّدًا ومُعتَقَلًا في سجن صيدنايا منذ عام ٢٠٠٩. أُطلق سراحه من قبَل أجهزة الأمن السّوريّة، بعد انطلاق الثّورة، وقد استلم قيادة جيش الإسلام في غوطة دمشق، وقُتل بغارة روسيّة عام ٢٠١٥.

نظامًا في المراكز برَفْع عَلَم الثّورة، ورفض رَفْع أيّ شعار تابع لـ "الكتائب". النّظام التّعليميّ الذي قرّرْناه لم يكن دِينيًّا. كنتُ أنا والنّساء نحقّق حُلمنا في بناء جيل مختلف. أسّسنا لمنهج جديد في التدريس، واخترعْنا طرائق تدريسيّة مختلفة. نظّفْنا المدارس بأيدينا، وجهّزناها، أتينا بالحلّاقين من أجل النّظافة، وتبرّعْنا بثياب للطّالبات، لتغيير ثيابهنّ، والحفاظ على صحّتهنّ. حاربَني أشخاص، وقالوا إنّني أُشكّل خطرًا على تربية الأطفال، لأنّ عقيدتي الدِّينيّة منحرفة. حاورتُهم، وجادلتُهم، ولم أرضخْ لهم، كانت معركتي معهم مباشرة وصعبة! في الفترة نفسها، كان القصف يشتدّ، وأعبائي الاقتصاديّة تزداد، وأخي المُعيل اعتُقل، وأسرتي مسؤوليّتي، و"دوما" فُرِّغتْ من متعلّميها ومثقّفيها، ومَنْ بقي منهم قُتل تباعًا. كنتُ أنتقد "الكتائب" علانيّة، قلتُ لهم أنا خرجتُ ضدّ ظُلم الأسد، وأنتم تَظلمون، ولن أرضخ لكم.

في بداية ٢٠١٣، اتّضح أنّهم لا يريدون أيّ وجود فعليّ للنّساء في قيادة أيّ تجمّع، إلّا على طريقتهم. هذا الأمر لم تفعله "الكتائب" فقط، بل فعله الرّجال من "سَلَفيّيْن" و"إخوانيّيْن" وعلمانيّيْن جميعهم.

بعد حصار "دوما"، فَقَدْتُ من وزني ثلاثين كيلوغرامًا، وأصبحنا فقراء جدًّا، وتابعتُ عملي في "تنسيقيّة دوما". اختلفتُ مع التّنسيقيّة، لأنّ "جيش الإسلام" وضع يده على كلّ شيء، وظهر تيّار دِينيّ متشدّد مرافق التّيّار العسكريّ، وصار لباس "السَّلَفيّيْن" هو السّائد، المنديل الأسود العريض الذي يغطّي الوجه كلّه، ويصل إلى منتصف الصّدر. أنا رفضتُ ارتداءه، وظللتُ أرتدي ثيابي الملوّنة، وأنتعل حذائي الرّياضيّ. بدوتُ مختلفة بين النّساء وشاذّة. المفارقة أنّهم قبل الثّورة كانوا يرونني متديّنة، وبعد الثّورة صرتُ محسوبة على الكفّار.

فرضوا على النّساء البقاء في البيت بطريقة غير مباشرة، والقصف ساعد على ذلك والمعارك أيضًا، ونشأ الزّواج المتعدّد، وصرنا نسمع بطفلات في عمر الثّالثة عشرة والرّابعة عشرة يتزوّجنَ. لعب العامل الاقتصاديّ دورًا في هذا لا الدِّينيّ فقط. أظنّ أن أسوأ ما فعلتْهُ الحرب، هو إنتاج التّخلّف الاجتماعيّ، وكان جزءًا من التّشدّد الدِّينيّ الذي طفا على السّطح، وهذا مردُّه إلى أسباب عدّة، منها أنّ طبقة المتعلّمين والمثقّفين خرجتْ من "دوما"، والطّبقة غير المتعلّمة هي التي حكمت البلد، بقي بعض تجّار "دوما" الأغنياء، ومنهم مَنْ كان "سَلَفيًّا". أنا ضدّ القول إنّ التّشدّد جاء من العَدَم، أو من عنف النّظام فقط. كان "زهران علّوش" من أهل "دوما"، و"دوما" نفسها فيها تيّار "سَلَفيّ"، وكان مُعتَقَلًا في "صيدنايا". أُطلق سراحه مع رفاقه "السَّلَفيّيْن" الآخرين من سجون نظام الأسد في الشّهر الثّالث من ٢٠١٢. أنا من أهل "دوما"، وأعرف تمامًا ما حصل. التّيّار "السَّلَفيّ" كان موجودًا في "دوما"، والنّظام قبل الثّورة كان اعتقل غالبيّة مشايخه، أيضًا كان هناك تنافس في دَعْم "الكتائب" من قِبَل قطر والسّعوديّة، "فيلق الرّحمن" دَعَمَهُ القَطَريّون، و"جيش الإسلام" دَعَمَهُ السّعوديّون في بداية تأسيسه ٢٠١٢. وحين كان مُجرّد "كتيبة" اسمها "سرّيّة الإسلام" انتسب إليه أكثر الشباب خُلُقًا وتهذيبًا والتزامًا. قالوا حينذاك إنّهم لا يريدون أيّ مكسب سياسيّ. تغيّر الأمر لاحقًا.

كان يتمّ التّعتيم على بعض الحقائق، مثل أنّ اللّباس الأفغانيّ المتشدّد لم يكن موجودًا، وهذا ليس صحيحًا، كان هناك "سَلَفيّون" يرتدون هذا اللّباس، والنّساء بدأنَ يضعنَ الكفوف السّود قبل الثّورة. عندما امتلك "زهران" القوّة والسّلطة، اتّجه النّاس إلى مذهبه، وتقرّبوا منه، صارت القوّة

العسكريّة والاقتصاديّة في أيديهم. كان جزء من الانحياز إلى التّطرّف انحيازًا إلى السّلطة والقوّة.

أنا مؤمنة بأنّ لا إكراه في الدِّين الإسلاميّ، لكنّهم فرضوا كلّ شيء بالقوّة. مرّة، أردنا أن نقيم حفل تكريم للمنظّمات المَدَنيّة الفاعلة في "دوما"، واحتجْنا إلى موافقة، وهذه الموافقة لا تختلف كثيرًا عن الموافقات الأمنيّة عند النّظام، فقال لي أحد الشّيوخ إنّ مثل هذا الحفل هو مخالف لشرع الله، لأنّه يجمع الرّجال والنّساء. ناقشتُهُ فقهيًّا وشَرْعيًّا، فهدّدني ومَنْ معي بالاعتقال، إن أقمْنا هذا الاحتفال، حتّى إنّ جماعته نظّمتْ دوريّات على أعراس النّساء، حيث لا يوجد غيرهنّ! والتي كانت تُضبَط مرتدية ثيابًا بألوان برّاقة أو كاشفة أيّ جزء من جسدها، فكانت تُعاقَب. والموسيقى ممنوعة، لأنّها تُعدّ مخالفة للشّرع والقانون. النّساء التّابعات لـ "الحسبة" كنّ يُنفّذْنَ العقوبة، الرّجال يُقرّرون، والنّساء يُنفّذْنَ. الذين عملوا في "الحسبة" لم يكونوا متديّنين قبل الثّورة. كانوا مُنتشين بسلطتهم على النّاس. أيضًا زوجات رجال العسكر من المعارضة كنّ في موقع السّلطة غالباً، وحصلنَ على أموال الإغاثة والمشاريع في "دوما". كانت الأموال تُهدَر بغباء، لأنّها تُسلَّم لزوجات المتنفّذين في "الكتائب"، وهؤلاء النّساء صرنَ جزءًا من فساد ماليّ، وشكّلنَ طبقة ثريّة جدًّا مع أزواجهنّ مقابل طبقة معدمة من الفقراء. ونحن النّاشطات الذين خرجْنا في الثّورة، وعملنا فيها، صرنا مرفوضات اجتماعيًّا، بخاصّة أنّنا كنّا تجاوزنا العشرين من العمر، وعملنا يقتضي الحركة والاختلاط بالرّجال، وهذا دفع كُثُرًا من النّاشطات إلى الهرب من "الغوطة"، حتّى إنّ طالبات الطّبّ تركنَ العمل الإغاثيّ مُرغَمات، وخرجنَ من "دوما"، على الرّغم من أنّهنّ من سكّانها الأصليّيْن، وسافرنَ، بسبب ضغط الرّجال عليهنّ، وتقييد حُرّيتهنّ وحركة عملهنّ.

عمومًا، لم تكن مراكز قياديّة للنّساء موجودة في "الغوطة". خوف النّساء من المشاركة هو جزء من خوفهنّ من المجتمع، النّساء يخفنَ من "الحسبة" وما تفرضه من عقوبات تسيء إلى سمعة المرأة اجتماعيًّا، فيتعرّض أهلها للنّبذ والعار.

في ٢٠١٦، خرجْنا في تظاهرة نسائيّة، نطالب بوحدة قوى "الغوطة"، لم تخرجْ معنا سوى خمس عشرة امرأة، غالبيّتهنّ من المطلّقات والأرامل. الخوف من الخروج معنا كان بسبب الخوف من عدم الحصول على زوج في مجتمع الحرب، لأنّ خروجنا ومشاركتنا في السّياسة يعنيان الاختلاط بالرّجال. أصدقاؤنا الشّباب كانوا يقولون لنا إنّهم لن يتزوّجوا بنساء يختلطنَ بالرّجال. وصارتْ لديهم خيارات أوسع، فالزّواج المبكّر انتشر، وتعدُّد الزوجات صار من الأمور المحبَّبة والطّبيعيّة جدًّا. تغيّر الرّجال بسبب انغلاق المجتمع والحصار والقصف والأفكار الدِّينيّة المتطرّفة المدعومة ماليًّا، والشّباب أنفسهم كانوا مُشوّشين، ويخضعون لضغط اجتماعيّ كبير.

تحوّلت المرأة عاملة بدل أن تكون فاعلة. القطاع التّعليميّ في "دوما" فيه نسبة ثمانين في المئة من النّساء، وفي المناصب القياديّة لا توجد امرأة واحدة، وشعارهم في ذلك "لا يُفلح قوم ولّوا امرأة أمرهم". هذا جعلني غاضبة! أنا امرأة، وأسّستُ المراكز التّعليميّة الأولى، وكان حواري مع القوى الثّوريّة منذ البداية بأنّنا نريد الحفاظ على مؤسّسات الدّولة والمدارس أوّلًا. في مبنى وزارة التّربية والتّعليم، شُكِّلَتْ ستّ عشرة دائرة في "الغوطة" في شتّى الاختصاصات من تعليم وطبابة وغيرها. وهذه الدّوائر كلّها استلمها رجال، وقادة الصَّفَّيْن الأوّل والثّاني فيها رجال، ورواتب الرّجال غالبًا أكثر من رواتبنا، على الرّغم من عدم وجود قانون يقول

ذلك، لكنّ التّمييز كان واقعًا. الرّجال يعملون إداريًا، ومن وراء مكاتبهم، ونحن النّساء نعمل ليلاً ونهارًا في المدارس، والعمليّة التّعليميّة كنّا نُنجزها على أرض الواقع، لم نسكتْ، احتجَجْنا لتتساوى أجورنا في العمل، وطالبْنا بالمساواة، إلّا أنّ هذا كلّه لم يُجدِ نفعًا. لم يسمعونا، قمنا بهذا كلّه في أثناء القصف والمجازر، حتّى في المجالس المحلّيّة كان وجود المرأة شكليًّا. كانت النّظرة إلينا دُونيّة، وقد عزّزها التّطرّف الدِّينيّ الذي بدأ يزداد، والثّقة التي فَقَدَهَا النّاس ببعضهم بعضًا نتيجة العنف. الضّغط الاجتماعيّ على وجودي كامرأة كان أصعب من القصف بالنّسبة إليّ. كنّا محاصرين من النّظام، ونُقصف منه ومن روسيا. وكنّا كنساء مُحاصَرات من "الكتائب" ومن المجتمع، وأيّ خروج عن ذلك يُعرِّضنا لتشويه سمعة، تجعلنا مرفوضات. لذلك، صارت النّساء، وفي هذه الظّروف، يتصرّفنَ بحذر، ولا يعترضنَ ليكنّ بمأمن، ولا يبقينَ بلا زواج.

كان هناك سجن للنّساء، وكانت مديرته امرأة، وأعوانها نساء، تأسّس عندما كانت "كتائب شهداء دوما" مسيطرة في أوائل عام ٢٠١٢. اعتُقلت نساء قيل إنّهنّ كنّ يعملنَ لدى نظام الأسد. مديرة السّجن هي نفسها الجلّادة. وبعد معركة تحرير "دوما"، أسّستْ "سجن النّساء" وكان بناء مؤلّفًا من طَبَقَتَيْن قرب ساحة بلديّة "دوما"، وهي نفسها خَطفت نساء من مدينة "جرمانا" عَلَويّات ودرزيّات، وفاوضتْ على إطلاق سراحهنّ مع أهاليهنّ، وأخذت الأموال فدية لهنّ. كانت بين السّجينات فتاة اسمها سلوى ساعور مختلّة عقليًّا. قال الطّبيب يجب حَجْزها. كانت مديرة السّجن تُعذّبها، هربتْ من السّجن ثمّ أُعيدتْ إليه، ثمّ قيل إنّها انتحرتْ، لكنّ أمّها عندما استلمتْ جثّتها، قالتْ إنّ الفتاة ماتت تحت التّعذيب. آثار التّعذيب كانت واضحة في أنحاء جسمها. السّجون التّابعة لـ "زهران

علّوش"، لا نعرف عنها شيئًا، سجن "التّوبة" سجن سرّي، وهو مُغلَق، والمَدَنيّون ممنوع عليهم الاقتراب منه. ولا نعرف في أيّ سجن يضع النّساء، حتّى الأسيرات اللواتي خطفهنّ وهنّ أمّهات ضبّاط من "عدرا" أو زوجاتهنّ، لم يكن مكانهنّ معروفًا.

عندما خُطفَت رزان زيتونة وسميرة الخليل، خاف أهلي والنّاس على النّاشطات، وكان لهذا الخطف أثر سلبيّ علينا كنساء. وهذا ساهم في انكفاء حضورنا، لقد شعرتُ بأنّني مُحاصَرة أكثر فأكثر، والمجازر لا تتوقّف.

شهدتُ المجازر كلّها التي ارتُكبت في مدينة "دوما"، أكثرها عنفًا في داخلي كان "مجزرة الطّلّاب" في ٢٠١٥/١٢/١٥. كان الطّيران الروسي يقصفنا ليلًا و نهارًا مع طائرات "الميغ" التّابعة للنّظام السّوريّ التي تقصف في النّهار فقط. تكثّفت الغارات على "دوما"، وتوقّف التّعليم، ومن أصل ثلاثة شهور، داوم الطّلّاب لسبعة عشر يومًا فقط. قرّرتُ وصديقاتي أن نقوم بحملة "من حقّي أن أتعلّم". قمنا بنشاطات عدّة، كانت مسؤولة عنها الفاعليّات النّسائيّة في "دوما". في يوم المجزرة، اجتمعنا في معهد تعليميّ وهو جزء من مجموعة أبنية تعليميّة. وعبارة عن كتلة مدارس متجاورة. كنّا خمس نساء في غرفة وحولنا طلّاب في المدارس الابتدائيّة. أُطلق الصّاروخ الأوّل في السّاعة الثّامنة صباحًا. كان عنقوديًّا، وأوّل ما ينفجر فيه حاملة القنابل، وفيها بين تسع وثلاث عشرة قنبلة، ولها مظلّة أيضًا. قبل دقائق، سقطتْ قذيفة على سوق الهال المكتظّة صباحًا بالنّاس، وتبعد منّا ثلاثمئة متر فقط. سقط الصّاروخ الثّاني على مدرسة البنات الابتدائيّة التي تبعد منّا عشرين مترًا فقط، وانقلبت الدّنيا فوق رؤوسنا، لم نعد نرى ما حولنا! ركضتُ ورميتُ نفسي فوق صديقة لي، لأنّني كنتُ أعرف أنّ الانفجارات

ستتوالى، اعتقدتُ أنّنا نجونا، وإذا بي أرى رأس صديقتي مشقوقًا. كان صراخ الطّفلات الصّغيرات مرعبًا. انتظرنا حتّى انتهت الانفجارات العنقوديّة. أخذتُ صديقتي، ووضعتُ يدي على رأسها المشقوق، وركبْنا الحافلة، وذهبنا إلى نقطة طبّيّة. عندما وصلتُ، رأيتُ أبشع منظر في حياتي. كنتُ قد رأيتُ كثيرًا من المجازر، ورأيتُ الجثث والفظائع، لكنّ منظر الطّفلات الصّغيرات وحقائبهنّ في أكتافهنّ وهنّ مبتورات الأطراف، كان فوق احتمالي، صور لا يمكن أن تصفها اللّغة! كان هناك قسم خاصّ بالنّساء والأطفال. أذكر طفلة اسمها رنيم المليح، وأذكر لون حقيبتها على ظهرها، منظرها لا يفارق رأسي مع رجلها المبتورة. كانت الطّالبات بين السّتّ والتّسع سنوات فقط، وكنّا لا نزال نتعرّض للقصف والطّفلات يصرخنَ. بطونهنّ مفتوحة، ولم يغبنَ عن الوعي. بقيتُ معهنّ. أمسكتُ بأيديهنّ، ولم أتركهنّ حتّى نهاية النّهار، أكثر موقف آلمني أنّ طفلة رفضتْ أن تُعطيني قلمًا وورقة من حقيبتها عندما طلبتُ منها، لأنّ أمّها أوصتْها بألّا تهدر أوراقها، لأنّها لن تستطيع أن تشتري لها دفاتر جديدة. بعد جهد جهيد من محاولات إقناعها، أعطتْني نصف ورقة، كان اسمها ليلى الخطيب، وقد نَجَتْ.

عدتُ إلى بيتي وثيابي تقطر دماء. انهرتُ، وشعرتُ بالعَبَث واللّاجدوى، لقد كنتُ مديرة مدرسة، وأقود حملة من أجل التّعليم والطّائرات قتلت الكادر التّعليميّ والطّلّاب. ضحكتُ بهستيريا، وشعر أهلي بالخوف عليّ!

بعد هذه المجزرة، فَقَدْتُ قدرتي على التّحكّم بكمّيّة الطّعام التي أتناولها، وأُصبتُ باضطرابات هضميّة. كانت اللّحظة التي رأيتُ فيها طلّابي قَتْلى ومبتوري الأطراف لحظة حاسمة. لقد فَقَدْتُ نفسي، كنّا نموت فقط، كلّ ما نفعله أنّنا كنّا نموت، وكنتُ أموت معهم، ثمّ أعيش،

ثمّ أموت وأعيش، كان الجنود يعرفون أنّ هناك طلّابًا في المدرسة التي قصفوها، وصل عدد الشّهداء ذلك اليوم إلى ثمانية وأربعين، وكان لدينا ثلاث حالات بَتْر أقدام، وخمس حالات لأطفال مفتوحي البطون، وخلال ساعَتَيْن من القصف المتواصل، أحرقوا "دوما". يقولون إنّهم يقضون على الإرهاب و"داعش"، وعلى التّطرّف الدِّينيّ، لكنّهم يقصفون أطفال المدارس فقط. لقد نجوتُ من الموت عشرات وعشرات المرّات والقذائف دائمًا حولي، ودائمًا أسأل نفسي لماذا عشتُ؟ ألأرى هذه الفظاعات كلّها؟ أكثر ما يخيفني الآن هو بعد هذه المآسي كلّها أن أضطرّ للخروج من "دوما"، ويحصل معي كما حصل مع غيري، ونُهجّر إلى الشّمال السّوريّ، كما حصل في "داريا" و"حلب". ما زلتُ أطمح لأن أكون مؤثّرة في محيطي، لذلك أرفض الخروج.

لم نكن جاهزين للثّورة، كان يجب أن نقوم بتغييرات اجتماعيّة كثيرة، فالثّورة أكلتْ أبناءَها، والذين خرجوا ضدّ الأسد، صاروا أشباهه. أنا نفسي بنت مدينتي تعرّضتُ لمحاولتَي اغتيال. مرّة، كنتُ أحاول عرض فيلم سينمائيّ عن الحركة النّسويّة في بريطانيا، فاقتحم مسلّحون ملثّمون المكان، وهدّدوا بقَتْلي، لأنّني أُحرّض النّساء، وأُفسدهم. ومرّة ثانية، هدّدني قائد "كتيبة" بالقتل، لأنّني لم أمتثل لأوامره. ومن أجل مقال في مجلّة، اتُّهمتُ بالكفر، إنّهم جاهزون للاتّهام بالقَتْل والتّكفير، وأنا واحدة من المسلمات الملتزمات، ومتبحّرة في الشّريعة والفقه، قاعدتي الأساسيّة ألّا أخضع لحكم عَسْكر ولا لمستبدّ ولا لحاكم، وما زلتُ مؤمنة بالتّغيير والفعل الثّوريّ الذي بدأنا به ثورتنا السِّلْميّة. اليوم تحديدًا، أنهيتُ حملة عن مساوئ الزّواج المبكّر على الفتيات، وعندما رأيتُ أثر ذلك على النّساء، شعرتُ بالقوّة، وبأنّني يجب أن أمشي إلى الأمام، ولن يُوقِفني سوى الموت.

فهرس المحتويات



سمر يزبك: كاتبة وصحافية سورية، ولدت في مدينة جبلة سنة ١٩٧٠. عملت في عدة صحف عربية وسورية، وكتبت للتلفزيون أفلاماً تتناول قضايا حقوق المرأة. أصدرت ١١ كتاباً بين قصة ورواية وسرد منها «صلصال، لها مرايا، جبل الزنابق، المشّاءة».

أسست سنة ٢٠١٢ «النساء الآن من أجل التنمية»، وهي مؤسسة تعنى بتمكين النساء على المستوى الاقتصادي والثقافي والسياسي، في مناطق الحرب ومخيمات اللجوء. بعد الانتفاضة الشعبية سنة ٢٠١١، اشتغلت سمر على توثيق الذاكرة السورية في كتابيها «تقاطع نيران، بوابات أرض العدم». ويشكل كتاب «تسع عشرة امرأة» الجزء الثالث من شغلها على هذه الذاكرة. حصلت على عدة جوائز عالمية، وتقيم حاليا في باريس.



يضمّ هذا الكتاب جهد مجموعة حوارات أجريتُها مع خمس وخمسين امرأة في البلدان الّتي لجأنَ إليها: تركيا، فرنسا، ألمانيا، كندا، لبنان، بريطانيا وهولندا، وكذلك في الدّاخل السّوريّ. اخترت منها تسع عشرة شهادة فقط، بسبب الشّبه المتكرّر في تجارب النّساء، والّذي يظهر لنا جزءًا من الجحيم الّذي قاومنه بشجاعة في سورية، وهو جزء من جحيم تعيشه النّساء في العالم العربيّ وفي مناطق أخرى من العالم، فكانت الأولويّة في الاختيار لمسألة التّنوّع الجغرافيّ السّوريّ، لتشكيل مشهديّة أوسع عن الذّاكرة.

ذهب هاجس السّؤال عندي إلى مسؤوليّتنا كأفراد في تكوّن ذاكرة حقيقيّة وفعليّة، مضادّة لتلك الّتي تسعى إلى تبرير الجريمة، ذاكرة قادرة على تثبيت سرديّة موازية تنصف قضيّتنا العادلة، وتُظهر جزءًا من الحقائق ساطعًا وبليغًا. لقد رأيت أنّ أساس البدايات هو التّحديق والبحث في صورتنا المُفترضة كهويّة جمعيّة، وتفكيكها، ومكاشفتها. ببساطة كانت هذه الذّوات الّتي شكّلتها النّساء جزءًا من ذلك البحث المحموم الّذي قادني إلى التّحديق المهول في تلك الهويّة.

هذا الكتاب هو أحد طرائقي في المقاومة، وجزء من إيماني بدورنا كمثقّفين وكتّاب في تحمّل مسؤوليّتنا الأخلاقيّة والوطنيّة تجاه العدالة وإنصاف الضّحايا، والّتي يتجلّى أهمّ وجوهها في حربنا ضدّ النّسيان.


ISBN: 978-88-85771-24-6
9 788885 771246

المتوسط